



استعراضات

بيان جاك روسو

الجزء الثاني



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
لنطبع والنشر والتوزيع
بازار القاهرة - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ملي راد

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسوي

الإسكندرية

٤٠

كتابي

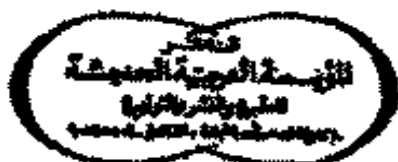


يصدره : هادي مراد

مطبوعات كتابي

اعترافات جان چاك روسو

الجزء الثاني



المستشار بمجلس
البرلمان

كتابي

وهو علمي حلمي مراد

●●●

كتب دورية للكلمة والخطبة الزمنية ..

● مختارات كتابي : باللغة المصرية

● معجزة لزور الكتب العالمية .

● مطبوعات كتابي : الترجمة

التيبة الكاملة لأشواق الكتب العالمية .

● روايات كتابي : ترجمة

أحدث الروايات العالمية المعاصرة

●●●

شمس كتابي



مصباح الفكر عند الإلهام

●●●

وهو علمي

الأستاذ / محمد عبد السلام

●●●

إشراف

الأستاذ / محمد عبد السلام

●●●

المكتبات

هيئة التحرير : حلمي مراد : ١٨ شارع العباسين - مصر الجديدة ١٧٥١٢٦ - ٢٩١٤٤٤٩

الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة : ٨٢٦٢٨٠ - ٨٢٦٢٤٧

طباع ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٦٠٩٠ شارع كامل صديق القاهرة -

٤ شارع الإسماعيل بن مشقة الكبرى بركبي مصر الجديدة - القاهرة : ٨٢٦٢٨٠ -

٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ج. ٢ - ٢٠٠٤



اعترافات
جان چاك روسو
الجزء الثاني

الجزء الأول . . في سطور

ولدت في (جنيف) — في عام ١٧١٢ — لأب كان يعمل في صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلاً من أن يكرهنى أبى لذلك ، فإِنَّه أسرف فى حبى ، لأننى كنت شديد التشبه بأبى .

تنبه احساسى قبل أن يتنبه فكرى . ثم عهد أبى إلى أسلوب خطر ، إذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة . اضطر أبى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكري فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . بقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجاً من عمى ، والذى أرسلنى مع ابنه إلى « يوسى » لتقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ونطقى العلم على يديه ويدي أخته التى نبه عقابها إياى ، المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على اثر عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . . والحقنى خالى بمكتب موثق للمقود ، فلم استسغ هذا العمل . ومن ثم الحقنى بصبى — أو تلميذ صانع — ليدى حفار ينقش على المعادن . وهناك اخططت بالعمال الذين كانوا يكبروننى ، وتعلمت السرقة ، سيما وأن معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك لم أكن أسرق حبا فى المال أو الحياة . . وإلى جانب هذا ، استند إقبالى على القراءة حتى أصبح تهوسا .

واضطرتني تسوة معلمى ، ونفورى من حيلتى ، إلى الهرب من (جنيف) .. وانتهى بى المطاف إلى سيدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى « مدام دى فاران » ، التى اشغلت على ، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكية .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفسقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى مدام دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وأفردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، برقم انفكاش مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت أدموها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . ففسد أوجدتنى « ماما » مرة لأماون السيد « لوميتز » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم .. وقد رافقته إلى (ليون) ، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفرط إسرافه فى الشراب ، ففرت منه فى إحدى هذه النوبات ، وعدت إلى (انيسى) .. وإذا بى أفاجأ بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

وأقيمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت أصرفه من قبل ، كان يزعم أنه موسيقى موهوب . وكان لبقا ، أثيقا ، مرحا ، يستهوى الإناث .. وعرفنى « فينتور » بالاضابط

القضائي - السيد سيمون - الذي أبدى ارتياحا لصحبتى . .
وكان مشوه الجسم ، شديد القصر ، كبير الرأس ، لذلك كان
يحلو له أن يعقد مقابلاته فى الضباح ، وهو فى السرير ، حيث
تبدو رأسه ذات القنمات الجميلة ، ولا يبدو جسده المشوه !

والآن . . تابع قراءة هذا الحادث الذى
بدأ به « روسو » الكراسية الرابعة من امترافاته .



وفى ذات صباح ، بينما كان ينتظر فى سريره - او
بالأحرى ، على سريره - أصحاب الشكايات ، وقد ارتدى
قلنسوة بيضاء بديعة ، مزدانة بزائفتين عريضتين من شريط
وردى اللون ، وصل أحد الريفيين وطرق الباب . وكانت الخادم
قد خرجت ، فما أن سمع السيد سيمون الطرقات ، حتى
صاح مجيبا : « ادخل ! » . . وهو إذا لفظ الكلمة بشيء من
القوة ، انبعثت بصوته الحاد . ودخل الرجل ، لمبحث من مصدر
هذا الصوت النسوى ، وما أن رأى فى السرير قلنسوة وشريطا ،
حتى هم بالخروج ثانية ، وهو يقدم « للمسيدة » اعتذارات
بالغة ! فغضب السيد سيمون ، ولم يزد إلا صراخا ، فتأكد
الريفى من فكرته ، ورأى أنه قد أهين ، فأفرقه بالشتائم ، وقال
له - لها : « لست سوى فاجرة » ، وإن السيد الضابط القضائي
لا يضرب بحياته المنزلية مثلا طيبا ! . . واشتد بالسيد سيمون
الغضب ، فلم يجد فى تناول يده سوى الوعاء الذى يقضى فيه
حاجته فى المخدع ، فأوشك أن يلقي به على رأس الرجل
المسكين ، لولا أن وصلت مدبرة بيته !

وإذا كان هذا القزم الضئيل قد شوهت الطبيعة جسمه ، فإنه لقي تعويضا في الناحية العقلية التي كانت بطبيعتها مقبولة ، والتي كان يعنى بتحسينها . ومع أنه كان يقال عنه إنه كان مستشارا قضائيا موفقا ، إلا أنه لم يكن يحب مهنته . فالقى بنفسه في غمار الأدب ، واستطاع أن يوفق . ولقد اكتسب — فوق كل شيء — تلك اللباقة السطحية ، تلك الموهبة التي تبعث في المجتمع طرافة ، سيما مع النساء ! . . كان يعرف عن ظهر قلب دقائق المأثورات (١) وما إليها ، وقد أوتى فن إيرازها ، وربطها بالمناسبات ، وإحاطتها بجو غريب ، وكان الذي حدث مثلا منذ مستتين عاما ، حكاية وقعت بالأمس ! وكان ملها بالموسيقى ، يحسن الغناء — بدرجة مقبولة — بصوته الأدمى . وقصارى القول أنه أوتى مواهب أجمل مما يحتاج إليه مستشار قضائى . وكان بحكم مجاملته لنساء (أنيسى) قد أصبح «موضة» بينهن ، فكان دائما يسحبته وراءهن وكأنه « نسناس » صغيرا . . حتى لقد راح يزعم أنه كان محظوظا لدى النساء ، فكان ذلك يطربهن كثيرا . وكانت سنيده منهن — تدعى « مدام ديياتى » — تقول إن أقصى ما يشتهي هو أن يقبل امرأة في ركبته (٢) !

ولما كان مطلعا على كتب الأدب الراقى ، ومشغولنا بالحديث عنها ، فإن كلامه لم يكن ممتعا فحسب ، وإنما كان مفيدا

(١) مجموعات الأقوال المأثورة من بعض الشخصيات ، والطرائف

الصغيرة المربطة بهم .

(٢) تعنى أنه لا يستطيع أن يسل إلى غيرها أو يدها لعمر ثلثه !

أيضا . وعندما اكتسبت - فيها بعد - ميلا إلى الدروس ،
 أنميت معرفتى به ، فأندت من ذلك نفعا عظيما . وكنت أسمى
 فى بعض الأحيان من (شامبيرى) - حيث كنت إذ ذاك - لكى
 أزوره . وقد أنكى هو فى هذا الميل وشجعه ، وكان يقدم لى
 بعض الإرشادات فى مطالعاتى ، فكنت كثيرا ما أنتفع بها . ولسوء
 الحظ ، كانت تعبر هذا الجسد الواهن نفس مرهقة الحس ،
 وقد قدر له - بعد ذلك بسنوات - أن يرتكب ذنبا لا أدريه ،
 مما أحزنه ، فلم يلبث أن قضى نحبه . ويا لها من خسارة !
 لقد كان - يقينا - رجلا طيبا ، ضئيل الجسم ، يبدأ المسره
 بالضحك منه ، ثم ينتهى بأن يحبه . . . ومع أن حياته لم تكن
 مرتبطة بحياتى فى شيء ، إلا أنني أخذت منه بعض دروس
 نافعة ، فرايت - بدافع من العسرغان - أن أخصه بحيز من
 ذكرياتى !



وما أن انصرفت من لندن السيد سيمون ، حتى هربت
 إلى الشارع الذى كانت الأنسة جالى (١) تقيم فيه ، ممفيا نفسى
 بأن أرى شخصا ما ، داخلا أو خارجا ، أو فاتحا إحدى النوافذ،
 على الأقل ! . . . ولكن شيئا ما لم يلح لى ، ولا هسرة ! بل إن
 البيت ظل - طيلة مكثى هناك - مغلقا تماما ، وكأنه لم يعمر
 قط بسكان . وكان الشارع صغيرا ومقفرا ، فكان وجود إنسان

(١) امتداد العاشق فى أمباتيا أن يتكأ على قارعة الطريق ، بالقرب من دار
 الحبيبة ويهوى إلى العزف على « الجيتار » متى أن تظن إلى وجوده ، فتتم
 عليه نظرة *

كهيلا بأن يستلقت الانتظار . . وبين الحين والحين ، كان يعبره مار ، ما بين داخل أو خارج من البيوت المجاورة . وطلقت من أجل نفسي ، فقد تراءى لى أنهم كانوا يحدسون سر وجودى هناك . وأمضتني هذه الفكرة ، فقد اعتدت دائما أن أقسم شرف وطمانينة أولئك الأعزاء لى ، على مسراتي الخاصة .

وأخيرا ، مللت لعبة العاشق الاسباني (١) ، ولما لم يكن ثمة «جيتار» معى ، فقد اعتزمت الكتابة إلى الأنسة دى جرافينرييه . وكنت أفضل أن أكتب لصديقتها ، ولكنى لم أكن أجسر ، فضلا عن أنه كان من الأليق أن أبدا بالتى كنت مدينا لها بمعرفة الأخرى ، والتى كنت معها أكثر ألفة ومودة . وما أن انتهت رسالتى ، حتى حملتها إلى الأنسة «جيرو» (٢) ، وفقا لما اتفقت عليه مع الأنستين عندما افترقنا ، وكائنا هما اللتان اقترحنا هذه الطريقة للتراسل . ذلك أن الأنسة «جيرو» كانت تحترف تنجيد الأثاث ، وقد عملت حيناً في دار السيدة جالى ، ومن ثم فقد كان دخول الدار مباحا لها . والحق أن اختيار هذه الوسيلة لم يبد لى موقفا ، ولكنى خشيت ألا ترشح الفتانان سواها ، إذا أثرت أى اعتراض . كما أننى لم أجرو على القول بأنها كانت تعمل لحسابها الخاص . . وكنت أشعر بالضغنة لمجرد

(١) الأنسة جالى والأنسة دى جر افينرييه هما الفتانان اللتان تضى روسو

معهما يومنا بهيجا في الزيت . (الصفحات ٢٦٦ - ٢٦٢ من الجزء الأول)

(٢) «جيرو» هي صديقة لوصيفة مدام دى غران المدعوة «ميرسيريه» ،

وكنت «جيرو» قد أعلنت على روسو الحب ، برغم نفوره الشديد منها

إنها كانت تجرؤ على أن تظن نفسها — في نظري — منتهية إلى نفس جنس الأنستين ! على أنني ارتضيت في النهاية هذه الوسيلة لنقل رسالتي ، نظرا لعدم وجود سواها ، فأتدبت عليها برغم كل النفر !

واكتشفت « جيرو » سرى منذ الكلمة الأولى ، فما كان هذا بالأمر العسير . وإذا كانت الرسالة الموجهة إلى فتاة شابة لا تثني بحقيقة الأمر ، فإن ارتباكى واضطرابى كانا كفيلين بأن يكشفنا سرى ! وقد يخطر بالبال أن هذه المهمة لم تبعث في نفس الفتاة أى سرور ، ولكنها في الواقع تكلمت بها ، وأدتها بأمانة . وفي الصباح التالي هرعت إليها ، فوجدت الرد المفسود . وما كان أسرعنى في الخروج من دارها ، لأقراه وأقبله دون حرج ! . . . وليست بى حاجة إلى أن أفيض في هذا ، ولكن الذى يحتاج إلى إسهاب ، هو مسلك الأنسة جيرو ، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت أتوقع . كانت من الحكمة بحيث رأت أنها — بسنى عمرها السبع والثلاثين ، ويعينها التشبهتين بعينى الأرنب ، ويألفها الملوث بالسسعوط ، وبصوتها الحاد الرفيع ويشزتها السوداء — لا يمكن أن تبارى فتاتين شابتين ، بلينتين بالخصن ، وفي كل أبهة الجمال . . . ومن ثم لم تشأ أن تقدر بهما ، كما لم تشأ أن تخدعها . . . بل إنها أثرت أن تفقدنى على أن تسامدها على الظفر بى . (كما سيبدو فيما بعد) .

٧ — سنة ١٧٣٢

وكانت « ميريسيره » قد بدأت تفكر — منذ فترة — في العودة إلى (فريبور) ، إذ أنها لم تطلق أى نبأ من سيدتها ،

وما لبثت الأنسة جيرو أن حملتها على أن تقرر ذلك ، بل إنها ذهبت إلى أبعد من هذا ، فاندخلت في روعها أن من المستحسن أن يرافقها أحد إلى دار أبيها ، ورشحتني لذلك (١) ورات ميرسيريه الصغيرة - التي لم أكن بغيبضا إليها - أن الفكرة صالحة ، فإذا بهما تحدثاني منها ، في نفس اليوم ، وكأنها أمر مفروغ منه ! ولما لم أجد ما يضرني في البعد بهذه الطريقة ، فقد وافقت ، وأنا أحسب أن الرحلة لن تعدو ثمانية أيام على الأكثر . ولكن جيرو لم تحسب مثل هذا الحساب ، وتولت تدبير كل شيء . واضطرت إلى أن أكتشف حالتي المالية ، فسرعان ما دهرت لي الموارد ، إذ تكلفت «ميرسيريه» بنفقاتي . وتعويضاً عن الخسارة التي تكبدتها بذلك ، وافقت الفتاة - تحت إلحاحي - على أن ترسل مقاعها البسيط مقدماً ، بينما نقطع نحن الرحلة على الأقدام ، متبهلين .. وهذا ما حدث !

ولكم يؤسسنى أن اتحدث من غفيات عديدات كن يحبينني .. على أنني لا أجد مبرراً لأن أزهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات .. ومن ثم أرى أن بوسعي أن أقول الحق دون تمويه ، فإن الأنسة «ميرسيريه» - التي كانت أصغر سناً وأقل دهاء من جيرو - لم تبد قط نشاطاً كالذي كانت هذه تبديه لإفرائي ، وإنما كانت تقلد لهجتي وصوتي وإلتائي ، وتردد كلماتي ، وتولينني من الاهتمام ما كان ينبغي أن أوليها

(١) كانت هذه هي الحيلة التي لجأت إليها « جيرو » المكرة كي تبعد

روسو من محبوبته ، ومن المديونة كلها !

إياه .. كما كانت تحرص دائما على أن ننام في حجرة واحدة ،
 إذ كانت شديدة الخوف .. ! وهي الفة نادرا ما تقف عند هذا
 الحد ، في رحلة تجمع بين شاب في العشرين وفتاة في الخامسة
 والعشرين ! .. ولكن هذا هو عين ما جرى ، في هذه المناسبة .
 وبالرغم من أن « ميرسيريه » لم تكن نهمية ، فإن سذاجتي
 لم تقف عند حد أنتى لم أعمد — خلال الرحلة بأسرها — إلى
 النطق بآتفه مغازلة فحسب ، وإنما بلغت بي السذاجة أنتى لم
 أفكر — مجرد تفكير — في شيء من هذا القبيل على الإطلاق ! ..
 بل إنه لو خطرت لى هذه الفكرة ، لعجزت لغباثى عن أن أفيد
 منها ! فما كنت لأتصور كيف تنام فتاة وشباب في قرائش
 واحد .. وكنت أخال أن الاستعداد لمثل هذا الأمر الرهيب
 يتطلب قرونا من الزمن ! .. وإذا كانت ميرسيريه البائسة قد
 طمعت — حين تكلمت بنفقتى — في جزاء من هذا القبيل ، فقد
 خاب حدسها ، لأننا بلغنا (فريبور) بنفس الحال التى غادرنا
 بها (انيسى) تماما !

وعندما مررنا بجنيف ، لم أسع لزيارة أحد ، ولكنى أوشكت
 أن أصاب بمرض من فرط انفعالى وأنا أعبّر جسور المدينة .
 أبدا ما أقبلت على هذه المدينة ، ولا ولجت أبوابها دون أن
 أحس بقلبي يغوص وقد أثقلت الانفعالات الطاغية ! .. فبينما
 كانت صورة الحرية النبيلة تسمو بروحى ، كان التفكير فى
 المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثر فى نفسى إلى الدرجة التى
 تدمع مندها عيناى ، ويبعث فى حسرة محترمة على كونى قد
 حرمت من كل هذه النعم ! .. وكنت مخطئا ! .. ولكن ، كم

كان هذا الشعور طبيعيا ، كذلك ! — لقد كنت أخال أنني أرى كل هذه النعم في وطني ، لأنني كنت أحملها في سويداء قلبي ! واضطررنا إلى أن نمر بمدينة (نيون) . . فهل كنت اجتازها دون أن أرى أبي الشيخ ! ؟ لو أنني فعلت ، لكنت خليقا بأن أموت — بعده — كمدا . . . ومن ثم تركت مرسيري في الفندق وذهبت لأراه ، برغم كل الاعتبارات . آه ، ما كان أشد خطئي إذ أوجست من لقائه ! . . فما أن اقتربت منه ، حتى تفتح قلبه لعواطف الأبوة العارمة . . . وكم يكى عندما تعانقنا ! . . ولقد ظن — بادئ الأمر — أنني عدت إليه ، فأنبأته بقصتي وبخطتي . . وعارض في وهن ، وراح يبصرني بالأخطار التي كنت أعرض نفسي لها ، قائلا إن أقصر النزوات والحماقات هي أفضلها ! . . وفيما عدا ذلك ، لم يداخله أي ميل إلى غصبي على البقاء ، وأرى أنه كان في ذلك على حق ، ولكن من المؤكد أنه لم يبذل كل ما كان في وسعه لاستيقائي ، إما لأنه كان يرى — في تقديره — أن من واجبي ألا أعود إليه ، وإما لأنه كان في حيرة . . ولعله لم يكن يدري ما الذي يفعله بي في مثل تلك السن التي بلغتها . . . ولقد علمت فيما بعد أنه يكون لنفسه من زميلتي في الرحلة فكرة كانت جد ظالمة وجد بعيدة عن الحقيقة ، ولكنها — على أية حال — كانت طبيعية ! . . وكانت زوجة أبي امرأة طيبة ، على شيء من الدهاء والقول الممسول ، فقد تظاهرت بالرغبة في استيقائي للعشاء . . ولكني لم أمكث ، وإن وعدتها بأن أبقى معها وقتا أطول عند عودتي ، وعهدت إليها بحزمة متاعى الصغيرة ، التي كنت قد أرسلتها في مركب ، والتي كنت جاثرا

فيما أفعله بها . وفي اليوم التالي رحلت مبكرا ، وأنا جد مغتبط
بأننى رأيت والدى ، وأنى وجدت الجرأة على أن أؤذى واجبى !



ووصلنا بسلام إلى (فريبور) ، وكانت مغازلات الانسة
ميرسيريه قد خفت عندما اقتربت نهاية الرحلة . حتى إذا
وصلنا ، لم تعد تبدى لى سوى الفتور ، كما أن أباهما - الذى
لم يكن غارقا فى الرخاء - لم يولنى حفاوة بالغة ، فاضطرت
إلى أن أقضى ليلتى فى إحدى الحانات . . وزرتهما فى اليوم
التالى ، فدعوانى إلى العشاء ، وقبلت الدعوة . . ثم اغترقنا
دون ما دموع ، وعدت فى المساء إلى حائتى . وفى اليوم التالى
رحلت ، دون أن أدري وجهة اقصدها !

وكانت تلك فرصة أخرى أرادت فيها العناية أن تمنحنى
ما كنت أبتغيه لى أنفق أيامى فى هناء . . فلقد كانت ميرسيريه
متاة جد طيبة ، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجميلة ، فإنها لم
تكن - كذلك - بالدمية ، كما أنها كانت على شئ من النشاط
وكثير من الرزائة . وكانت تتعرض أحيانا لنوبات قصيرة عابرة ،
تقضيها فى بكاء ، ولكن هذه النوبات لم تكن تفضى قط إلى
مواقب عاصفة . ولقد كانت الفتاة صادقة المبل نحوى ، فكان
بوسعى أن أتزوجها دون عناء ، وأن أحترف مهنة أبيها (١) -
إذ أن ميلى للموسيقى كان كميلا بأن يجعلنى أحب هذه المهنة -
وأن أستقر فى (فريبور) ، وهى بلدة صغيرة ، قليلة الجمال ،

(١) يلهم من هذه العبارة أن أباهما كان موسيقيا .

ولكنها تضم قوما طيبين . وكنت بذلك ساحرم بلا شك من متع عظيمة ، ولكنى كنت خليقا بأن أعيش فى سلام إلى آخر لحظة فى حياتى . ولقد كنت جديرا بأن أعرف — أكثر من أى أمرىء آخر — أنه لم يكن ثمة ما يعبر التردد لحظة واحدة ازاء صفة كهذه !

وعلى أثر رحيلى من (مريبور) لم أرجع إلى (نيون) ، وإنما اتجهت إلى (لوزان) ، فقد شئت أن أتلى بمنظر البحيرة الجميلة التى تشاهد هناك فى أكثر أجزائها اتساعا . ولم تكن أغلب البواعث الخفية التى تقرر مسلكى ، بواعث جاهدة . . . فإن المناظر التى تشاهد من بعد ، نادرا ما كانت من القوة بحيث تحفزنى على العمل ، كما أن المستقبل غير المضمون كان يجعلنى انظر دائما إلى المشروعات التى يتطلب تنفيذها اجلا طويلا ، نظرتى إلى حيل خادمة ! . . وأنا بطبعى ، أنغمس فى الآمال كغيرى ، طالما كانت لا تكبدنى شيئا ، أما إذا كانت تتطلب رعاية مستمرة فإتنى لا أمضى وراءها . . . وإن أقل متعة صغيرة تعرض لى ، وتكون فى متناول يدى ، لأكثر إغراء لى من مباحج الفردوس . . . على أننى أستثنى من ذلك ، المتعة التى يعقبها ألم ، فهى لا تغرينى قط ، لأننى لا أحب سوى المسرات النقية الخالصة ، وهذه لا يحظى بها المرء إطلاقا عندما يعرف أنه إنما يهيب نفسه للندم !

وكنت بحاجة ماسة إلى بلوغ أى مكان . . . فكان أقرب الأماكن هو أفضلها ! ولما كنت قد ضللت طريقى ، فقد الفيتنى — ذات مساء — فى (مودون) ، حيث أنفقت الليل الذى كان قد تبقي

معى ، ما عدا عشرة « كروتزات » (١) ، لم تلبث أن تبددت في الغداء ، في اليوم التالى . . حتى إذا بلغت - في المساء - قرية صغيرة على مقربة من (لوزان) ، دخلت إحدى الحانات وليس في جيبى دائق أدفعه لقاء مبيتى ، بل إننى لم أكن أدري ما قد يكون من أمرى ! وكنت جد جائع ، فتجلدت وطلبت عشاء . كما لو كنت أملك أن أدفع ثمنه ! . . ثم أويت إلى مضجعى دون أن أحمل هما ، فاستغرقت في نوم هادى . وبعد أن أغطرت - في الصباح التالى - وحاسبت مضيقى ، أردت أن أترك له صديرى رهنا ، لقاء السبعة « باتزات » (٢) ، التى بلغتها نفقتى . ولكن الرجل الطيب أبى ، وقال إنه - والحمد لله - لم يجرد أحدا قط من ثيابه ، وأنه ما كان ليشرع في ذلك لقاء سبعة « باتزات » ، ومن ثم فقد بات في وسعى أن يحتفظ بصديرى ، على أن أدفع له حقه متى استطعت . وقد تأثرت لطيفته ، ولكن بدرجة أقل مما كان ينبغي ، وأقبل مما صرت أشعر كلما تذكرت الأمر بعد ذلك . وقد بادرت بإرسال المبلغ إليه غيبا بعد ، شاكرا ، مع رجل ائتمنته . . على أننى بعد خمس عشرة سنة ، مررت بلوزان ، في عودتى من إيطاليا ، فحسرت بأسف صادق لكونى نسيت اسم الحانة واسم الرجل ، وإلا لذهبت لرؤيته ، ولحظيت بسرور حقيقى وأنا أذكره بالخير الذى أسداه ، وأثبت له أنه لم يضعه في غير موضعه ! . . وكم من خدمات أكثر أهمية ، بلائيك - ولكنها بذلت بكثير من

(١) « كروتز » عملة ألمانية ونسوبة قديمة .

(٢) « الباتز » عملة ألمانية أخرى .

التفضل والمن - بدت لى أقل استحقاقا للعرفان من العمل
الإنسانى البسيط الذى يخله هذا الرجل الطيب فى غير زهو !
وفىما كنت اقترب من (لوزان) ، رحت أتأمل الضيق الذى
وجدتني فيه ، والوسائل التى أستطيع بها أن أنتزع نفسى منه
دون أن أطلع زوجة أبى على تعاستى ! .. وأخذت أقيس
نفسى - فى سفرى على الأقدام - بصديقى غنتور عندما وصل
إلى (انيسى) ، فإذا بهذه الفكرة تبث الدفء فى نفسى ، حتى أننى
اعتزمت أن أكون « غنتور » صغيرا فى (لوزان) ، دون أن يجول
بخاطرى أننى لم أوت لطفه ولا مواهبه .. وقررت أن أقوم
بتدريس الموسيقى التى لم أكن على علم بها ، وأن أزعج أننى
وقدت من باريس - التى لم أزرها قط - وبناء على هذا
المشروع البديع ، شرعت فى السؤال عن فندق صغير أستطيع
أن أجد فيه مقرا مريحا بأبخس النفقات . إذ لم تكن ثمة مدرسة
للشمامسة أستطيع أن أمرض عليها معونتى ، كما أننى لم أكن
من الغباء بحيث أندس وسط أهل الفن ! .. ودلتنى البعض على
شخص يدعى « بيرونيه » كان يؤجر غرفة فى داره . وتجلى لى
أن هذا الـ « بيرونيه » كان خير رجل فى العالم ، وقد أحسن
استقبالى . وإذا رويت له أكاذيبى الصغيرة - كما دبرتها -
ومعدنى بأن يفكرنى لدى الناس ، وأن يسعى ليأيننى ببعض
التلاميذ . وقال لى إنه لن يسألنى أجرا إلا بعد أن اكتسب
نقودا . وكان أجر المنزل خمسة دنائير بيضاء (١) ، وهو أجر

(١) عملة تدمية من الفضة . (ECL)

زهيد بالنسبة للمكان ، ولكنه كان باهظا بالنسبة لى . ولقد نصحتنى « بيروتيه » بأن أكون فى البداية « نصف نزيل » ، أى أن أستمتع بالإقامة ، وبغداء يتألف من حساء دسم — لا أكثر — وبغشاء طيب فى المساء . . فوافقت . كان هذا الـ « بيروتيه » المسكين يقدم لى كل هذه الميزات عن طيب خاطر ، وعن خير نية فى الدنيا . ولم يكن يدخر وسعا كى يساعدنى !

ترى لماذا قدر لى — وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين فى صباى — ألا أجسد منهم فى كبرى إلا القليلين ؟ . . أياكون نوعهم قد انقرض ؟ . . لا ، ولكن الطبقة التى اضطر إلى البحث عنهم فيها اليوم ، لم تعد عين الطبقة التى كنت أمثر عليهم فيها من قبل ! ذلك لأن نداء الأحاسيس الفطرية يزداد ترددا وانبعثا لدى الناس الذين لا يسمع التمشق بالعواطف العظمى بينهم إلا قليلا ! . . أما بين أبناء الطبقات الراقية ، فإن المشاعر الفطرية تختنق تماما ، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور !



وكتبت لأبى من (لوزان) ، فأرسل حزمة متسامى ، وخصتنى بنصائح رائعة ، كان خليقا بى أن أفيد منها . . وكنت قد لاحظت أننى أصبحت أتعرض لفترات من الشرود لم أدر مآلها ، بل كنت لا أشعر خلالها بنفسى — وهنا أيضا بادرة من البوادر التى تستحق الملاحظة ! — ولكى تدرك إلى أى مدى كنت أفقد رأيى ، وإلى أى مدى « ففترت » نفسى — أى تشبهت بفنتورا ، إن صح هذا القول — يكفى أن ترى كم من الأعمال الجنونية كنت آتيها معا ، وفى آن واحد ! : منها قد غدوت

مدرسا للفناء دون أن أعرف كيف أفك رموز أي لحن! — إذ إن الشهور الستة التي قضيتها مع « لوميتير » لم تكن بالكافية، حتى إذا كنت قد أعدت منها! — ثم أئننى كنت قد تعلمت على يسدى أستاذ، وكان هذا كافيا لأن يجعلنى لا أكثرث بالدراسة (١)!

وإذ صرت بباريسيا من (جنيف)، وكاثوليكيًا في بلد بروتستانتى، فقد رايت أن على أن أغير اسمى كما غيرت عقيدتى ووطنى، إذ كنت أحاول دائما أن أصبح أقرب ما أكون إلى المثل العظيم الذى اتخذته. وقد كان يسمى نفسه « منتور دى فيلنيف »، لذلك قلبت اسم « روسو » إلى « ووسور »، أو « فوسور »، وأسببت نفسى « فوسور دى فيلنيف »! ولقد كان « منتور » على معرفة بالطلحين، وإن لم يقل شيئا عن ذلك... أما أنا، فبدون معرفة بالطلحين، رحت أفنخر ببراعتى أمام العالمين... وبدون أن أستطيع تمييز أبسط أغنية دارجة، جعلت من نفسى ملحنًا!... ولم يكن هذا كل ما فى الأمر، فقد قدمت إلى السيد دى تريوران — وكان أستاذًا فى القانون، أحب الموسيقى واعتاد أن يقيم حفلات موسيقية فى داره — فشئت أن أعرض عليه « عينة » من براعتى، وعكفت على وضع لحن لإحدى حفلاته فى جراحة بالفة، وكأننى كنت أعرف كيف أؤدى المهمة!... وواظب على العمل خمسة عشر يوما فى إعداد هذا اللحن الجميل، وفى نسخ صورته، وفى تقسيم أجزائه، وفى توزيعها باطمئنان بالغ، وكان اللحن تحفة متناسقة. وأخيرا — الأبر

(١) لعله يعتمد أن الفن لم يكن موهبة أصيلة فى نفسه.

الذى لا يكاد يصدق ، ولكنه الحقيقة الخالصة — أردت أن أتوج هذا الإنتاج الراقى بشكل يليق به ، فأضفت في النهاية أغنية بدیعة كانت تتردد في الطرقات ، ولعل الناس أجمعين لا يزالون بذكرونها ، وهذا نصها :

« يا للفجور .. ويا للجحود .. ماذا ؟ ! »

هل غدرت حبيبتيك كلاريس بأهلك ؟ ! .. الخ » .

وكان فنتور قد لقننى هذا اللحن — الذى يعزف على أوتار الطبقة الثانية — مع كلمات أخرى بذیئة ، تذكرته بغضلها . ومن ثم أضفت في نهاية لحنى هذا المقطع وانغمسه الخفیضة ، وقدمت الجميع على أنها من ابتداعى ، في اعتداد ، وكأئننى كنت مخاطب قوما من سكان القبر !

واجتمعت الفرقة لعزف لحنى ، فشرحت لكل فرد نوع الحركة ، وطريقة الأداء ، وعلامات تكرار الأجزاء ، وانهمكت في ذلك كل الانهماك .. فقصي العازفون خمسا أو ست دقائق — بدت لى كخمسة أو ستة قرون ! — في تنسيق أصواتهم وآلاتهم ، حتى أصبحوا أخيرا على تمام الأهبة ، فوقعت الضربات الخمس أو الست إشارة الانتباه ، على منضدة القيادة ، بأنبوبة بدیعة من الورق ، فساد الصمت ، وبدأت أوقع الوقت في عظمة وجد .. وبدأ العزف ! — لا ، فمنذ ظهور « الأوبرا » الفرنسية على قيد الحياة ، لم تسمع مثل تلك « الضوضاء » ! — ومهما يكن قد خالج القوم بصدد براعتى المزعومة ، فإن الأثر كان أسوأ من أى شيء توقعوه ! .. وكنتم الموسيقيون ضحكهم ، بينما فتح المستمعون عيونهم عن آخرها ، وكانوا على استعداد لأن

يسدوا آذانهم ، ولكنهم لم يعسرفوا لذلك وسيلة . وعمد العازمون القساة - رغبة في السخرية - إلى المزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة أذن الأصم (١) !

وأوتيت من الجلد ما يكفى لأن أستمر في دورى دون توقف ، وإن راح عرقى يتصبب غزيرا في الواقع . . فقد منعنى الحياء ، فلم أجرو على الهرب ، بينما كان الجميع جالسين . . وعلى سبيل العزاء ، سمعت المساعدين المحيطين بى يتهايمسون بعضهم في آذان بعض ، أو - بالأحرى - في أذنى . . ففسال أحدهم : « ليس في هذا ما يطلق ! » . . وقال آخر : « يا لها من موسيقى جنونية ! » . . وقال غيره : « يا للحن الشيطاني » . . مسكين أنت يا جان جاك ، فما طمعت - في تلك اللحظة - في أن تنتزع أنعامك هذه يوما ، وفي حضرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها ، تهتمات الدهشة ، وتصفيق الإعجاب . . وأن تتهايمس النسوة الغائبات ، في المقصورات المحيطة بك : « يا لها من نغمات ساحرة ! . . أية موسيقى رائعة ! . . كل هذه الأنعام تنفذ إلى القلب ! » .

على أن الذي رد القوم إلى رضاهم ، هو ذاك المقطع الذي أضفته في النهاية . . فما أن عزفت بضع نغمات منه ، حتى سمعت القهقهات تتصاعد من كل جانب . . وأخذ كل امرئ

(١) في الأصل : تخرق اثن أحد الخمسة عشر عشرينا . . كناية عن نزول المستشفى الذي يحمل هذا الاسم « الخمسة عشر عشرينا » في باريس ، والذي انتهى في الأصل لجاوى « ٣٠ أمي »

يهنئني بذوقى الجميل ، ويؤكد لى أن هذا المقطع كفىل بان
يذيع اسمى ، وأئننى جدير بأن تردد انفسامى فى كل مكان .
ولست بحساجة إلى أن أصف فمى ، ولا إلى أن أعترف بأننى
كنت أستحقته !

وفى اليوم التالى ، جاء أحد العازفين - وكان يدعى « ليتولد » -
ليرانى ، وكان من الامسائة بحيث أنه لم يهنئنى بنجسامى . .
فإذا شعورى العميق بحماقتى ، وبالخجل والندم واليأس من
جراة الحال التى انحدرت إليها ، واستحالة إبقاء قلبى مغلقة
على هذه الآلام الجسدية . . إذا شعورى هذا يحملنى على أن
افتح قلبى له ، وأن أطلق العنان لدمومى . . وبدلاً من أن أكتفى
بان أعترف له بجهلى ، أفضيت إليه بكل شىء ، وسألته أن
يكنم سرى ، فوعدنى بذلك ، وبر بوعده على النحو الذى يمكن
تصوره . . فما أن حل مساء اليوم ذاته ، حتى كانت (لوزان)
بأسرها قد عرفت حقيقتى ! . . وكان أعجب ما فى الأمر ، أن
أحدا لم يطلعنى على أنه قد عرفها ، ولا « بيروتيه » الطبيب ،
الذى لم يحجم ، برغم ذلك كله ، عن إيوائى وإطعامى !

وقدر لى أن أعيش ، ولكن فى حزن غامر . وكان من جراة
موقف كهذا ، أن لوزان لم تعد بالنسبة لى مقاماً مستحباً ،
فلم يقبل التلاميذ زرافات . بل اننى لم أظفر بظميذة واحدة ،
ولا بأحد من أبناء المدينة . . كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين
أو ثلاثة من الألمان الذين كانوا من الغباء بقدر ما كنت من الجهل ،
وكانوا يضايقوننى إلى درجة الموت ، كما أنهم لم يصبحوا -
على يدى - ولو هازفين غير منتظمين ! . . ولم أدع إلا إلى

بيت واحد ، كانت فيه فتاة صغيرة — كانها الحية — اخذت
تتلهى باطلاعى على كثير من القطع الموسيقية التى كنت عاجزا
عن قراءة « نوتاتها » ، ثم كانت تنطلق فى الغناء — بعد ذلك —
أمام مدرس الموسيقى لقريه كيف يجب أن يؤدى اللحن ! ..
وكنت لا أكاد أستطيع أن أقرأ أى لحن من أول نظرة ، حتى
أننى — فى الحفلة الباهرة التى تحدثت عنها — كنت عاجزا عن
أن اتتبع العزف لحظة لأتبين ما إذا كان العازفون يحسنون
توقيع ما كان تحت بصرى ، وما كنت قد الفتة بنفسى ! ، أم لا !
وفى غمرة هذا الهوان ، وجدت عزاء فى الانباء التى كنت
أتلقها بين وقت وآخر ، من الصديقتين الغائبتين .. فلقصد
اعتدت دائما أن أجد طاقة مرفهة عظيمة فى الجنس الأخر ،
فليس ثمة ما يواسى أحزائى — فى المصائب — أكثر من أننى
لطيفة تعنى بى ! .. على أن هذا التراسل لم يلبث أن انقطع
بعد ذلك بقليل ، ولم يقدر له أن يستأنف قط .. غير أن ذلك
كان فى الواقع ذنبى ، إذ أننى عندما غيرت محل إقامتى ، أغفلت
أن أبعث إليهما بعنوانى ، ثم نسيتهما تماما ، إذ كنت مضطرا —
بحكم الضرورة — إلى أن أفكر فى نفسى باستمرار !



ولقد انقضى وقت طويل دون أن أتحدث عن « ماما » (١)
المسكينة . على أن المرء يكون جد مخطيء إذا ظن أننى نسيتها

(١) رأينا فى الجزء الأول كيف أطلق روسو على راعيته الكريمة « مدام

دى فلران » لقب « ماما » .

هى الاخرى ، فإننى لم أكف من التفكير فيها ، وعن الشوق إلى العثور عليها ثانية ، لا لحاجتى المادية محسب ، وإنما لما هو أكثر من ذلك . . لحاجتى القلبية ! . . كان تعلقى بها — برغم ما كان عليه من حرارة وحنان — لا يحول بينى وبين أن أحب غيرها ، ولكن على غير شاكلة حبى لها ! فإن النساء جميعا كن — على السواء — مديونات بعاطفتى لمفاتيهن . . اما هى ، فكانت لها مكانة فريدة ، دونها مكانات الاخريات ، فلم تكن مفاتيهن تعدو عليها . . بل لقد كان من المحتمل أن تهزم « ماما » وأن تصبح دمية ، وأنا مقيم على حبها ، دون أن يقل شغفى بها ! . . كان قلبى قد نقل إلى شخصها كل التمجيد الذى استشعره من قبل نحو جمالها ، فما كانت عواطفى نحوها لتتغير قط — مهما يكن التغير الذى يتعرض مظهرها له — طالما ظلت فى جوهرها هى بذاتها ! . . وكنت أدرك تمامها اتنى مدين لها بالفضل ، ولكنى لم أفكر فى ذلك قط ، فى الواقع . . بل كان ما فعلته وما لم تفعله من أجلى سواء عندى ، إذ أننى لم أحببها عن شعور بالواجب أو بالمصلحة الذاتية ، ولا عن خضوع وامتثال ، وإنما أحببتها لأننى خلقت كى أحبها ! . . وكنت عندما أقع فى هوى اية امرأة اخرى ، أشغل بها — كما ينبغى أن أعترف — فيقل تفكيرى فى « ماما » . . ولكنى كنت إذا ما عدت للتفكير فيها ، أفكر بنفس المتعة . وما شغلت بها قط — سواء كنت على حب أو لم أكن — دون أن أشعر بأننى لن أجد سعادة حقيقية قط فى الحياة طالما كنت بعيدا عنها !

ومع اننى لم اسمع عنها منذ امد طويل ، إلا اننى لم اعتقد قط بأننى فقدتها تماما ، ولا خطر لى أن من الممكن أن تكون قد نسيتنى . وكنت أقول لنفسى : « إنها لن تلبث أن تعلم — طال الوقت أو قصر — بأننى شريد وحيد ، فتبعث إلى بما يطمئننى إلى أنها على قيد الحياة . وسوف القاهما ثانية ، بكل تأكيد . وفى انتظار ذلك ، كان من بواعث البهجة أن أعيش فى مسقط رأسها ، وأن اجتاز الطرقات التى سارت فيها من قبل ، وأمر بالبيوت التى كانت تقيم فيها . . كل هذا بالحدس والتخمين ، فقد كان من نزواتى الحمقاء اننى كنت عاجزا عن أن أحصل نفسى على الاستعلام عنها ، بل عن ذكر اسمها ، ما لم تكن ثمة ضرورة ماسة . . كان يبدو لى أننى بذكر اسمها اشى بكل ما كانت تلهمنى إياه من مشاعر ، وأن فمى يفضح سر قلبى ، واننى أخرجها بطريقة ما ! كذلك خيل لى أن تخرجى من فكر اسمها كان يمتزج بشعور ما كان يوحى إلى بأن أحدا قد يذكرها أمامى بسوء ! فقد كان الناس يكثرون من الحديث عن الخطوة التى اتخذتها ، ويمسكون سلوكها ببعض الشئ . لذلك أثرت إلا اسمع أى شئ يقال عنها — على الاطلاق — خوفا من أن يقال لى ما لا أتوق إلى سماعه !

ولما لم يكن تلاميذى يشغلوننى كثيرا ، وكان مسقط رأسها لا يبعد عن (لوزان) بأكثر من أربعة فراسخ ، فقد قضيت ثلاثة أيام أو أربعة أتمشى هنسالك ، دون أن يفارقنى أصعب شعور مرفته . كان المنظر (بحيرة جنيف) وضافاتها البديعة سحر يأسر هينى دائما ، ولا قبل لى بوصفه . . سحر لم يكن

ينحصر فى جمال المنظر فحسب ، بل كان يشتمل أيضا على شيء أكثر جاذبية ، واقدر على التأثير على ، والسيطرة على مشاعرى . وفى جميع المرات التى كنت اقترب فيها من مقاطعة (غود) ، كان يخامرنى شعور ينطوى على ذكرى « مدام دى فاران » - التى ولدت هناك - وأبى ، الذى عاش هناك ، والآنسة دى « فيلسون » التى استمتعت بأولى ثمار حب صباى ، وكثير من الرحلات البهيجة التى قمت بها فى طفولتى . . . وسبب آخر - فيما يبدو لى - كان أكثر إثارة ، وأشد غموضا ، وأقوى سلطانا من كل هذه مجتمعة ! . . . كانت الرغبة المتأججة فى هذه الحياة الهائلة الوادعة - التى كانت تفرمنى برغم أننى ولدت لها - تتجه دائما إلى مقاطعة (غود) ، على مقربة من البحيرة ، ووسط الريف الفتان . . . كنت أصعبو إلى أن يكون لى بستان على شاطئ هذه البحيرة دون سواها ، وإلى أن يكون لى صديق أمين ، وامرأة لطيفة ، وبقرة ، وزورق صغير . . . ولن أنعم بسعادة كاملة على الأرض ، إلا إذا تحقق لى كل هذا ! وانى لأضحك من السذاجة التى كانت تحسدو بى إلى زيارة هذه البلاد مرارا ، لجرد البحث عن هذه السعادة الخيالية ! وكنت أدهش دائما إذ كنت أجد سكانها - لا سيما النساء منهم - على النقيض مما كنت أئشده . . . لكم كان يهولنى هذا التناقض ! . . . أبدا لم يلح لى أن كلا من المقاطعة وأهلها قد خلق من أجل الآخر !



وفي خلال الرحلة إلى (فيفاساي) (١) ، أطلقت نفسي — وأنا أتمشى على شاطئ البحيرة الجميلة — للشجون العذبة ، فإذا بقلبي يتدفع في شوق إلى آلاف من المفاتن البريئة ، وترعت نفسي بالانفعالات ، فرحت أنهد وأبكي كالطفل ! . . كم من مرة توقفت لأبكي ما شاء لي البكاء ! . . وكنت أجلس على حجر كبير ، اتسلى بتأمل دموعي وهي تتساقط في الماء !

وفي (فيفاساي) ، أقمت في (لاكلية) . وفي خلال اليومين اللذين أقمتهما هناك دون أن أرى أحدا ، تملكني نحو هذه المدينة حب ظل يلاحقني في كل رحلاتي ، وحملني — في النهاية — على أن أقيم فيها معبدا لأبطال خيالي القصصي . واني لأقول — من طيب خاطر — لأولئك الذين أوتوا ذوقا وحسا مرهفين : « اذهبوا إلى فيفاساي . . وجوسوا خلال ريفها ، وتأملوا المواقع ، وتمشوا على ضفاف البحيرة ، وقولوا ما إذا كانت الطبيعة لم تخلق هذا البلد الجميل لجوليا وكلمر وسان برو (٢) . . ولكن ، لا تتوقعوا أن تجدوهم هناك ! » . . على أنى أعود الآن إلى قصتي :

ولسا كنت كاثوليكية ، وقد اعترف بي كذلك ، فقد رحلت أمارس جهارا ، وبدون إحجام ، العقيدة التي اعتنقتها . . وكنت — في أيام الأحد ذات الجو المعتدل — أحضر الصلاة في (أسين) ، على مبعدة فرسخين من (لوزان) ، فكانت أقطع

(١) مستط. واس مدام دي « فافان لا » .

(٢) هؤلاء الثلاثة من أبطال قصة روسو الطويلة « هيلوبن الجديدة » .

المسافة مائة فى صحبة غيرى من الكاثوليكين ، اذكر منهم بالذات شخصا كان يحترف التطريز الباريسى ، وقد غاب عنى اسمه . ولم يكن الرجل باريسيا على شساكلتى ، وإنما كان باريسيا صميها ، من باريس . وكان تقييا مؤمنا ، ذا فطرة طيبة كابناء (شامبائى) ، وقد بلغ من حبه لوطنه انه لم يسمح لنفسه البتة بالارتياح فى أفنى باريسى مثله ، خوفا من أن يضيع على نفسه فرصة الحديث عن باريس . وكان لدى السيد « دى كروزا » - مساعد الحاكم - بستائى من باريس كذلك ، ولكنه كان أقل طيبة ، وكان يرى أن من المساس بكرامة بلده أن يجرق أى إنسان على أن ينتمى إليها دون أن يكون له حق فى هذا الشرف ! . . لذلك راح يعطرنى بالأسئلة ، وهو يبتسم فى خبث ، بلهجة الواثق من أنه لن يلبث أن يكتشف غلطة ! ولقد سألنى مرة عن أبرز معالم (مارثسيه نيف) ، فاجبته اعتباطا وتخططا ، كما يستطيع المرء أن يحدث . وجدير بى اليوم - وقد أقيمت فى باريس عشرين عاما - أن أكون على دراية بها ، ومع ذلك ، فلو أن احدا وجه الى سؤال كهذا السؤال ، لما كان ارتباكى فى الإجابة أقل منه يومئذ ، ولاستنتج أى امرئ - من هذا الارتباك - أنني لم أقطن باريس قط . . إلى هذا الحد يكون المرء معرضا للاعتماد على ظواهر خداعة ، ولو صادف الحقيقة !

وليس بوسعى أن أذكر تماما مدة إقامتى يومئذ فى (لوزان) ، بلأننى لم أحمل من هذه المدينة ذكريات حية . كل ما أدريه هو أنني حين وجدت نفسى عاجزا عن كسب عيشى فيها ،

نزلت منها إلى (نيوشاتيل) حيث قضيت الشتاء . ولقد كنت في هذه المدينة أكثر توفيقا ، إذ كان لدى تلاميذ ، كما أننى كسبت منها ما مكننى من الوفاء بدينى لصديقى الطبيب « بيروتيه » ، الذى كان من النبل بحيث أرسل الى — فى الماضى — حزمة مناعى الصغيرة ، برغم أننى كنت مدينا له بمبلغ كبير !

ولقد تعلمت الموسيقى — دون قصد منى — خلال تدريسى إياها . وكانت حياتى على قدر لا بأس به من الدعة . كانت حياة تكفى لأن يقنع بها أى رجل هائل ، ولكن قلبى القلق كان يصبو إلى شيء آخر . . . وكنت فى أيام الأحد والأيام الأخرى التى اخلو فيها من العمل ، ارتع فى الريف والغابات المجاورة ، دون أن أكف عن التجوال ، والتأمل ، والتفهد . وكنت إذا ما خرجت من المدينة ، لا أعود إليها قبل المساء . وفى ذات يوم ، كنت فى (بودرى) فوجدت فندقا لأتناول الغداء ، وإذا بى أرى رجلا طويل اللحية ، ذا حلة بنفسجية على النمط اليونانى ، وقلنسوة من الفرو ، وقد أوتى مظهرا ينم عن نبيل . وكان يجد عناء — فى أكثر الأحيان — فى أن يجعل القوم يفهمون ما كان يبنى ، إذ كان لا يكاد ينطق بغير لهجة ركيكة لا سبيل إلى تمييزها تقريبا ، ولكنها كانت شديدة الشبه باللغة الإيطالية ، ولا لغة غيرها . وفهمت كل ما كان يقول تقريبا ، وكنت الوحيد الذى فهم . ولم يجد الرجل بوسعَه أن يوضح ما يبنى إلا بتبادل الإشارات مع صاحب الفندق ومع أبناء المنطقة ، فوجهت إليه بضع كلمات بالإيطالية ، فهمها تماما ، فنهض وعانقنى فى

ابتهاج . وسرمان ما تعارفنا ، ومنذ تلك اللحظة عهلت مترجما له . وكان غداؤه شهيا ، في حين أن غداي كان أقسل من المتوسط ، فدعاني إلى أن أشاركه طعامه ، فلم أبد تمنعا يذكر . وبينما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تكالفنا ، فلم يثنه الغداء حتى أصبحنا لا نطبق افتراقا . . . وروى لي أنه كان قسسا يونانيا ، و « أرشيمنديريت » لبیت المقدس ، وقد أوفد لجمع اكتبابات من أوربا لتجديد كنيسة المهد المقدس . واطلعني على شهادات بديعة من القيصرة والإمبراطور ، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين . وكان جد راض عما جمع حتى ذلك الحين ، ولكنه كان قد صادف في المانيا صعوبات لا تخطر بالبال ، إذ أنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الالمانية أو اللاتينية أو الفرنسية ، فكان مضطرا إلى الاختصار على لغته اليونانية ، وعلى اللغة التركية ، واللغة الفرنجية ، مما لم يسعفه كثيرا في البلدان التي لم يكن ملما بالسنتها . لذلك عرض على أن أصبح له سكرتيرا ومترجما . وإلى جانب أن حلتى البنفسجية المتواضعة — التي كنت قد ابتعتها حديثا — لم تكن تنسجم مع مركزي الجديد ، فرأيتي لم أوت من أناقة المظهر سوى قسط بسيط ، مما جعله يعتقد أن الخلربى أمر غير عسير . ولم يكن في ذلك مخطئا ، فسرعان ما تم اتفاقنا ، إذ أنني لم أطلب شيئا ، في حين أنه وعد بالكثير . . . وبدون احتياط ، ولا ضمان ، ولا معرفة ، أسلمته قيادى . . . وهكذا رحلت من الغد في طريقى إلى بيت المقدس !

وبدانا رحلتنا بمقاطعة (غريبور) ، فلم يخرج منها بطائل ،



وبينما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تألفنا ، فلم يئنه القساء حتى
أصبحنا لا نطيق افتراقا ! ..

إذ أن كرامته الكنيسية لم تكن لتسمح له بأن يقوم بدور المتسول ، ولا بجمع الاكتسابات من خاصة القوم . على أننا مرضنا مهمته على مجلس الشيوخ ، ثمّحه مبلغا صغيرا . ومن هناك يمينا شطر (بيرن) ، وهبطنا في فندق « اوفوكون » ، وكان في ذلك العهد نزلا طيبا ، يؤمه وسط طيب . وكانت المائدة حافلة ، ومحفوفة بالعناية . وكان قد انقضى وقت طويل اضطررت فيه إلى النزول بالفنادق الرخيصة ، ومن ثم فقد كان لزاما على أن أهين نفسي لتعويض ما غفنى ، وكانت الفرصة سانحة ، فاستغللتها . ولقد كان السيد « الارشمنديت » نفسه رجلا طيب المعاشرة ، مشغولا بالمائدة ، مرحا ، يجيد الحديث مع من كانوا يفهمونه . ولم تكن تنقصه المعرفة ، وكان يجيد عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة . وحدث ذات يوم أنه أصاب أصبعه بجرح عميق ، بينما كنا تكسر بندقا عقب الغداء ، فلما انساب الدم دافقا ، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكا : « ألا أبدوا إعجابكم يا سادة .. إنه دم بيلاسجى ! » (١) .

ولم تكن خدماتي له قليلة النفع في (بيرن) ، فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى ، وإنما كنت أكثر جرأة وأبلغ حديثا مما لو كنت أعمل لنفسى ! .. على أن الأمور لم تجر

(١) نسبة إلى «بيلاسجوى» ، وهو عنصر مريق كان ينتشر قديما على سواحل

وفي جزر شرق البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه ، ويرتبط بالعنصر الإغريقى .

بالبساطة التي جرت بها في (مريبور) ، بل كان لا بد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة، كما ان فحص شهادات « الارشيمندريت » لم يكن بالمسألة التي تتم في يوم واحد . واخيرا ، عندما تمت الإجراءات اللازمة ، كان علينا ان نعرض الأمر على مجلس الشيوخ . فذهبت مع « الارشيمندريت » بوصفى مترجما له ، فطلب إلى أن أتكلم ، وكان هذا آخر ما توقعته ، فما خطر ببالي أن ثمة ضرورة - بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادى - إلى مخاطبة المجلس مجتمعا ، وكأننا لم يدر من قبل أي حديث ! . . فتصوروا ارتباكى ! . . تصوروا رجلا خجولا مثلى ، بطالسب بان يتكلم لا أمام ملا من الناس فحسب ، وإنما أمام مجلس شيوخ (بيرن) بالذات . . وان يتكلم ارتجالا ، وليست أمامه مذكرة واحدة معدة . . كان هذا ما أوشك أن يقتلنى ! . . ومع ذلك فرأيتنى لم أجبن ، وإنما عرضت في وضوح وإيجاز مهمة الارشيمندريت ، وأطريت تقوى الأمرام الذين ساءموا في الاكتساب الذي جاء لجمعه ، ولكي أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام ، قلت إنه من غير المتوقع إزاء كرمهم المألوف أن يكونوا أقل من أولئك . . ثم حاولت أن أثبت لهم أن مثل هذا العمل الخيري يهم المسيحيين جميعا ، دون ما تمييز بين مذاهبهم . . وانتهيت بأن وعدت كل من يساهم فيه ببركات من السماء !

ولن أقول إن خطابي كان مؤثرا ، بيد أنه صادق - بالتأكيد - هوى لدى المستمعين . وعند مفسادة الاجتماع ، تلقى « الارشيمندريت » تبرعا سخيا مشرفا، فضلا عن إطراءات لذكاء

سكرتيره ، نعمت بمهمة ترجمتها إليه ، وان لم أجسر على أن أنقلها بنصها ! وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي تكلمت فيها على الملأ وأمام صاحب سلطان ، ولعلها أيضا المرة الأولى التي تكلمت فيها بلباقة وإجادة . فأى تحول في تصرفات نفس الرجل ! .. لقد ذهبت أخيرا - منذ ثلاث سنوات - إلى (أيفردون) لأزور صديقي القديم السيد « روجان » ، فاستقبلت ونгда جاء يشكرني إذ أهديت مكتبة البلدة بعض الكتب . . . والسويسريون خطباء بارعون ، ومن ثم انطلق هؤلاء السلدة في الخطابة لي ، ووجدتني مضطرا للرد ، ولكني ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت في ذلك ، واضطريت أنكارى إلى درجة جعلتني أوجز وأجعل نفسي موضع السخرية ! .. وعلى الرغم من أننى خجول بطبيعتى ، إلا أننى كنت جسورا في بعض الأحيان - في شبابى - ولكنى لم أكن كذلك قط في كبرى . . فكلما ازدت تعمرفا على المجتمع ، قلت قدرتى على أن أكيف نفسى وفقا لآسالييه في الحديث !



وإذ غادرنا (بيرن) ، ذهبنا إلى (سولير) ، إذ ارتأى الارشيمندريت أن يجتاز ألمانيا ثانية ، عائدا عن طريق المجر أو بولندا ، وهى رحلة بالغة الطول . ولكنه لم يخش طولها ، إذ كان كيمسه خليقا بأن يمتلئ خلال الطريق بدلا من أن يفرغ . . . أما أنا ، فكان سواء لدى أرحلت على جواد أو على قدمى ، فما كنت لأبتغى أفضل من الترحال بهذا الشكل ، طيلة العمر . . ولكن كان مكتوبا لى ألا أمضى في ترحالى بعيدا !

كان أول ما فعلناه عند وصولنا إلى (سولير) هو الذهاب بتحية السيد سفير فرنسا . وكان هذا السفير - لسوء حظ أسقفى - هو « المركيز دى بوناك » الذى كان سفيراً لدى الباب العالى ، والذى قدر له أن يكون على معرفة وأخيرة بكل ما يتعلق بكنيسة المهد المقدس . وقضى الارشيسيندرى ربع ساعة فى المقابلة التى لم يسمح لى بحضورها ، لأن السيد السفير كان يفهم لسان الفرنجة ويعادلنى - على الأقل - فى اتقان الحديث بالإيطالية . وعندما خرج صاحبى اليونانى ، هممت بأن أتبعه ، ولكنى استوقفت ، إذ حان دورى لمقابلة السفير ، فقد تقدمت على أنفى باريسى ، ومن ثم تحت ولاية صاحب السعادة ! وسألنى السفير عن أكون ، وناشدنى أن أقول الحقيقة ، فوعدت بذلك ، ورجوت بأن يأذن لى بأن أخلو إليه ، فأذن لى ، وصحبنى إلى مكتبه ، وأغلق الباب . . . وإذا ذاك ارتيمت على قدميه ، وبررت بوعدى . . . وما كنت خليقاً بأن أضن بالكلام ، ولو لم أمد بشيء ، إذ كانت الرغبة المستمرة فى أن أفضى بما فى صدرى تدفع قلبى إلى شفتى فى أية لحظة . . . وإذا كنت قد كشفت حقيقتى دون تحفظ للموسيقى « ليتولد » فما كان من المحتمل أن ألجأ إلى التكتم أمام المركيز دى «بوناك»!

وبدا عليه الاقتناع بقصتى القصيرة ، وبالصراحة التى فضفت بها عن صدرى ، فأمسك بيدي وقادنى إلى السيدة زوجة السفير ، فقدمنى إليها ، وأوجز لها قصتى ، فطلقتنى السيدة دى بوناك فى رفق ، وقالت إننى يجب ألا أترك مع ذلك الراهب اليونانى . ومن ثم تقرر أن أبقى فى الدار حتى يربا ما يمكن

أن يفعل من أجلى . ووددت أن أذهب فاودع ارشيمندريتي المسكين الذي كنت أشعر بميل نحوه ، فلم يؤذن لي ، وإنما أوفد إليه من أتباعه بأنني قد احتجرت . . . وأن هو إلا ربع ساعة ، حتى كانت حزمة متاعى الصغيرة قد وصلت . وعهد بي إلى السيد دي لامارتنيير — مسكرتير السفارة — فقال وهو يريني الغرفة التي أهدت لي : « لقد شغل هذه الحجرة — في عهد كونت دي لوك — رجل مشهور كان له نفس اسمك (١) ، وعليك وحدك أن تملأ مركزه من جميع الاعتبارات ، حتى يقال : روسو الأول ، وروسو الثاني ! » . . . وما كان لهذا التشابه — الذي لم أعلق عليه أملا إذ ذاك — أن يستهوى مطامعي ، لو قدر لي أن أطلع على المستقبل فأرى الثمن الذي كان مقدرا علي أن أدفعه من أجله يوما !

ولقد أثار قول السيد « دي لامارتنيير » فضولي ، فقرأت مؤلفات ذلك الذي شغلت غرفته . وإزاء المجاملة التي وجهت لي ، واعتقادا مني بأنني أوتيت موهبة الشعر ، نظمت أغنية في مدح السيدة دي بوناك ، كمحاولة أولى ، على أن هذه النزوة لم يطل أمدها . . . ولقد اعتدت أن أنظم الشعر جزافا — بين

(١) كان الشخص المقصود هو جان بابتيست روسو (١٦٧١ — ١٧٤١) . وكان شاعرا غاليا فرنسيا . . . وهناك « روسو » ثالث ، هو « بيير روسو » (١٧٢٥ — ١٧٨٥) وكان كاتبا مسرحيا . وقد قيل بهذا الصدد : « ثلاثة مؤلفين يدمون باسم روسو » ، ذاع صيتهم من باريس إلى روما : روسو الباريسي كان عظيما ، وروسو الإنجليزي كان أحمق ، وروسو التولوزي كان . . . هباء ! » .

وقت وآخر — فهو مران لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة في تكوين العبارات ، ولتحسين الأسلوب النثري ، ولكني لم أجد في الشعر الفرنسي قط جاذبية كافية لأن تجعلني أنفرغ له !

ورغب السيد دي لامارتنيير في أن يرى أسلوبى ، فسألنى أن اكتب عين القصة التى رويتها للسيد السفير ، فكتبت له رسالة طويلة — سمعت أنها الآن فى حوزة السيد دي مارتان ، الذى ظل زمنا طويلا ملحقا بالسفارة فى عهد المركيز دي بوناك ، والذى خلف السيد دي لامارتنيير فى عهد تولى السيد دي كورتى السفارة ! — ولقد رجوت السيد دي مالميشيرب أن يسعى للحصول لى على نسخة من هذه الرسالة . . وإذا قدر لى أن أظفر بها بوساطته ، أو بوساطة سواه ، فسوف توجد فى المجموعة التى ستحقق باعترافاتى .

وأخفت الخبرة التى بدأت أحظى بها ، تخفف من جموح مشروعاتى الخيالية شيئا شبيها . فلم اقتصر — مثلا — على عدم الوقوع فى هوى السيدة دي بوناك فحسب ، بل إننى رايت لتوى اننى لن أجد مجالا كبيرا للرقى فى دار زوجها ، إذ كان السيد « دي لامارتنيير » راسخا فى منصبه ، وكان السيد دي ماريان متريضا ليخلفه ، مما كان لا يدع لى مجالا للأمل — مهما يكن الحظ — فى أكثر من منصب مساعد السكرتير ، الذى لم يكن يستهوينى كثيرا . ومن ثم فأننى حين استشرت فيها يطلب أن أفعل أبديت رغبة شديدة فى الذهاب إلى باريس . واستساغ السيد السفير هذا رأى ، الذى بدا خليقا بأن يخلصه منى على الأقل ! . . وقال السيد دي مرميه ، السكرتير

المترجم للسفارة ، إن صديقه السيد جودار - وكان ضابطا سويسريا برتبة كولونيل ، في خدمة فرنسا - كان يبحث عن شخص يعهد إليه برعاية ابن أخيه ، الذى التحق بالخدمة وهو بعد صغير السن ، ومن ثم فقد رأى أننى خليق بأن أروق له . وبناء على هذه الفكرة ، التى قبلت فى تسرع ، تقرر سفرى . . . قطار قلبى فرحا ، إذ رأيت أمامى رحلة تنتهى بى إلى باريس! . . . ومنحونى بعض خطابات التوصية ، ومائة فرنك للانفاق على الرحلة ، تصحبها نصائح طيبة . . . ثم رحلت !

وقضيت فى هذه الرحلة خمسة عشر يوما، أعتها بين الأيام السعيدة فى حياتى . وكنت شابا ، موفور الصحة، وكان معى مال كاف ، وآمال واثرة ، وقد انطلقت فى الرحلة على قدمى . وكنت أسافر وحيدا ، وقد يعجب المرء - إن لم يكن قد ألم بطباعى - إذ يرانى اعتبر ذلك ميزة ، فمقد كانت تصوراتى الناعمة تؤنسنى ، ولم يكن بوسع الواقع أن يتمخض عن أروع من هذه التصورات التى كان يوحى الى بها خيالى المتأجج . . . وهكذا كنت إذا عرض على امرؤ مجلسا فى مربة ، أو اقترب منى شخص فى الطريق ، أمبس خشية أن يهدم الصرح الذى كنت أبنيه فى خيالى أثناء سيرى ! . . . على أن افكارى كانت فى هذه المرة « عسكرية » صرفة ، فقد كنت موشكا أن أكون مرافقا لرجل عسكرى ، وأن أصبح عسكريا أنا الآخر ، إذ كانت التدابير قد اتخذت لكى التحق بالمدرسة العسكرية . ورحت أتمثل نفسى فى زى ضابط ، وقد حملت ريشة بيضاء بديعة ، فأنعم قلبى بهذه الفكرة الرغيدة . وكانت لدى بعض معلومات باهتة

عن هندسة التحصينات ، فقد كان خالى مهندسا ، ومن ثم
نقدت اعتبرت نفسى - بطريقة ما - عسكريا بالفطرة . . . وكان قصر
نظري عقبة ، ولكنها عقبة لم تزعجنى ، فقد عولت على أن أعوض
هذا العيب بالجلد والشجاعة . وكنت قد قرأت أن المارشال
(شومبيرج) كان قصر النظر ، فلماذا لا يكون المارشال روسو
على شاكلته ؟ . . . وهكذا رحت اتدفأ على حرارة هذه الأوهام
حتى أنني لم أعد أرى سوى فرق من الجنود ، ومقاريس ،
وسلال الطوابى (١) ، والمدفعيات ، وشخصى وسط النار
والدخان ، أصدر الأوامر فى هدوء ، وأنا أمسك بمنظار الميدان
فى يدي ! . . . ومع ذلك ، فأننى عندما كنت أجتاز المناطق الريفية
الجميلة ، كنت أرى الأدغال والجداول ، فيجعلنى هذا المنظر
الفتان أتهد حيرة ، وأشعر فى غمرة ابتهاجى بالمجد أن قلبى
لم يخلق لمثل هذا الضجيج ، وسرعان ما كنت أتمثل نفسى وسط
خرافى الحبيبة - دون أن أدري كيف انتقلت إليها - نابذا إلى
الأبد أعمال مارس (٢) !



كم كذبت مشارف باريس الفكرة التى كانت لدى عنها ! . .
كانت المناظر التى رأيتها تزين ظاهر مدينة (تورين) ، وجمال
طرقاتها ، وتناسق صفوف بيوتها ، قد جعلتنى أطمع فى مزيد

(١) أداة استوانية الشكل ، مفتوحة الطرفين ، كانت نبلا ترميها ويستعملان

بها فى بناء الحصون ، فى ذلك العهد .

(٢) إله الحرب . .

من ذلك كله في باريس ، فكنيت أتمثلها مدينة لها من الجمال بقدر ما لها من الاتساع ، وقد أوتيت أبهى حسن . . لا يرى المرء فيها سوى شوارع رائعة ، وقصور من مرمر وذهب ! . فلما دخلتها عن طريق ضاحية (سان مارسو) ، لم أر سوى شوارع صغيرة قذرة قميئة ، وبيوت بشعة سوداء ، وجو من الدنس والفقر ، ومتسولين ، وحوذيين ، وتجار للثياب القديمة ، ومنادين يعلنون عن العلاج بالركة وعن القبعات القديمة ! . كل هذا صدمنى منذ البداية ، إلى درجة أن كل العظمة الحقيقية التي رأيتها في باريس — بعد ذلك — لم تقو على أن تقضى على هذا الأثر الأول ، ومن ثم ظلت أكن دائما نفورا خفيا من الإقامة في هذه العاصمة ! . . واستطيع أن أقول إن المدة التي عشتها فيها — بعد ذلك — لم تشغل بأكملها إلا في السعى وراء موارد تمكّننى من العيش بعيدا عنها !

هكذا تكون ثمار الخيال البالغ النشاط ، الذى يتمادى إلى ما وراء مبالغات البشر ، والذى يطمع دائما في أن يرى أكثر مما يقال له ! . . فكم امتدحت لى باريس ، حتى أننى صورتها لنفسى على غرار بابل القديمة ، التى كان من المحتمل — لو قدر لى أن أزورها — أن أجد فيها الكثير الذى لا يتفق مع الصورة التى أكون قد رسمتها لها في خيالى ! . . ولقد حدث لى الشئ نفسه عندما زرت دار « الأوبرا » ، التى سارعت إلى مشاهدتها في اليوم الذى أعقب وصولى . . ثم وقع لى الشئ ذاته — فيها بعد — عندما زرت (فرساي) ، ثم حين شُهدت البحر للمرة الأولى . ولسوف يظل الأمر ذاته يراودنى كلما رأيت

شيئا اكون قد سمعت عنه اطنابا بالغا . . ذلك لانه من المستحيل على البشر ، ومن العسير على الطبيعة ذاتها، التفوق على خصب خيالي !

وخيل الى - من الطريقة التي استقبلني بها كل اولئك الذين حملت اليهم رسائل التوصية - ان حظي قد اكتمل . وكان الشخص الذي تلقى اكبر قسط من التوصية، والذي استقبلني بأقل قسط من الحفاوة ، هو السيد دي «سوريك» الذي كان قد اعتزل العمل وعاش متفلسفا في ضاحية (بانيو) ، حيث زرته مرارا ، وحيث لم يقدم لي كوب ماء قط ! . . ولقد حظيت باستقبال اوغر من مدام دي «مرفييه» - زوجة اخ المترجم - ومن ابنهما ، وكان ضابطا في الحرس . فإن الأم وابنتها لم يلقينني في حفاوة محسب ، بل انهما دعوانني إلى مائدتهما ، فاستغللت هذه الدعوة مرارا أثناء إقامتي في باريس . ولاح لي ان مدام دي «مرفييه» كانت حسناء يوما ما ، فقد كان شعرها ما يزال ذا سواد بديع ، وكانت تنسقه في حلقات على جبينها ، وفقا للنمط القديم . وكانت محتفظة بها لا يخبو حين تخبو المئات الشخصية . . واعنى بذلك : عقلا لا بأس به . وقد بدا انها استسافت فكري ، وأخذت تبذل كل ما في وسعها لمساعدتي ، ولكن احدا لم يؤازرها . . وما لبثت ان تبينت بجلاء الاهتمام العظيم الذي تولاهما نحوي . على أن من واجبي انصاف الفرنسيين ، فرائهم لا يغالون في الاحتجاجات - كما يقال - بل إن ما يبذونه منها يكون صادقا على الدوام . على ان لهم في التظاهر بالاهتمام بك أسلوبا اكثر خداعا من زخرف القول !

أما المجاملات الضخمة الماثورة عن السويسريين ، فلا تجوز إلا على الحمقى ! أن طباع الفرنسيين ليست بالغة الإغراء والفتنة إلا لأنها بالغة البساطة .. وقد يلوح أنهم لا يقولون لك كل ما يودون أن يفعلوه ، لكي يستطيعوا أن يقدموا لك مفاجآت مستحبة . بل إنني لأذهب إلى القول بأنهم ليسوا كاذبين في مظاهرهم ، فهم بطبيعتهم بشوشون ، عطوفون ، محبون للخير .. بل إنهم — مهما يقال — أكثر صدقا في مواطنهم من أبناء أية أمة أخرى .. بيد أنهم نزقون ، سريعو الملل والتقلب . إنهم يشعرون في الواقع بالعواطف التي يبدونها لك ، ولكن هذه العواطف سرعان ما تذهب كما جاءت .. وهم حين يحدثونك ينصرفون إليك بجماع أنفسهم ، ولكنهم ينسونك بمجرد أن تغيب عن أبصارهم .. فلا دوام لشيء في قلوبهم ، بل أن كل شيء لديهم ابن لحظته ! .

ومن ثم فقد حظيت بكثير من المجاملات وقليل من النفع .. وظهر أن ذلك الكولونيل «جودار» — الذي أوفدت لابن أخيه — كان شيخا وغدا شحيحا ، ما أن رأى ما كنت فيه من محنة ، حتى طمع في أن يظهر بخدماتي دون مقابل ، برغم أنه كان يتقلب في الذهب ! .. فلقصد أرادني على أن أكون لابن أخيه بمثابة وصيف بدون أجر ، أكثر مني رائدا ومربيا حقيقيا ! ولما كنت مرافقا إياه باستمرار ، ومعنى من الخدمة لذلك ، فقد كان لزاما أن أمشي على مرتبي كطالب عسكري — أو بالأحرى ، كجندي — وكاد التعس لا يوافق على منحى حلة عسكرية ، إذ كان يريد أن أقتنع بحلة الخدمة التي تقدمها الكتيبة للجندي العادي .

ولقد حالت مدام دى مرفييه نفسها بينى وبين قبول هذه المقترحات، إذ استنكرتها . . . وكذلك أبدى ابنها عين الشعور . ودار البحث عن مهمل آخر لى ، فلم يسفر عن شيء . وبدأت فى تلك الأثناء أحس بحاجة ماسة إلى المال ، فما كانت الفرصات المائة التى أنفقت منها على رحلتى لتكفينى فترة أطول . على أننى - لحسن الحظ - تلقيت من لدن السيد السفير منحة صغيرة أخرى . كانت عظمة النفع لى . واعتقد أنه ما كان ليتخطى عنى لو أننى كنت قد أوتيت مزيدا من الصبر ، ولكن التقاعس ، والانتظار ، والاسترحام أمور مستحيلة بالنسبة لى . . فأنصرفت عن هذه الأسره ولم أعد أتردد عليها !

ولم أكن قد نسيت « ماما » المسكينة ، ولكن كيف كان لى أن أعثر عليها ؟ أين كان لى أن أبحث عنها ؟ . . وكانت « مدام دى مرفييه » - التى عرفت قصتى - قد ساعدتنى فى هذا البحث فترة طويلة ، دون جدوى . . وأخيرا ، علمت أن « مدام دى قاران » قد غادرت باريس منذ شهرين ، ولكن أحدا لم يدر هل ذهبت إلى (سافوى) أم إلى (تورين) ، بل أن بعض الناس قالوا إنها عادت إلى سويسرا . وما كنت بحاجة إلى أن أضيع وقتا فى عقد العزم على الانطلاق فى أثرها ، وأنا واثق من أن البحث عنها - أيا كان مكانها - سيكون فى الأقاليم أيسر من كل ما قدر لى أن أقوم به فى باريس !

وقبل أن أرحل ، مارست براعتى الشعرية الجديدة فى رسالة إلى الكولونيل جودار ، نلت منه فيها باقصى ما استطعت ! ولقد مرضت هذا الهذيان على مدام دى « مرفييه » ، غبلا

من أن تلومنى — كما كان ينبغى أن تفعل — ضحككت كثيرا من سخريائى ، وكذلك فعل ابنها الذى لم يكن يحب السبد جودار ، على ما أعتقد — وخلق بى أن أعترف بأنه لم يكن أهلا للحب! — وهكذا الفيتنى ميالا إلى إرسال القصيدة إليه ، بعد أن وجدت تشجيعا على ذلك ، فحزمت الصفحات ، وكتبت عليها عنوانه . وإذا لم يكن فى باريس خدمة داخلية للبريد — يومئذ — فقد وضعت الخطاب فى جيبى ، وأرسلته من (أوكر) عندهما مررت بها . وما زلت أضحك أحيانا عندهما أفكر فى الاعتذرات التى لا بد أن يكون الكولونيل قد أبدأها وهو يقرأ هذه القصيدة التى وصفته أدق وصف ، والتى بدأت هكذا :

« اظننت أيها الكهل الأثم ، أن نزوة حمقاء

توحى الى بالشوق إلى تربية ابن اخيك ؟ » !

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة فى الواقع ، بيد أنها لم تكن تفتقر إلى الطلاوة ، كما كانت تنم عن استعداد طيب لفن « الهجاء » . . على أنها كانت الهجو الوحيد الذى أنساب من قلبنى ، فإن قلبنى لم يحو من الخبث ما يمكننى من استغلال موهبة كهذه ، وإن كنت أرى أن المرء يستطيع أن يحكم — من بعض المجادلات القلمية التى اكتبها من وقت إلى آخر ، دفاعا عن نفسى — أنتى لو كنت قد أوتيت روح الصراع ، لعز على من يهاجموننى أن يضحكوا عقب النزال !

إن أكثر ما أسف عليه من تفصيلات حياتى التى قدر لها أن تضيع من ذاكرتى ، هو أننى لم اكتب يوميات عن أسفارى .

لها قدر لي قط أن أكون أكثر تفكيراً ، وأكثر استمراء لوجودي وحياتي ، وأكثر قرباً من حقيقتي — إذا جاز لي أن أقول هذا — بما كنت في تلك الرحلات التي كنت أقوم بها سراً على قدمي .

بني المثلثي شيء ينعش نشاطي ويسمو بأفكاري . وأنا لا أكاد أفكر عندما أكون ساكناً ، لا بد لجسمي من أن يكون في حركة حتى يتحرك عقلي . ان رؤية الريف ، وتتابع المناظر الممتعة ، والخلاء ، والشهية المفتحة والصحة الطيبة اللذين اكتسبهما بالمثلثي ، والحياة الحرة في الفنادق الريفية . . وغياب كل ما يجعلني أحس بأنني عالة على غيري ، وكل ما يفكرني بمركزي ، وكل ما يفكرني بحالي . . كل هذا يطلق روحي من عقالي ، ويمتحنني جراحة بالفسة في التفكير ، ويلقي بي — كما ينبغي أن يقال — في بحار الكائنات الشاسعة لكي أجمعها وأفرزها وأنسقها كما يحلو لي ، دون ما حرج أو خوف ! . .

كنت أتصرف في الطبيعة بأسرها ، وكأني المسيطر عليها . . فكان قلبي في تنقله من شيء إلى شيء يتحد مع تلك الأشياء التي تروق له ويميزها عن سواها ، ويحيط نفسه برؤى غائبة ، وينتشي بأحاسيس غنية . وإذا كنت — في سبيل تسجيل هذه الأحاسيس وإثباتها — استعذب وصفها في نفسي ، غاية خطوط قوية ، وأية ألوان بهيجة ، وأية تعبيرات متألقة أضفيها عليها ! . . وقد يقال إن هذه كلها قد وجدت في مؤلفاتي وإن كانت قد كتبت في سني أمولي . . آه ! ليت أحداً قد رأى ما كتبت في صدر شبابي ، وما ألفت في رحلاتي ، وما أنشأت من أفكار لم أكتبها إطلاقاً ! . . وقد تقولون : لماذا لم تكتبها ؟ . . وأجيب أنا : لماذا أكتبها ؟ . . لماذا أحرم نفسي

السحر الواقعي للذة ، لكي أقول للغير إنني استمتعت بهذه اللذة ؟ .. ونعيم يعنيني القراء ، والجمهور ، والأرض بأسرها ، ما دمت أخلق في السماء ؟ .. ثم ، أفتراي كنت أحمل — في رحلاتي — ورقا وأقلاما ؟ .. لو أنني كنت قد فكرت في كل هذا ، لما وافتني شيء مما كان جسديرا بالتسجيل .. انني لم أكن أتناه بموعد الأفكار ، وإنما كانت تواتيني عندما تشاء هي ، وليس حين أشاء أنا ! .. وكأنت تمتنع من موافاتي ، أو تأتي زرافات فتطغى على بقوتها ومددها .. وما كانت عشرة مجلدات في اليوم بكافية لتدوينها ! فمن أين لي الوقت الذي أكتبها فيه ؟ .. كنت إذا بلغت بلدا ، لا أفكر إلا في فداء شهى . وإذا بارحت بلدا ، لا أفكر إلا في سير سريع ، فقد كنت أحس بأن ثمة نعيما جديدا على الأبواب ، فلا أفكر إلا في السعي إليه !

وما شعرت بكل هذا يوما قدر ما شعرت به في رحلة العودة ، التي أتحدث منها .. ففى طريقى إلى باريس ، كانت خواطرى محدودة بما كنت ذاهبا لعمله هناك ، إذ كنت قد انصرفت إلى الحياة العملية التي ظننت أنها كانت تنبسط أمامي ، والتي كنت خليقا بأن أخوضها بكثير من الفخر . ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التي دعائى قلبى إليها ، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال .. كان الكولونيل جودار وابن أخيه لا يتسقان مع بطل مثلى . أما الآن ، فقد تخلصت من هذه العقبات ، بفضل السماء ، وأصبح في مقدورى أن أفوص وفق هواي في عالم الأوهام ، إذ لم يبق أمامي سوى هذا العالم ! .. ولقد هبت فيه تماها ، حتى أنني ضللت طريقى عدة مرات

فعلا ، ولكنى كنت خليقا بان اغتم لو أننى سلكت طريقا أكثر اتجاها إلى مقصدي . ذلك لأننى توهمت أنى لن البت أن أجد نفسى على الأرض من جديد ، لدى وصولى إلى (ليون) ، فوجدت إلا أبلغها أبدا !

وفى يوم من الأيام ، انحرفت عن طريقى عمدا ، لانهل عن كذب مكانا تراءى لى جديرا بالإعجاب . وبلغ من ابتهاجى به أنى أكثرت من الدوران حوله ، حتى ضللت تماما فى النهاية! . . وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى ، وقد انهكتى التعب وبرح الجوع والعطش ، دخلت لدى فلاح لم تكن داره جميلة المظهر ، ولكنها كانت الوحيدة التى رايتها فيها حولى . وكنت أخال أن الأمر كما فى جنيف أو فى سويسرا موما ، حيث يخف جميع السكان الميسورى الحال إلى إظهار كرمهم . وسألت هذا الفلاح أن يمنحنى ما أتناوله غداء ، عارضا عليه أن أدفع الثمن . فقدم لى لبنا خثرا وقطعة من خبز الشعير الخشن ، قائلا إن ذلك كان كل ما لديه . فشربت اللبن جذلا ، وأكلت الخبز ، بقشه و « رفته » ! بيد أن هذا لم يكن قوتا كافيا لرد النشاط إلى رجل انهكه التعب . . وأدرك الفلاح الذى تفرس فى عن كذبى — صدق قهنتى ، بما تجلى له من شهيتى ، فصارحنى بعد ذلك نورا بأنه استطاع أن يتبين أننى كنت شابا طيبا وأميننا(١) ، وأننى لم آت كى

(١) من الجلى أن ملامحى — فى ذلك العهد — لم تكن قد شابتهت بمس

اللامح التى رسمت فى سورى بعد ذلك



وفي يوم من الايام ، انحرقت عن طريقى عمدا ، لانا مل من كتب مكاننا
تراءى لى جديرا بالاعجاب .

(٨) - اعترافات - ج ٢)

ابتز منه مالا . . ثم فتح باب مخزن صغير - بالغرب من المطبخ - وهبط منه ، وعاد بعد دقيقة برغيف بديع من خبز القمح المحمص ، وقطعة شبيهة من لحم الخنزير ، وان توخى التقتير في حجمها ، وزجاجة نبيذ أنعش مسراها فؤادى أكثر من كل ما عداها ! . . وأضاف إلى ذلك قطعة سميكة من العجة ، فحظيت بفساد لم يحظ بمثله قط عابر سبيل ! . . وعندما حان وقت الدفع ، عاود الرجل قلقه وخوفه ، فأبى أن يأخذ شيئاً من نقودى ، ورفضها في انزعاج غير عادى . والطريف فى الأمر أننى لم أستطع أن أتصور ما كان يخيفه . وأخيراً ، أطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف : « محصلو العوائد » و « جرذان القبو » (١) ! . . وأفهمنى أنه كان يخشى نبيذه بسبب العسوائد ، وكان يخفى خبزه بسبب الضرائب (العشور) ، وأنه يغدو رجلاً ضائعاً لو ارتاب هؤلاء فى أنه لم يكن يتصور جوعاً ! . . ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع - الذى لم تكن لدى الله فكرة عنه - أثراً لن يمحي ، كان بمثابة « بذرة » الكراهية التى لا تخبو ، والتى راحت تذكو فى قلبى - منذ ذلك الحين - ضد المظالم التى كانت تحيق بالشعب التعس ، وضد الطغاة . كان هذا الرجل لا يجرؤ - برغم يسر حاله - على أن يأكل الخبز الذى كسبه بعرق جبينه ، ولم يكن يملك أن يتفادى خرابه إلا بأن يبدى نفس الشقاء الذى كان يسيطر على من حوله ! . . وغادرت داره وأنا موزع

(١) « جرذان القبو » لقب كان يطلق فى ذلك العهد على متدبىي الحكومة

الذين يتفادون موارد المرء ويتفادون ما ينبغي عليه أن يدفع من مكوس وخراج .

بين المسخط والتأثر ، أرثى لحظ تلك البلدان الجميلة التي لم تسبغ الطبيعة هباتها عليها إلا لتجعلها مريسة لحصلى الضرائب المتوحشين !

هذه هي الذكرى الواضحة الوحيدة التي تبقت لى من كل ما حدث خلال تلك الرحلة . ولست أنكر إلى جوارها سوى أننى حين اقتربت من (ليون) ، شعرت بميل إلى أن أطيل طريقي كي أسعى إلى مشاهدة ضفاف (اللينيون) ، فقد كان بين القصص التي قراتها مع أبى ، قصة لم أنساها ، بل كثيرا ما عادت إلى ذاكرتى . . تلك هي « استريه » (١) . . فسالت عن الطريق إلى (فوريز) . وبينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع صاحبة أحد الفنادق ، علمت أن تلك المنطقة كانت ذات موارد طيبة للعمال ، وأن فيها كثيرا من المسابك ، وأن القوم يجيدون صناعة الحديد . فهدأ هذا القول من جموح خيالي في الحال ، إذ أدركت أن من غير الملائم أن أسعى للبحث عن أمثال « ديانا » و « سيلفاندر » (٢) بين قوم من الحدادين ! . . ولا بد أن المرأة الطيبة - التي شجعتنى على هذا النحو - فلننتفى صانع أطفال مرتزق !

ولم يكن ذهابى إلى (ليون) دون ما غرض على الإطلاق ، فما أن وصلت إليها حتى سعت إلى جهة (شاسوت) لزيارة الأنسة « دى شاتيليه » ، صديقة مسدام « دى غاران » التي

(١) قصة من غرام الرعاة للروائي « أونوريه دورفيل » (١٥٦٨-١٦٢٥) .

(٢) عاشقان من الآلهة يهود لكرما في قصة « استريه » .

كانت قد أعطتني رسالة لها عندما ذهبت مع السيد «لوميتر» .. ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا . وأتيتني الأنسة «دى شاتيليه» بأن صديقتها «مدام دى ماران» كانت قد مرت — فعلا — بليون ، ولكنها تجهل ما إذا كانت قد واصلت رحلتها حتى (بيمونت) .. بل أنها عند رحيها لم تكن مستقرة الراى على ما إذا كانت ستعرج على (سافوا) أم لا .. وأضسفت الأنسة أنها على استعداد لأن تكتب في طلب الأنباء ، إذا شئت ، وأن خير ما ينبغي أن أفعله هو أن أنتظر في (ليون) . وتقبلت الاقتراح ، ولكنى لم أجرؤ على أن أقول للأنسة دى شاتيليه إننى كنت ملهوما على الجواب المرتقب ، وأن كيسى الصغير الناضب لم يكن يتيح لى الانتظار طويلا ! ولم يكن ما صدنى عن المصارحة أنها أساعت استقبالى ، فهى — على النقيض — قد أبدت لى كثيرا من المجاملات ، وعاملتنى فى مساواة جردتنى من الجراة على أن أخفى عنها حالى ، وأن أهبط من مكانة الزميل المقبول ، إلى مكانة المستجدى التعس !

ومع أننى التزم تسلسل الحوادث التى أوردتها فى هذا الكتاب ، مانقنى أعود بالذاكرة إلى رحلة أخرى إلى (ليون) قمت بها فى مين تلك الفترة ، وأن لم يكن بوسعى أن أحدد زمانها بالضبط ، وقد وجدت نفسى خلالها فى ضائقة شديدة . وثمة حادث صغير — من العسير أن أرويه — لا يتيح لى قط أن أنساها : فقد كنت ذات مساء أجلس فى (بيلكور) ، بعد عشاء جد خفيف ، أفكر فى وسيلة أنتزع بها نفسى من ضيقى ، وإذا برجل له مظهر أولئك المشتغلين بالحرير ، الذين يدعون فى (ليون) باسم «القماشين» .

ووجه إلى الخطاب ، فرددت عليه . ولم نكد نسترنسل في الحديث نحو ريع ساعة ، حتى عرض على — بنفس الهدوء الذى كان يلزمه ، وبدون أى تغير في لهجته — أن نلهو معا في الريف . وانتظرت أن يبين نوع اللهو ، ولكنه شرع — دون أن ينبس بكلمة أخرى — يصور لى مثلا لهذا اللهو (١) . وكنا متلاصقين تقريبا ، ولم تشتد ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤية العمل الذى تها له . ولم يكن له مطمع في شخصي ، فما من شيء — على الأقل — عن هذا القصد ، كما أن المكان لم يكن ملائما لذلك . . فهو لم يكن يبغي — كما قال لى — سوى أن يلهو ، واللهو أنا الآخر ، كل منا على حدة . وقد بدا له هذا أمرا بسيطا ، حتى أنه لم يخطر بباله أنني قد لا أنظر إلى الأمر نظرتي ! . . ولقد جزعت لهذه القحة ، حتى أنني نهضت مسرعا — دون أن أرد عليه — وهربت بأقصى ما استعفتني ساقاي ، وأنا اتوهم أن ذلك الشقى كان في الثرى ! وكنت من الاضطراب بحيث أنني بدلا من أن أقصد إلى مأوى عن طريق (سسان دومينيك) ، انطلقت أمدو بجوار أرصفة الميناء ، فلم أقف حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبي ، وأنا أرتجف وكأنني عائد لتوى بعد ارتكاب جريمة ! . . ولقد كنت غريسة لتلك الرذيلة من قبل ، ولكن هذا الحادث أبرأني منها زمنا طويلا !

وقد صادفت — في أثناء الرحلة الثانية — مغامرة من نفس النوع تقريبا ، ولكنها عرضتني لخطر عظيم . وإليك قصتها :

(١) يبدو أن هذه الرذيلة هي الاستمناء ، أو (العادة السرية) .

كنت قد أحسست بأن مواردى أوشكت أن تنضب ، فأخذت
 اقتصد فى انفاق المبلغ الضئيل المتبقى ، بحيث أصبحت لا أتناول
 وجباتى فى فندق إلا لما . . ثم لم أعد أتناول منها شيئا هناك
 على الإطلاق ، إذ كان بوسعى أن أحظى فى الحانة ، لقاء خمسة
 أو ستة « سو » ، بشبع يفوق ما كنت أحظى به فى الفندق لقاء
 ستة وعشرين ! . . وإذ لم أعد أتناول طعامى فى الفندق ، لم
 أدر كيف كان لى أن أظل أبيت هناك ، إذ اتنى خجلت من أن
 أشغل حجرة دون أن أبيع لصاحب الفندق مجالا كافيا للربح .
 وكان الفصل بديع الجو ، لكن الحر اشتد فى إحدى الأمسيات ،
 فقررت أن أقضى الليل فى الميدان العام . وما أن استلقيت على
 مقعد عريض هناك ، حتى مر راهب ، فرأى نائما على هذا
 النحو ، وإذ ذاك اقترب فسألنى عما إذا لم يكن لى مأوى .
 وانضيت إليه بحالى ، فبدأ عليه التآثر ، وجلس إلى جوارى ،
 وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وكان حديثه مناسبا ، إذ
 كان كل ما قلته يوحى إلى بخير فكرة من الناس . ولما رأتى
 انست إليه ، قال لى إنه لم يكن يملك مسكنا فخما واسعا ، بل
 كان مسكنه يتألف من حجرة واحدة ، ولكنه ما كان — يقينا —
 ليدعنى أنام فى الميدان العام . ولما كان الوقت متاخرا ، ولا سبيل
 إلى البحث عن مأوى لى ، فقد مرض على نصف سريره فى تلك
 الليلة . وقبلت العرض ، وقد خالجنى الأمل فى أن أكون قد
 عثرت على صديق قد يستطيع أن يكون ذا نفع لى . وذهبنا إلى
 مسكنه ، فاشعل ضوءا تراحت حجرتة لى على هديه مناسبة ،
 برغم صغرهما . وأخذ مضيفى يكرمى فى أدب جم ، ثم أخرج من

وعاء زجاجي بعض الكريز الذي كان منقوعا في القبيذ . . فاكل كل منا اثنتين ، ثم اوفينا إلى السرير .

وكأنت لهذا الرجل نفس ميول صاحبي اليهودي الذي كان في دار الضيافة بالدير (١) ، ولكنه لم ييدها بمثل وحشية ذاك ، إما لأنه أدرك أن بوسعي أن أصل بصوتي إلى الاسماع ، فخشى أن يضطرني إلى الدفاع عن نفسي . . وإما لأنه كان في الواقع ضعيف التثبث من خططه ، فلم يجرؤ على أن يقترح بصراحة تحقيقها ، وإنما حاول استثارة انفعالاتي دون أن يستثير شكوكي ! ولما كنت قد تعلمت من التجربة الأولى ، فأنني أدركت سرا ما مقصده ، فارتجفت . . ولم أكن أعرف في أي منزل ولا بين أي يدين كنت ، فخشيت أن أدفع حياتي ثمنا لأية ضجة أحدثها . . فظاهرت بتجاهل ما كان يبغيه مني ، ولكني أبديت استياء شديدا من ملاطفاته ، وإذا عقدت العزم على ألا أقبل أي تماد منه ، فقد تصرفت بحيث اضطرته إلى أن يكبح نفسه . ثم تحدثت إليه بكل ما أوتيت من لطف وحزم . . وبدون إبداء أي ارتياب في شيء ، اعتذرت له بتجربتي السابقة عن القلق الذي أبديته نحوه ، ورحلت أبالغ في رواية تلك التجربة بعبارات مفعمة بالاستبشاع والاشمئزاز ، بحيث أثرت اشمئزازه . . على ما اعتقد . . ومن ثم عدل عن غايته القسرة تماما . . فقضينا ما تبقى من الليل في هدوء . بل أنه ذكر لي كثيرا من الأمور الطيبة الرقيقة ، فما كان . . بالتاكيد . . خلوا من الميزات ، برغم أنه كان وفدا كبيرا !

(١) وردت واقعة اليهودي بصفحة ١١٠ من الجزء الاول .

وفى الصباح، لم يشأ السيد الراهب أن يبدو مستاء، فتحدث عن تناول الافطار ، وسأل إحدى ابنتى صاحبة الدار - وكانت جميلة - أن تحضر لنا فطورا ، فقالت له أن لا وقت لديها لذلك . ووجه الرجاء إلى أختها ، فلم تتفضل عليه برد ! . . . وظللنا ننتظر ، ولا اثر لفطور ! . . . وأخيرا انتقلنا إلى حجرة الأتستين ، فإذا بهما تستقبلان الراهب بنذر ضئيل من التلطف . ولم يكن لى أن أطمع فى استقبال أفضل : فإن كبرى الفتاتين داست - وهى تستدير - طرف قدمى بكعب حذاءها المديب . وكانت فى قدمى بثرة (كاللو) شديدة الالام - اضطرتنى من قبل إلى أن أقطع طرف حذاءى - أما الفتاة الأخرى فقد جذبت من خلفى فجأة مقعدا كنت أهم بالجلوس عليه . . . بينما كانت أمهما تلقى من النافذة بعض الماء الذى أغرق وجهى ! . . . وعلاوة على ذلك كن، أينما جلست ، يقصيننى للبحث شىء ما ! . . . أبدا لم ألق فى حياتى مثل هذه « الحفاوة » ! . . . وكنت أرى فى نظراتهما المهينة الساخرة سخطا مكتوما ، كنت من الفباء بحيث لم أفقهه . وفى ذهولى ودهشتى ، أوشكت أن أخال أن الشيطان قد استولى عليهن جميعا ، فبدأت أشعر بجزع شديد . وفى تلك الأثناء ، أدرك الراهب - الذى كان يتظاهر بأنه لم يكن يرى أو يسمع - أن لا أمل فى فطور ، فقرر مبارحة الدار . . . وأسرعت خلفه وأنا مغتبط بالافلات من الشيطانات الثلاث !

وفى أثناء سيرنا ، مرض على أن نذهب فنغفر فى مقهى . وعلى الرغم من أننى كنت شديد الجوع ، إلا أننى لم أقبل هذه الدعوة التى لم يصر عليها بعد ذلك ، ومن ثم افترقنا بعد أن

اجتزنا ثلاثة شوارع أو أربعة . أما أنا فقد كنت مبتهجا إذ غاب عني منظر كل ما كان يمت إلى تلك الدار اللعينة . . وأما هو فكان مرتاحا — فيما أعتقد — إذ ابتعد بي عنها حتى لا يسأل على أن أعرفها . . وإذا لم تكن قد عرضت لى من قبل أمثال هاتين المغامرتين ، سواء فى باريس أو سواها ، فأنها لم تخلقا فى نفسى أثرا طيبا عن أهل (ليون) ، بل ظللت دائما أعتبر هذه المدينة مثالا للمدينة الأوربية التى يسودها افظع فساد !



ولا تساعد الظروف التى انحدرت إليها فى تلك المدينة ، على الاحتفاظ عنها بذكرىات طيبة . ولو كنت قد خلقت على غرار سواى : لو أوتيت مثلا موهبة الاقتراض ، أو أن أكون مدينا لفندقى ، لسهل على أن أنتزع نفسى من الحرج ، ولكن مقدرتى على هذا الأمر كانت تعادل نفورى منه . ولكى تتصوروا إلى أى مدى بلغ عجزى ونفورى ، يكفى أن تعرفوا أننى بعد أن قضيت حياتى كلها — تقريبا — فى الفاقة ، وكنت أوشك فى كثير من الأحيان على ألا أجد القوت ، لم أتلق يوما من دائن مطالبة بنقود إلا أجبتها فى اللحظة عينها . وما عرفت الطريق إلى القروض قط ، بل كنت دائما أؤثر العناية على الديون المالية !

ولقد كان من العذاب حقا أن أهبط إلى درك قضاء الليل فى الشارع ، الأمر الذى حدث لى مرارا فى (ليون) ، فلقد أثرت أن استغل الدراهم القليلة التى بقيت لى فى دفع ثمن خبزى ، بدلا من دفع أجر ماواى . . فقد كان خطر النوم فى العراء أقل من خطر الموت جوعا ! . . والعجيب فى الأمر أننى لم أكن — فى

تلك الظروف القاسية — قلنا ولا حزيننا ! لم يكن لدى أدنى قلق بصدد المستقبل ، بل رحت أنتظر — مطمئنا — البرد الذى كان لا بد أن تلتقاه الأنسة « دى شاتيليه » . . . وكنت أنام فى العراء ، مستلقيا على الأرض ، أو على مقعد عريض ، مستغرقا فى النعاس وكأننى فى سرير من الورود! . . . وأذكر — بوجه خاص — اننى أنفقت ليلة ممتعة خارج المدينة ، على أرض طريق ممتدة إلى جانب نهر (الرون) أو (الساؤن) — فلست أذكر أى النهرين كان ! — وكانت تحف بالجانب الآخر للطريق حدائق أقيمت على ارتفاع فوق مستوى الأرض . وكان الحر قائظا فى نهسار ذلك اليوم ، ولكن الليل كان بديعا ، وقد روى الندى الأعشاب الظامئة . . . ولم تكن ثمة ريح ، إذ كانت الليلة ساكنة ، والنسيم رقيقا ، خلوا من الرطوبة . . . وقد خلفت الشمس وراءها — بعد الغروب — أبخرة حمراء فى السماء ، أحال انعكاسها الماء إلى لون الورد! . . . وكانت أشجار الحدائق العالية عامرة بالبلابل التى راحت تتجاوب بالشدو . وأخذت أتمشى فى نشوة ، مسلما حواسى وفؤادى لهذه المتعة الضافية ، فلم تداخلنى سوى حسرة — تمثلت فى زفرة — لأننى كنت مضطرا إلى استمرار هذه المتعة وحدى . . . وواصلت السير إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأنا مستغرق فى تأملاتى الناعمة ، دون أن أفطن إلى أن التعب قد أدركنى . . . ولكنى انتبهت إلى ذلك أخيرا ، فألقيت بنفسى — فى اغتباط — على قاعدة « كوة » أو باب زائف نحت فى جدار سياج الحدائق ، وقد تعانقت الأبنان مؤلفة شبه « سقف » فوق سريرى . . . كما جثم بلبل فوق رأسى مباشرة ، وراح يغرد لى . . . حتى نمت .

وكان نعاسى لطيفا ، كما كان استيقاظى العطف . . فقد كان الصباح رائعا ، ووقعت عيناي - حين غتحتها - على الماء والخضرة ، وريف بديع ! . . ونهضت من مرقدى ، فتعطيت ، وإذا شعرت بالجوع انطلقت طروبا صوب المدينة ، وقد عقدت العزم على أن أنفق على فطورى القطعتين الفضيقتين اللتين بقيتا من نقودى ! . . وكم كنت مبتهجا ، حتى أننى أخذت أردد إحدى أغاني « باتيستان » التى كنت أحفظها عن ظهر قلب . وكان عنوانها : « حمام ثوميرى » . . ألا فلتبسرك السسماء « باتيستان » الطيب وأغنيته ، فقد أتاحا لى فطورا أفضل مما كنت أنتوى ، وغداء أكثر امتاعا . . وهما وجبتان لم تكونا فى الحساب قط ! - فبينما كنت سائرا أغنى - على خير حال - سمعت شخصا خلفى ، فالتفت ، وإذا بأحد « الأنطونيين » (١) يتبعنى ، وقد لاح أنه كان ينصت إلى غنائى فى طرب . . وبادانى بالحديث ، فحياتى ، وسألنى عما إذا كنت على المام بالموسيقى ، فأجبت : « بعض الشيء » ، بلهجة توحى إليه بأننى كنت أعرف الكثير . . وتابع سؤالى ، فرويت له شطرا من قصة حياتى ، وإذا ذاك سألنى عما إذا لم يكن قد سبق لى أن نسخت « نوتات » موسيقية ، فقلت له : « كثيرا » - وكان هذا صدقا ، إذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ - فقال : « حسنا ! تعال معى ، ففى وسعنى أن أشغلك بضعة أيام ، لن

(١) « الأنطونيون » أتباع مذهب علمسانى فى الرهبنة . وكتبوا يفخرون بأنهم حملة « سليب مالطة » ، وهو وسام منحوا إياه أدبها حين أبدوا بسالة فى الحرب .

يعوزك خلالها شيء .. على شريطة ألا تفادى الحجر قط !
 .. ووافقت عن طيب خاطر ، فتابعته !

وكان هذا الانطواني يدعى السيد «روليشون» ، وكان يحب الموسيقى ويحذقها ويغنى في الحفلات الصغيرة التى كان يقيمها مع أصدقائه . ولم يكن فى هذا سوى كل ما هو برىء وشريف ، ولكن هوايته كانت تنحدر — كما اتضح لى — إلى تهوس كان مضطرا إلى التستر عليه بعض الشيء ! .. وقادنى إلى حجرة صغيرة نزلت بها ، فوجدت فيها كثيرا من القطع الموسيقية التى نقلها هو ، كما أعطانى سواها لى أنقلها ، وكانت من بينها الأغنية التى كنت أرددها ، والتى كان مزمعا أن يغنيها بعد أيام .. وقضيت ثلاثة أيام أو أربعة وأنا عاكف على النسخ طيلة الوقت ، باستثناء وقت الطعام — فما كنت فى أى يوم من أيام حياتى أكثر شهية ولا أفضل غذاء مما كنت خلال تلك الأيام ! — وكان الرجل يحمل الطعام إلى بنفسه من المطبخ ، ولا بد أن طعام القوم كان طيبا شهيا ، إذا صح أن ما كان يقدم لى كان من طعامهم العادى ! .. ولقد كنت طيلة عمرى لا أجيد فى الأكل متعة ، وجدير بى أن أعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت فى الوقت المناسب تماما ، إذ أننى كنت جانا كالخشب . ورحت أعمل بنفسى الإقبال الذى كنت آكل به ، وهو إقبال لم يكن بالقليل ! .. على اننى ، فى الواقع ، لم أكن دقيقا فى عملى بقدر ما كنت سريعا . وقد حدث بعد ذلك ببضعة أيام أن قابلنى السيد روليشون فى الطريق ، فأنبأنى بأن منسوخاتى جعلت

العزف الموسيقى مستحيلا ، لأنها وجدت مليئة بالشغط والتكرار والتحريف . ومن الواجب أن اعترف بأننى اخترت المهنة الوحيدة التى كنت أقل الناس استعدادا لها ، لا لأن علاماتى الموسيقية لم تكن جميلة أو لأننى لم أكن دقيقا فى النقل . وإنما لأن الملل من عمل جد طويل ، كان يشتت بالى إلى درجة أننى كنت أقضى فى المحو وقتا أطول مما كنت أقضى فى الكتابة ، وإلى درجة أن منسوخاتى لم تكن صالحة للتنفيذ — بالعزف — ما لم أبدأ مناهة فائقة بمراجعتها . . وهكذا أسأت إنجاز عملى ، فى الوقت الذى كنت أسعى فيه لأدائه على خير وجه . . وبدلا من أن أسرع ، إذا بى أتخبط ! على أن هذا لم يمنع السيد روليشون من أن يحسن معاملتى إلى النهاية ، ومن أن يمنحنى كذلك — عند انصرافى — دينارا لم أكن استحققه البتة ، وإن كان قد أنقذنى من ضائقتى . . وان هى إلا أيام قلائل ، حتى تلقيت نبأ من « ماما » — التى كانت فى (شامبيرى) — مصحوبا بنقود ، كى الحق بها ، الأمر الذى أسرعت إلى تحقيقه مسرورا . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ، كثيرا ما أوشكت مواردى المالية على النفاد ، ولكنها لم تذهب فى نضوبها قط إلى الدرجة التى اضطررت معها إلى الصوم . وإبنى لأذكر تلك الفترة من حياتى بقلب شديد الشعور بالعناية الإلهية ، فلقد كانت تلك آخر مرة فى حياتى أشعر فيها بالنعاسة والجوع !

ولقد مكثت فى (ليون) سبعة أيام أو ثمانية ، فى انتظار بعض مهام كانت « ماما » قد عهدهت بها إلى الأنسة « دى شاتيليه »

وفى اثناء هذه الفترة كنت أكثر مثابرة على زيارة الأنسة من
 ذى قبل ، فرحت أنعم بالحديث إليها عن صديقتها ، ولم اعد
 مثقل البال إلا بتلك الأفكار القاسية التى كانت نعاودنى عن
 مركزى ، وإلا بمحاولة إخفاء هذا المركز . ولم تكن الأنسة
 « دى شاتيليه » بالشابة ، ولا بالجميلة ، ولكنها لم تكن تفتقر
 إلى الملاحظة ، وكانت رقيقة الأعطاف ، ودودة ، كما كان ذكاؤها
 يضىء بهاء على هذا الود . ولقد أوتيت ذلك الشغف بالتأمل
 الخلقى الذى يقود إلى دراسة الشخصيات ، وإليها ادين باول
 حافظ أصلى دفعنى إلى هذا الاتجاه . وكانت مشغوفة بقصص
 « ليساج » ، لا سيما قصة « جيل بلا » التى حدثتني عنها
 وأعارتنيها ، فقرأتها فى استمتاع ، ولكنى لم أكن قد نضجت
 بعد بحيث أفقه هذا النوع من القراءة ، إذ كنت أنشد القصص
 الحافلة بالأحاسيس الرقيقة . وهكذا قضيت وقتى إلى جوار
 مدفأة الأنسة « دى شاتيليه » فى استمتاع وانتفاع ، ومن
 المحقق ان الأحاديث الطريفة ذات الطابع الفكرى — التى تصدر
 عن امرأة موهوبة — أصلح لتكوين الشاب من كل ما فى الكتب
 من فلسفة متحذقة ! . . ولقد تعرفت — بين المقيمين فى
 (شاسوت) وأصدقائهم — إلى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ،
 تدعى الأنسة « سير » ، لم أبد لها إذ ذاك اهتماما عظيما ، ولكنى
 شغفت بها حبا بعد ذلك بثمانى أو تسع سنوات . . وكنت على
 حق فى تدلّهى بها ، فقد كانت فتاة ساحرة (١) .

(١) سرد ذكرها فى القسم الخامس سنة ١٧٤١ من الكراسة السابعة .

وفي غمرة انشغالي بتوقع رؤية « ماما » الطيبة — عما قريب — أهملت أوهامي قليلا ، إذ عوضتني الهناء الحقيقية التي كانت في انتظاري ، عن السعى وراء الخيالات . . فإني لم أعثر على « ماما » مرة أخرى فحسب ، وإنما وجدت في قربها ، وبوساطتها ، ظرنا مواتيا ، إذ أشارت في رسالتها إلي أنها عثرت لي على عمل كانت تأمل أن يروق لي ، كما أنه لم يكن ليقتصيني عنها . ولقد أرهقت حدسي في التكهن بنوع ذلك العمل ، بيد أنه كان لابد للمرء من أن يصبح نبيا حتى يصيب الحدس ! . . وكان لدى من المال ما يكفي لأن أقوم برحلة مريضة . وقد رغبت الأنسة « دي شاتيليه » في أن استأجر جوادا ، ولكني لم أكن أملك أن أوافقها ، وكنت على حق . ولولا ذلك لفقدت متعة آخر رحلة على الأقدام في حياتي — فلست أستطيع أن أصف النزهات التي كثيرا ما كنت أقوم بها في الضواحي المجاورة أثناء إقامتي في (مونتير) ، بأنها رحلات على الأقدام !

ومن الأمور العجيبة أن خيالي لا يخلق قط راضيا إلا عندما تكون حالتي غير مرضية ، كما أنه — من ناحية أخرى — يغدو أقل ما يكون ابتساما عندما يبتسم كل ما حولي ! . . فإن رأسي النكد لا يستطيع أن يتكيف مع الأشياء ، فهو لا يقنع بتجميل الأمور ، وإنما يصبو إلى الخلق والابتداع . . كما أن الأشياء الحقيقية لا تبدو له إلا كما هي في الواقع ، فهو إنها يجيد تنميق الأشياء الخيالية فحسب . وعلى هذا القياس ، لابد لي من أن أكون في الشتاء ، إذا شئت أن أصور الربيع ! وإذا رغبت في

وصف جمال مناظر الطبيعة ، وجب أن أكون داخل الجدران .. ولقد قلت مرة إنه لو كان قد قدر لى يوما أن ألقى فى غياهب (الباستيل) ، لكنت قد رسمت أبداع صورة للحرية !

وعندما بأرحت (ليون) ، لم أكن أرى أمامى سوى مستقبل باسم .. ولقد كنت سعيدا ، وكان لى الحق فى ذلك ، بعد أن حرمت هذه السعادة وأنا أغادر باريس .. ومع ذلك فإني لم أنعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التى كانت ترافقنى فى الرحلة الأخرى . كان قلبى جذلا ، ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر . ورحت أقترب فى اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة التى كنت أسمى لرؤيتها من جديد ، وأتفوق مقدما حلالة العيش بالقرب منها ، ولكن فى غير نشوة سكرى ، إذ كنت دوما أتوقع ذلك ، فكأنما لم يكن فيما أنا مقبل عليه شيء جديد ! .. ولقد خامرنى القلق بصدد ما كنت مقدما على عمله ، وكأنما كان فى ذلك ما يدعو إلى الاشفاق .. وكانت أفكارى ساكنة وأدعة ، وليست « مساوية » ، تسلب الروح والعقل . وكانت الأشياء المادية تجتذب نظرى ، فكنت أولى مناظر الطبيعة اهتمامى .. كنت لاحظ الأشجار والدور والجداول ، وأحدث نفسى عند ملتقيات الطرق ، فقد كنت فى خوف من أن أضل ، ولكنى لم أضل على الإطلاق .. وبإيجاز : لم أعسد أحلق بين السحب ، وإنما كنت دائما حيث كنت .. فلم أبعد قط عن الواقع !

وأنا فى الحديث من رحلاتى ، تماما كما أنا فى أدائها ، لا أتعجل بلوغ غايتى .. وهكذا كان قلبى يخفق طربا وأنا أقترب من « ماما » العزيزة ، ولكنى لم أغذ السير إليها ، فإني أحب السير

كما يروق لى ، ولا أتوقف إلا حين يطلو لى .. فحياة التجوال
هى التنى ثلاثمنى ، والسفر على الأقدام ، فى وقت بديع ، وفى
بلد جميل ، دون ما تعجل ، ونحو غاية مرغوبة ، هو أكثر
أساليب العيش طرا ملاءمة لذوقى ! وفيما عدا ذلك ، فإن
ما أعنيه « بالبلد الجميل » أصبح معروفا : فما من بلاد مبسطة
الأنيم بدت لعينى جميلة ، مهما يكن جمالها .. بل لأبد لى من
سيول ، وصخور ، وأشجار صنوبر ، وغابات سوداء ، وجبال ،
وطرق منحدره اتسلقها أو أهبطها ، ومهاوى من حولى تثير
رعبى ! ولقد أتاحت لى هذه المتعة ، واستمرتاتها فى أروع
سحرها ، وأنا أقترب من (شامبرى) .. فغير بعيد من جبل
شديد الانحدار — يسمى (با دى لاشيل) — كان ثمة نهر
يجرى تحت طريق واسعة منحوتة فى الصخر ، عند البقعة
المسماة (شايى) . وكان نهرا قصيرا ، يندفع جامحا عبر مهاوى
سحيقة بدا أنه حفرها خلال آلاف السنين .. وكان ثمة سياج
على حافة الطريق لتفادى النكبات ، مما مكنتى من أن أطل على
الاعماق ، وأن أحظى بالدوار وفق هواى ! .. ذلك لأن من الأمور
الطريفة فى مزاجى أننى أميل إلى الأماكن السحيقة الانخفاض ،
التي يدور لها راسى ، وأننى أحب هذا الدوار كثيرا ما دمت
مطمئنا إلى سلامتى .. ومن ثم انحنيت فى اطمئنان فوق
السياج ، ومددت أنفى فى الفضاء ، وظللت هكذا ساعات طويلة ،
أتأمل — بين وقت وآخر — الزبد والمساء الأزرق الذى كنت

اسمع هديره وسط صراخ الغريان وصيحات الطيور الجارحة التى كانت تطلق من صخرة إلى صخرة ، ومن دغل إلى دغل ، على بعد مائة فرسخ تحتى . . . وفى البقاع التى كانت الأرض تنبسط عندها فى انحدار شديد ، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحمى ، رحت اجمع اكبر ما استطعت حمله من الأحجار ، ووضعتها على السسياج ، ثم اخذت أطوح بها واحدة بعد أخرى ، مستعذبا رؤيتها وهى تمرق ، ثم ترتطم فنتهشم إلى ألف قطعة ، قبل أن تبلغ قاع الهاوية !

وإذ ازدت قريبا من (شامبيرى) ، رايت منظرا مشابها ، ولكنه من نوع مخالف : كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائى شهده فى حيساتى . وكان الجبل منحدرًا إلى درجة تجعل الماء يندفع فى الفضاء ، ثم يهبط بعيدا فى قوس كبير ، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبطل أحيانا ! ولكن كان من السهل أن يخدع الإنسان إذا لم يكن حذرا فى حسابه . ذلك لأن الماء — عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق — ينشق ويسقط فى رشاش . . . فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ ، أخضل بالماء فى لحظة ، دون أن يظن — فى بادئ الأمر — إلى أنه قد ابتل !



ووصلت أخيراً .. ورايتها من جديد ! .. ولم تكن وحيدة ،
 فقد كان المدير العام للاقليم لديها في اللحظة التي دخلت فيها
 عليها . وبدون أن أتكلم ، تناولت يدي وقدمتني إليه بذلك
 اللطف الذي كان يفتح لها كل القلوب : « ها هو يا سيدي هذا
 الشاب المسكين ، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية ، ولن
 أشعر بعد ذلك بقلق من أجله ، بقية حياته ! » .. ثم وجهت
 إلى الخطاب قائلة : « انك الآن يا بنتي في خدمة الملك .. أشكر
 السيد المدير ، إذ هيا لك أسباب العيش ! » .. وفتحت عيني
 الواسعتين دون أن أقول شيئاً ، ودون أن أدري قيم ينبغي أن
 أفكر ، إذ أن طموحي المطرد النمو أدار رأسي ، فتصورت نفسي
 للتو مديراً صغيراً ! .. ومن المؤكد أن حظي لم يرق إلى التالى
 الذى أوجت به إلى خيالى هذه البداية ، بيد أنه كان يكفنى
 إذ ذاك أن أميش فحسب ، وقد كان ما دبر لى أكثر مما رجوت
 .. وهاكم جلية الأمر :

خطر للملك « فيكتور أماديه » - على ضوء الحروب
 السابقة ، وحالة الميراث الذى آل إليه عن آبائه - أن هذا
 الميراث لن يلبث أن يغلت منه يوما ، ومن ثم فقد سعى إلى
 استنزاف موارده . ولما كان قد قرر - قبل ذلك بسنوات قلائل -
 أن يخضع الأشراف لضريبة العشور ، فإنه أمر بإجراء تقدير
 عام لجميع الأراضى ، لتعيين مساحتها وقيمتها ، ليتسنى بعد
 ذلك فرض الضريبة العقارية ، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة .

وكان هذا العمل قد بدأ في عهد الأب، واستؤنف في عهد الابن . .
 واستخدم لهذه المهمة مائتان أو ثلاثمائة شخص ممن يتولون
 مسح الأرض — وكانوا يدعون مهندسين — ومن الكتاب الذين
 أطلق عليهم لقب السكرتيرين . وقد حصلت لى « ماما » على
 منصب بين هؤلاء الآخرين . ومع أن المنصب لم يكن عظيم
 المورد ، إلا أنه كان يدر ما يكفى للعيش من سعة في تلك المنطقة .
 وكان السيئ في الأمر أن هذا التعيين كان مؤقتا ، ولكنه جعلنى
 فى وضع يمكننى من البحث عن منصب أفضل وارتقاب الحصول
 عليه . وكان من بصيرة « ماما » أن تعمدت الظفر لى برعاية
 خاصة من المدير ، حتى أتمكن من الانتقال إلى منصب أرسخ
 مكانة ، إذا ما حانت نهاية مهلى فى المنصب الأول .

ودخلت الخدمة عقب وصولى بأيام قلائل . ولم يكن فى
 هذا العمل شيء من العناء ، فسرعان ما خبرته . وهكذا قدر لى
 للمرة الأولى — بعد أربع أو خمس سنوات قضيتها فى التجوال،
 والطيش ، والعذاب ، منذ بارحت (جنيف) — أن أبدأ فى كسب
 عيشى بعمل مشرف !

ولقد تبدو هذه التفاصيل المسهبة عن باكورة صباى ،
 أمورا صبيانبة . . ولكنى غير مستاء لذلك ، فعلى الرغم من
 أننى ولدت رجلا — لاعتبارات معينة — إلا أننى ظلت طفلا
 لأمد طويل ، ولا أزال كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى . . وأنا لم

أعد بأن أقدم للرأى العام شخصية عظيمة ، وإنما وعدت بأن
أصف تلك الشخصية التى أوتيتها . ولابد - لكى تعرفونى فى
كبرى - من أن تلموا المما كافيًا بصباى ، ذلك لأن الأشياء
المادية - بوجه عام - أقل انطباعًا فى نفسى من ذكرياتها ، كما
أن جميع أفكارى تتخذ شكل صور خيالية . . فى حين أن
الأحداث الأولى التى طبعت نفسها على صفحة ذهنى ظلت
باقية ، ولم تملك الأحداث التى انطبعت بعدها سوى أن تندمج
فيها ، بدلا من أن تطفى عليها ! . . وهناك مجموعة متعاقبة من
العواطف والآراء التى تطفى على كل ما يأتى بعدها من عواطف
وأفكار ، ولابد من التعرف على الأولى لكى يتسنى الحكم على
الأخيرة . وقد اعتدت - فى جميع الأحوال - أن أعنى بالأسباب
الأولى ، حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسا . .
وإنى لأرجو أن أستطيع - إلى حد ما - أن أعرض نفسى شفافة
أمام عينى القارئ ، ومن أجل هذا أسعى إلى أن أطلعكم عليها
تحت جميع الأضواء ، وأن أعرضها من جميع النواحي ، وأن
استيقن من أنه لن تغيب عن ملاحظته أية حركة من حركاتها ،
حتى يكون قادرا فى النهاية على أن يحكم بنفسه على المبادئ
التي انتهجتها .

وإذا كنت القى على نفسى مسئولية النتيجة ، وأقول
للقارئ : « هذه هى شخصيتى » ، فقد يخيّل إليه أنتى إذا لم
أكن أخدعه هو ، فإننى - على الأقل - أخدع نفسى . أما عندما
أكتفى بتفصيل كل ما جرى لى ، وكل ما فعلت ، وكل ما خطر

ببالي ، وكل ما خالجنى من مشاعر ، فإننى لا أستطيع ان أغرر به ... بمحض رغبتى على الأقل - بل إننى لو أردت لما وجدت الامر سهلا . . ومن ثم فإننى اترك له عبء تجميع هذه العناصر ، وتقرير نوع المخلوق الذى تؤلفه ، إذ يجب ان تكون النتيجة من صنعه هو ، حتى إذا أخطأ بعد ذلك ، كان الخطأ كله من ذنبه . على أنه لا يكفى - من أجل هذه الغاية - ان تكون قصصى صادقة ، وإنما يجب كذلك ان تكون دقيقة . وليس لى ان أحكم على أهمية الوقائع ، وإنما يقتضىنى الواجب ان أروىها جميعا ، ثم اترك له مهمة فرزها . وهذا ما حرصت عليه - حتى الآن - بكل ما أوتيت من شجاعة ، ولن أحيده عنه فيما يلى .

غير أن ذكريات اوسط العمر ، تكون دائما أقل تألقا من ذكريات باكورة الصبا . ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه افضل قسط استطعت اقتباسه . فإذا وانتنى الذكريات الأخرى بنفس الوضوح ، فإن القراء الذين ملوا الأولى ، ربما ازدادوا مللا . .

أما أنا - بالذات - فلن أكون مستاء من عملى ، وليس لى ما أخشاه فى هذا المشروع سوى أمر واحد : وليس هذا الأمر هو الاسراف فى القول ، أو سرد الأكاذيب ، وإنما هو الاقوال كل شيء ، أو ان أخفى الحقائق .

الكراسة الخامسة

(من سنة ١٧٣٢ إلى ١٧٣٦)

كان ذلك في سنة ١٧٣٢ — على ما يبدو لى — إذ وصلت إلى (شامبيرى) ، كما ذكرت ، وبدأت عملى فى مسح الأرض ، فى خدمة الملك . وكنت قد تجاوزت عاشر العشرين ، ودنوت من الحادى والعشرين . وكنت — من الناحية العقلية — وافى التكوين بالنسبة لسنى ، ولكن المقدرة على الحكم على الأمور لم تكن متوفرة لى ، بل كنت فى ميسس الحاجة إلى الأيدى التى وقعت بينها ، لاتعلم كيف أتصرف . ذلك لأن سنوات التجارب القليلة لم تقو على أن تبرئنى تماما من خيالاتى الشاعرية . وعلى الرغم من كل البأساء التى عانيت بها ، لم أعرف عن الدنيا والناس إلا القليل ، وكأنى لم أدفع ثمن المعرفة !

واقمت فى دارى ، أعنى فى دار « ماما » ، ولكنى لم أسترد قط الغرفة التى كانت لى فى (أنيسى) ، فلم تعد ثمة حديقة ، ولا جدول ، ولا مناظر . . بل كان البيت الذى شغلته معتمبا كئيبا ، وكانت غرفتى أكثر غرف البيت ظلمة وكآبة : جدار بدلا من مناظر الطبيعة ، وحارة مسدودة بدلا من الشارع ، وقليل من الهواء ، ونزر من ضوء النهار ، ومساحة ضئيلة ، وصراصير ، وفئران ، وأخشاب باليسة تكسو الأرض . . كل هذه ما كانت لتجعل من الغرفة سكنا بهيجا ، ولكنى كنت فى دارها — دار « ماما » — وبالقرب منها . . ولما كنت بلا انقطاع فى مكتبى أو فى غرفتها ، لم أنبأ كثيرا إلى بشاعة غرفتى ،

إذ لم يكن لدى وقت للتفكير فيها . ولسوف يبدو عجيبا أن
تقيم « ماما » فى (شامبرى) خصيصا لتسكن هذه الدار الوضيعة،
ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها ، ينبغى ألا أغفل ذكرها :
فلقد واجهت فكرة الرحيل إلى (تورين) وهى كارهة ، إذ كانت
تشعر — بعد الثورات التى كانت حديثة العهد ، وبعد القلاقل
التي كانت لا تزال تلم بالبلاط — أن الوقت لم يكن ملائما لوجودها
هناك . فى حين أن شئونها كانت تتطلب ظهورها ، إذ كانت
تخشى أن تغدو منسية أو ضحية للوشايات ، سيما وإنها كانت
تعلم أن الكونت « دى سان لوران » — المدير العام للمالية —
لم يكن يميل إليها . وكانت له فى (شامبرى) دار عتيقة ، رديئة
البنيان، وفى موقع بلغ من سوءه أنها كانت تظل خاوية باستمرار،
فاستأجرتها « ماما » واستقرت فيها ! . . وكان هذا التصرف
أكثر توفيقا من الرحيل إلى (تورين) ، فلم يقطع معاشها قط ،
بل أصبح الكونت « دى سان لوران » — منذ ذلك الحين — من
أصدقائها !

والفيت إدارة بيتها تقرب مما كانت عليه من قبل ، كما ظل
وصيفها الوفى « كلود آنيه » معها دائما . . . وهو — كما أظننى
فكرت — فلاح من (موترو) ، اعتاد فى طفولته أن يجمع الأعشاب
فى منطقة (جورا) لصناعة الشاي السويسرى ، فالحقته « ماما »
بخدمتها من أجل عقاقيرها ، إذ وجدت من الأصوب والأوفر
أن يكون خادمها خبيرا بالأعشاب! . . . وكان مشغولاً كل الشغل
بدراسة النباتات ، فحببت هذا الميل إلى درجة أن أصبح الرجل
خبيرا نباتيا بحق ، ولولا أنه مات فى شبابه ، لكان من المحتمل

ان يذيع اسمه في هذا العلم ، بقدر ما يستحق ان يخلد اسمه بين الثرغاء الامناء . ولما كان جادا ، بل ووقورا ، كما اننى كنت اصغره ، فإنه غدا متى بمثابة المربى ، مما عصمنى من كثير من الحماسات ، إذ كان ذا اثر على نفسى ، فلم اكن اجسر على ان اتسى نفسى في حضرته ! وكان له عين الاثر على نفس سيدته ، التى عرفت حسن إدراكه ، واستقامته ، وولاءه الذى لا يتزعزع نحوها ، فجازته خير الجزاء . . . ولقد كان « كلود آنيه » — بلا مراء — رجلا نادرا ، بل انه الوحيد الذى رايته من نوعه على الاطلاق ! كان مثندا ، متزنا ، مفكرا ، حكيما في تصرفاته ، هادئا في طباعه ، موجزا مفيدا في اقواله . وكان في عواطفه عنف لم يكن يدعه يظهر البتة . . . عنف كان ينهش احشائه ، ولكنه لم يدفعه أبدا إلى ان يرتكب في حياته سوى حماقة واحدة ، ولكنها كانت رهيبة . . . تلك هى أنه سم نفسه ! . . . وقد وقع هذا الحادث المحزن عقب وصولى بقليل ، وكان خليقا بان يطلعنى على مدى المودة الوثيقة التى كانت بين هذا الفتى وسيدته ، إذ اننى ما كنت لاحدسها إطلاقا لو لم تنبئنى بها هى بنفسها ! . . . وبقينا أنه إذا كان الولاء ، والتحمس ، والوغاء ، جديرة بجزء من نوع تلك المودة ، فقد كان « آنيه » أهلا لذلك ، والذى يثبت أنه كان خليقا به ، أنه لم يسئ استغلال ثقة سيدته أبدا ! . . . وكان نادرا ما يتشادان ، ودائما تنتهى مشاداتهما على خير . على أنه قدر لإحداها أن تنتهى بسوء ، فلقد قالت السيدة لآنيه — في غضبها — كلمة مثيرة لم يقو على احتمالها ، وفي تآثره واساه ، وقعت يده على زجاجة بها خلاصة دهن

الأفيون ، فتجرع محتوياتها ، ثم استلقى فى هدوء ، مطمئنا إلى انه لن يستيقظ قط ! .. ولحسن الحظ أن مدام دى هاران راحت تجوس خملال دارها — وهى قلقة ، منفعلة — فعثرت على الزجاجة فارغة ، وحسبت الباقي ، فأسرعت لنجدته ، وهى تطلق صرخات اجتذبتنى إليها .. فاعترفت لى بكل شيء ، وناشدتنى المعونة ، ونجحنا بعد كثير من العناء فى حمله على تقيؤ الأفيون . وإذا شهدت هذا المنظر ، عجبت لفبائى إذ لم يساورنى قط اتفه ريب فى الصلات التى انبأتنى هى بها ! .. بيد أن « كلود آنيه » كان من التكتم بحيث أن من يفوقوننى فى جلاء البصرة كانوا خليقين بأن يفتروا بمظهره ! وكان الصالح بينهما بعد ذلك من نوع جعلنى أتأثر — أنا نفسى — أشد التأثر . ومنذ ذلك الحين أضفت إلى التقدير احتراما نحووه ، وأصبحت تلميذا له ، إلى حد ما .. الأمر الذى لم أجد فيه عيبا !



على أننى لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » فى مودة تفوق مودتى كثيرا . بل إننى ما فكرت يوما فى أن أشتهى لنفسى مثل هذه المكائنة ، غير أنه كان من الشاق على نفسى أن أراها تمتلئ بشخص آخر ! .. وكان هذا أمرا طبيعيا ، ومع ذلك فإتنى بدلا من أن أشعر بنفور من ذلك الذى سلبنى إياها ، وجدت أن وفائى للسيدة قد امتد — فى الواقع — إليه هو الآخر ! فقد كنت راغبيا — قبل كل شيء — فى سعادتها ، وما دام هو ضروريا لهذه السعادة ، فقد ارتضيت أن يكون هو الآخر سعيدا . أما هو ، فإنه « غاص »

تماما في وجهات نظر مولاته ، واستشعر صداقة صادقة نحو
 الحديق الذى اصطفته . وبدون أن يفرض على السلطة التى
 كان مركزه يخوله إياها ، فإنه مارس - بطريقة طبيعية - تلك
 السلطة التى كان ذكاؤه الفائق يتيحها له على ذكائى ، بحيث لم
 أجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهجانا له ، كما أنه لم يكن
 يستهجن سوى ما هو سيئ . وهكذا مثلنا فى وحدة أسعدتنا
 جميعا ، ولم يكن ليقوى على تقويضها سوى الموت ! . . . ومن
 أدلة رومة شخصية تلك الميزة الحبيبة ، أن كل الذين أحبوا
 كانوا يتحابون فيما بينهم . . . فكانت الغيرة ، بل والتنافس ،
 يخضعان للشعور المسيطر الذى كانت توحى به السيدة ، وهكذا
 لم أر قط واحدا ممن كانوا يحيطون بها يضر شرا لآخر ! . .
 فليكن أولئك الذين يقرأون كتابى لحظة من مطالعتهم ، عند
 هذا المديح ، فإذا وجدوا - وهم يتأملونه - امرأة أخرى
 يستطيعون أن يقولوا عنها الشيء ذاته ، فليعلقوا بها ليضمنوا
 الطمانينة فى حياتهم . . . ولو كانت - فيما عدا ذلك - آخر
 الغاويات !

وهنا تبدأ - منذ وصولى إلى شامبرى ، حتى رحيلى إلى
 باريس فى سنة ١٧٤١ - فترة مداها ثمانى أو تسع سنوات ،
 سأروى خلالها من الحوادث التى تستحق الرواية عددا قليلا ،
 لأن حياتى كانت جد بسيطة وبهيجة . وكانت رقابتها هذه
 هى عين ما كانت تهمس إليه حاجتى لكى استكمل تكوين
 شخصيتى ، التى حالت القلاقل المستمرة دون استقرارها .
 وفى هذه الفترة الغالية ، تماسكت تربيتى - المتنوعة ، غير

المتابعة — فجعلت منى الشخص الذى لم أكف بعد ذلك عن أن أكونه فى غمار العواصف التى كانت تتربص بى . ولقد كان هذا التطور غير محسوس ، كما كان بطيئاً مصحوباً ببضعة أحداث جديدة بالذكر . . بل جديدة بالمراعاة والتنمية !

فى بداية الأمر ، لم أشغل بشيء سوى عملى ، إذ أن قيود المكتب لم تكن تدعنى أفكر فى شيء آخر . وكان الوقت القليل الذى أتححر فيه ، ينقضى إلى جوار «ماما» الطيبة . ولما لم تكن لدى مساحة للقراءة ، فإن شغفى بالاطلاع لم يعد يملكنى . حتى إذا أصبحت واجباتى نوعاً من العادة المتواترة ، قل انشغال بالى بها ، فعاودنى التمليل والقلق ، وأصبحت القراءة ضرورة — من جديد — وكأنما كان هذا الميل يحتدم كلما عز أرضاؤه ، فكان خليقاً بأن يفدو ولعا جنونيا — كما حدث مندا كنت فى كتف معلمى (١) — لو لم تتدخل بعض نوازع أخرى فتحول اهتمامى عنه .

ومع أن عملياتنا لم تكن تتطلب تعمقا فى الحساب ، إلا أنها كانت تحتاج إلى قدر منه كان كافيسا لأن يزعجنى فى بعض الأحيان . ولكنى أتغلب على هذه العقبة ، ابتعت بعض كتب فى علم الحساب ، واستوعبتها جيداً ، إذ كنت أستفكرها وهدى . وقد تبين أن الحساب التطبيقى أوسع نطاقاً مما يتصور المرء ، إذا ما كانت الدقة منشودة . فثمة عمليات بالغة الطول ، كنت أرى المهندسين يخطئون أحياناً فى سياقتها . بيد أن التفكير المقترن بالمران يتيح سوانح جلية ، فلا يلبث المرء أن يهتدى

(١) يقصد الحمار الذى قضى فترة عنده يتعلم حرفة النقش على الملائن .

إلى أساليب مقتضبة يثير ابتكارها اعتداده بنفسه ، كما أن
 دقتها ترضى العقل ، وتضفى سحرا على عمل لا ينطوى على
 حمد ولا عريان . ولقد تعمقت في هذا الباب تعمقا موفقا إلى
 درجة أن أية معضلة قابلة لأن تحل بالأرقام وحدها لم تكن
 تعينني ! . . حتى أنني الآن ، وقد أخذ كل ما عرفته ينمحي
 من ذاكرتي يوما بعد يوم ، أجد أن هذه المعرفة التي اكتسبتها
 لا تزال باقية — إلى حد ما — بعد انصرافي عنها ثلاثين عاما ! .
 ولقد حدث منذ أيام ، وفي خلال رحلة قمت بها إلى (دافنبورت) ،
 أن عاونت أبناء مضيئي في درس الحساب ، فكان سروري يفوق
 التصور ، إذ حللت — دون ما خطأ — مسألة من أشد المسائل
 تعقدا . وكان يخيل إلي وأنا أسجل الأرقام أنني في (شامبيري)
 من جنيد ، وفي أيام شبابي الهائثة . فلقد ارتدت إلى
 تلك الأيام ، على بعد الشقة بيني وبينها !

كذلك ولد تلوين خرائط مهندسينا الميسل إلى الرسم في
 نفسي ، فابتعت بعض الألوان ، وشرعت أرسم الزهور والمناظر
 الطبيعية . ومما يرثى له أنني اكتشفت أنني لم أوت سوى موهبة
 طفيفة في هذا الفن الذي كنت أميل إليه بكل جوارحي ! . .
 وكنت خليقا بأن أقضى — بين أقلامي وقرشي — أشهرا بأكملها ،
 دون أن أبرح داري . وإذا أصبحت هذه الهواية تستأثر
 باهتمامي إلى درجة كبيرة ، فقد روى انتزاعي من سيطرتها .
 وهكذا الحال دائما بالنسبة لكل الميول التي أشرع في الانصراف
 إليها بكل نفسي ، إذ أنها تتضاعف وتستحيل إلى شغف ،
 فسرعان ما لا أعود أرى في الدنيا سوى المتعة التي استشعرها

في مزاولتها . ولم تبرئني السن من هذا العيب ، بل إنه لم يتضاءل مع مرور السنين ، حتى أننى لأرانى - وأنا اكتب هذا الآن - كمخرف كهل يهيم بدراسة أخرى لا تنفع من ورائها ، ولا يفقه فيها شيئا ! . . دراسة يضطر أولئك الذين كرسوا لها حياتهم إيان شبابهم ، إلى التخلي عنها في مثل السن التى أريد أن اشرع في ممارستها فيها(١) ! .



ولقد كانت هذه الهواية خليقة بأن تبدو أمرا طبيعيا في ذلك الوقت(٢) ، إذ كانت الفرصة سائحة، وكان ثمة ما يغرينى بانتهازها . فلن الرضى الذى كنت أشهده في عيني « آنيسه » وهو يعود إلى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلنى - مرتين أو ثلاثا - على وشك أن انصرف إلى جمع الأعشاب معه . واكاد أوقن بأن هذه الهواية كانت قميئة بأن تستولى على ، لو أننى خرجت معه مرة ، ولعلنى كنت قد أصبحت اليوم خبيرا كبيرا بالنباتات ! . . فليست أعرف في الدنيا دراسة أكثر ملامة لميولى الطبيعية من دراسة النبات ، وما الحياة التى أعيشها في الريف منذ عشر سنوات سوى دراسة مستمرة للأعشاب ، دون ما هدف - في الواقع - ودون ما تقدم . . على أننى لم أكن في ذلك العهد على بينة بشيء عن علم النبات،

(١) شغف « روسو » - وهو يكتب هذه الكراسة من اعترافاته - بفلاحة

البساتين .

(٢) يقصد الفترة التى عاش خلالها في « شامبيري » مع مدام دي فاران .



فان الرضى الذى كنت أشهده فى عيىنى ((آنية))
وهو يعود الى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلنى - مرتين
ثلاثا - على وشك أن أنصرف الى جمع الأعشاب معه .

فشعرت بنوع من الازدراء — بل ومن النفور — لهذه الدراسة، ولم أر فيها سوى ما يراه كل الجهلة من أنها حرفة المهتم بصناعة العقاقير — فإن « مايا » ، التي كانت تحبها ، لم تكن تفيد منها إلا في هذه الصناعة ، ولم تكن تبحث إلا عن النباتات العادية ، لتستغلها في عقاقيرها — وهكذا كان علم النباتات والكيمياء والتشريح تختلط في ذهني تحت اسم الطب ، ولم تكن تصلح إلا لامدادى بفكاهات ساخرة طيلة يومى ، ولتجلب على الصناعات بين وقت وآخر !

وإلى جانب ذلك ، أخذ ميل آخر مختلف عن هذا — بل على النقيض منه إلى حد كبير — ينمو في نفسى باطراد، وسرمان ما ابتلع كل ما صداه : وأعنى بذلك الموسيقى . ولا بد أننى خلقت لهذا الفن بالتأكيد ، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتى ، وهو الوحيد الذى ظللت أحبه باستمرار في جميع الأوقات . والعجيب في الأمر أن الفن الذى خلقت من أجله ، قد كبدنى تعلمه — ورغم ذلك — عناء كبيرا ، وكان تقدمى فيه من البطء بحيث أننى لم أجرؤ قط على الغناء باعتداد ، بعد كل التدريب الذى مارسته في حياتى ! .. أما الذى حبيب إلى هذه الدراسة — في ذلك الحين بوجه خاص — فهو أننى كنت أستطيع أن أواصلها مع « مايا » . فمع أن أذواقنا في النواحي الأخرى كانت جد مختلفة ، إلا أن الموسيقى كانت — بالنسبة لنا — رباطا يجمع بيننا ، فكنت أحب دائما أن أفيد منه . وما كانت « مايا » لتأبى ذلك . بل إننى كنت إذ ذاك أكاد أعادلها تقدما في هذا الفن ، فكان في وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث أن نحل

رموز اى لحن . وكنت احيانا إذا ما رايتها مستفرقة أمام
موقد ، أقول لها : « ماما ، هاك لحنا ساحرا لاثنين ، يبدو لى
أنه خلىق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تنم عن احتراقها » . .
فكانت تقول لى : « آه ! . . قسما لأجعلنك تأكلها إذا أنت
شغلتنى عنها حتى تحترق ! » . . وبينما يدور الجدل ، كنت
أجرها إلى معزفها ، فتنسى نفسها ، حتى تحترق خلاصة
الابستنت أو العرمع(١) بالفعل ، فتلطمح « ماما » بها وجهى . .
وكم كان كل ذلك عذبا !

ومن هذا ترون أننى وإن كنت لم أوت من الفراغ إلا وقتا
قصيرا ، فقد كان لدى كثير من الأمور التى أنفق فيها هذا
الوقت . على أنه كان ثمة — إلى جانب ذلك — ملهاة خليقة
بأن تعادل وحدها كل الملهى الأخرى ! وإليك قصتها : كنا
نقيم فى شسبه بسجن معتم خائق ، حتى أننا كنا بحاجة إلى
الخروج احيانا لننشد الهواء فى الريف . وأغرى آتیه « ماما »
بأن تستأجر بستانا فى الضواحي لتربية النباتات . وكان يلحق
بهذا البستان بيت ريفى صغير بديع ، جهز بأثاث متواضع ،
وأقيم فيه سرير . وكثيرا ما كنا نتناول عشاءنا هناك ، كما
كنت أنام فيه احيانا . . ولقد أولعت . . دون أن أظن — بهذا
« المعزل » الصغير ، فحملت إليه قليلا من الكتب ومسددا من
المطبوعات ، وقضيت شطرا من وقتى فى تزيينه ، وفى إعداد
مفاجأة مستحبة لماما إذا ما خرجت للنزهة فى ذلك المكان .

(١) الابستنت مثل مخد ، « والعرمع » نبات !

(م ٦ - اعترافات - ج ٢)

وكنفت ابتعد عنها أحيانا ، لكى أشغل بها بالى ، ولكى أفكر فيها بمزيد من الابتهاج . وكانت هذه نزوة أخرى لا يسعنى أن أبررها أو أشرحها ، ولكنى أعترف بها ، لأنها كانت حقيقة . وإنى لأذكر أن مدام دى « لوكسمبورج » حدثتني مازحة - ذات مرة - عن رجل اعتاد أن يفارق عشيقته لكى يكتب إليها رسائل ! . . وقد قلت لها إنه كان من المحتمل أن أكون ذلك الرجل - وكان خليقا بى أن أضيف أننى كنت أتصرف أحيانا مثله ! - على أننى لم أكن أشعر قط ، وأنا مع « ماما » بضرورة الابتعاد عنها كى ازداد حبها لها ، لأننى كنت إذا ما خلوت إليها أشعر بطمأنينة كاملة ، كما لو كنت وحيدا ! . . وهى حال لم أستشعرها البتة فى حضور أى امرئ آخر - رجلا كان أو امرأة - مهما يكن تعلقى به ! . . ولكنها كثيرا ما كانت تحاط بقوم لم أكن أنسجم معهم إطلاقا ، فكان ينتابنى شعور من الضيق والملل ، يدفعنى إلى ملاذى ذاك (١) ، حيث كان بوسعى أن أهنأ بها كما كنت ابتغيها ، دون أن أخشى أن يتعقبنى الزائرون الثقلاء !

وعلى هذه الحال - التى كان وقتى فيها موزعا بين العمل واللهو والتعلم - نعمت بحياة مفعمة بأعذب دعة ! على أن أوربا لم تكن فى مثل طمأنينتى ، إذ كانت فرنسا والإمبراطور قد أعلنوا الحرب لتوهبا ، وساهم ملك (سردينيا) فى النزاع ، فأخذ الجيش الفرنسى يتقدم عبر (بيمونت) ليفزو أراضى

(١) يقصد البيت الريفى الملحق بالبستان .

ميلان . ومرت فرقة منه خلال (شامبيرى) ، كان بين كتابتها كتيبة (شامبانى) ، التى كان قائدها الدوق دى « لاترموى » . وقد قدمت إليه ، فكان مسرعا فى وعوده — وإتى لموقن من أنه لم يتذكرنى البتة بعد ذلك ! — وكان بستاننا الصغير يقوم فى أقصى طرف الضاحية التى دخلها الجند ، ومن ثم فقد كان بوسعى أن أنعم تهما بمتمعة مشاهدتهم وهم يهرون ، وكنت من التحمس لنجاح هذه الحرب ، كما لو كانت لى مصالح عظيمة مهددة بها . . . ولم يكن قد جال بخاطرى حتى ذلك الحين أن أفكر فى المسائل العامة ، فبدأت أقرأ الصحف للمرة الأولى ، ولكن . . . فى تحيز لفرنسا (١) كان يجعل قلبى يخفق طربا كلما أحرزت أقل نجاح ، بينما كانت أخفاتها تحزننى وكأنها قد المت بى أنا ! . . . ولو أن هذه الحماسة كانت عابرة ، لما وجدتتها جديرة بأن أتحدث عنها ، ولكنها تغلغلت فى فؤادى دون ما سبب كاف ، حتى أننى حين قمت — فى باريس — بدور عدو الطفافة المعتز بدعوته ، شعرت ، رغما عن نفسى ، بميل خفى إلى هذه الأمة التى وجدتتها راسفة فى الذلة ، وإلى الحكومة التى كنت اتظاهر بالنقمة عليها . والطريف فى الأمر اتنى ، لأجلى من شعور يناقض مبادئى ، لم أجسر على أن أفضى به لآى امرئ ، ورحت أسخر من الفرنسيين فى هزائهم ، بينما كان قلبى يدمى من أجلمهم ، أكثر مما كانت تدمى قلوبهم هم ! ومن المؤكد اننى الرجل الوحيد الذى يعيش بين قوم

(١) لم يكن روسو يعتبر فرنسا وطنه ، فقد كان من رعائيا (جنيف)

احسنوا معاملته وهام بحبهم ، ولكنه مع ذلك يظهر نحوهم ، وهو بينهم ، روح الازدراء ! وهذا الميل من ناحيتى مجرد من الهوى ، وهو من القوة ، والبقاء ، والمناعة بحيث اننى لم استطع ان أبرئ نفسى من هذا الضعف ، حتى بعد رحيلى عن فرنسا ، عقب العاصفة التى تبارت حكومتها وحكامها وكتائبها فى إثارتها ضدى ، وهذا أصبح العرف المألوف هو إفراقتى بها لا استحق من سبب ! . . نعم ، اننى أحبهم برغم نفسى ، وبرغم سوء معاملتهم إياى !

ولقد سعيت طويلا إلى تبين سبب هذا التحيز ، فعجزت عن العثور عليه ، اللهم إلا فى عين المناسبة التى أوجدها : فإن الميل المطرد إلى الأدب أولانى شغفا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين . وفى الوقت الذى مر فيه الجيش الفرنسى بشامبيرى ، كنت أقرأ كتاب « برانتوم » المسمى « القسادة العظام » ، فكان راسى مليئا بأمثال كليسون ، وبيار ، ولوتريك ، وكولينى ، ومونمورنسى ، وتريمويسى ، وكنت أحب ذرياتهم بوصفهم ورثة فضائلهم وبسالتهم . ورحت أخال اننى ألح فى كل كتيبة مرت تلك العصابات السوداء الشهيرة ، التى أحرزت تلك البطولات ، من قبيل ، فى (بيمونت) . وموجز القول اننى ربطت ما كنت أراه ، بالأفكار التى كنت أقتبسها عن الكتب . وراحت مطالعته الدائبة . وكانت لا تزال مقصورة على مؤلفات الأدباء الفرنسيين . تغذى حبى لبسلاهم ، ثم حولت هذا الحب فى النهاية إلى شغف أعمى لم يقو شئ على التغلب عليه ! ولقد سنحت لى - فيما بعد - الفرصة كى

الاحظ في سياق رحلاتي أن هذا الأثر لم يكن قاصرا على بالذات، وإنما كان يتعدانى — بدرجة متساوتة — إلى أفراد من جميع البلدان ، وهم ذلك القسم من الأمة الذى يحب القراءة ويقبل على الأدب ، فكان هذا الشغف يرجع على النفور العمام الذى توحى به عجرفة أخلاق الفرنسيين ! .. والملاحظ في هذا الصدد أن قصص أدبائهم أكثر استيلاء من رجالهم على قلوب النساء في جميع البلدان .. كما أن تحفهم التمثيلية تجتذب الشباب إلى مسارحهم ، فإن شهرة مسارح باريس تجذب إليها زرافات من الأجانب ، الذين يعودون إلى أوطانهم وهم من أشد المعجبين المتحمسين لها ! .. وبالاختصار أقول إن الذوق الرائع الذى يبين في أدب الفرنسيين ، يسبى عقول كل أولئك الذين أوتوا أى قدر من العقل . ولقد رأيت خلال تلك الحرب — التى انتهت أسوأ نهاية بالنسبة لهم — أن مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف اسم فرنسا الذى لطخه محاربوها!

وقد كنت إذ ذاك فرنسيا متحمسا ، نهبا إلى الأنباء ، فكنت أذهب مع حشد متسقطى الأخبار إلى ساحة السوق ، لنتنظر البريد . وكنت — في غباء يفوق غباء الحمار في الأسطورة — أشغل نفسى كثيرا بمحاولة معرفة أى سيد سيكون لى شرف حمل سرجسه وركابه ، فلقد قيل في تلك الأثناء إننا سننتزع فرنسا ، وأن (سافوا) ستبادل باراضى (ميلان) . على أنه من الواجب الاعتراف بأننى كنت على حق في قلقي ، فلو أن هذه الحرب انقلبت في غير صالح الحلفاء ، لتعرض معاش «ماما»

لخطر كبير . غير أنني كنت مفعما بالثقة في أصدقائي الطيبين (١) ، ولم تخب هذه الثقة — في هذه المرة — بفضل ملك سردينيا ، الذي لم أفكر فيه إذ ذاك !



وبينما كان الصراع دائرا في إيطاليا ، كان الغناء دائرا في فرنسا ! . فقد بدأت أوبرات « رامو » تحدث ضجة ، وترفع من شأن مؤلفاته النظرية التي كان غموضها قد جعلها في متناول نفر ضئيل من الناس . ولقد سمعت عفوا من مؤلفه « رسالة في التوافق » ، فلم أرتجح حتى حصلت على هذا الكتاب . وبمصادفة أخرى ، سقطت مريضا . وكان مرضي نوعا من الالتهاب ، الذي كان عنيفا وقصيرا ، ولكن نقاهتي كانت طويلة ، فلم يكن بوسعى الخروج لمدة شهر . وفي خلال هذه الفترة مكنت على « رسالة في التوافق » التهمها ، ولكنها كانت طويلة ، محشوة بالإسهاب ، سيئة العرض إلى درجة أنني شعرت بأن لا بد لى من وقت طويل كى أدرسها واستوعبها . وأرجأت جهودى ، ورحت أجلو عيني بالموسيقى . ولم تفارق ذهنى أغانى « بيرنيه » ، التى رحلت أندرب عليها . (مقصد حفخت منها عن ظهر قلب أربعا أو خمسا ، منها تلك التى كانت تدعى « آلهة الحب الفاتمة » ، التى لم أسمعها ثانية منذ ذلك الحين ، والتى لا أزال أحفظها كلها تقريبا . وكذلك « الحب الذى لدغته نخلة » ، وهى أغنية جد بدیعة من تأليف « كليرامبو » حنظلتها فى عين ذلك الوقت تقريبا) .

(١) يقصد المونتينيون .

واستكمالا لشغفى ، وصل من (مال داوست) عازف أرغن شاب يدعى الأب « باليه » ، كان موسيقيا مجيدا ، ورجلا طيبا ، وعازفا يجيد مصاحبة من يغنى . وتعرفت إليه ، فأصبحنا لا نفترق . وكان قد تلمذ على راهب إيطالى بارع فى العزف على الأرغن ، فحدثنى عن مبادئه فى الموسيقى ، وقارنتها بمبادئ « رامو » — الذى كنت أعجب به — وملأت رأسى بالعزف الذى يصاحب الغناء ، وبتناسق الأنغام وتوافقها . وكان لا بد من أن أشحذ حساسية أذنى لكل هذا ، فاقترحت على « ماما » إقامة حفلة موسيقية فى كل شهر ، فوافقت . وإذا بى استغرق فى تلك الحفلات ، فلم أعد أشغل بشيء آخر ليلا أو نهارا . . والواقع أننى شغلت شطرا كبيرا من وقتى فى تنظيم الموسيقى ، والحفلات الموسيقية ، والأدوات ، وتقسيم الأدوار ، وما إلى ذلك ! . . وكانت « ماما » تغنى ، كما أن الأب كانتون — الذى سبق أن تحدثت عنه ، والذى سأحدث عنه مرة أخرى — كان يغنى هو الآخر . وكان أستاذ للرقص يدعى « روش » يعزف مع ابنه على « الكمان » ، والسيد « كافانا » — وهو موسيقى ببيموننتى كان موظفا فى المساحة ، وقد تزوج بعد ذلك واستقر فى باريس — يعزف على الكمان الكبير ، بينما كان الأب « باليه » يصاحبهم على « البيانو » ، كما كان لى شرف قيادة الموسيقى ، دون أن أنسى العصا . وفى وسع المرء أن يتصور مدى جمال كل ذلك ! . . ولئن لم تكن هذه الحفلات كطلك التى كانت تقام لدى السيد دى « تريوران » ، إلا أنها كانت تقرب منها !

وأثارت الحفلات الموسيقية الصغيرة التى أخذت تقيمها مدام دى فاران - وهى حديثة عهد بالإيمان ، وكانت تعيش على بر الملك ، كما كان يقال - تضرع عصابة الاتقياء ، ولكنها كانت ملهاة مستحبة لكثير من الشرفاء . ولكن هل يستطيع أحد أن يحدد: من الذى كنت أضمه على رأس تلك المناسبات ؟ .. كان راهبا ، ولكنه راهب موهوب ، بل ومحبوب ، أثرت بلاياه ، غيما بعد ، على نفسى تأثرا قويا ، ولا تزال ذكراه - التى ارتبطت بذكرى أجمل أيامى - عزيزة لدى . ذلك هو الأب كاتون - أحد الرهبان الجبليين (١) - الذى عمل بالاشتراك مع الكونت « دورنان » على مصادرة موسيقى « الهريرة » المسكنة فى (ليون) ، ولم يكن هذا أبداع ما فى حياته . فقد تخرج فى « السوربون » ، وعاش ردها طويلا فى أرقى الأوساط الباريسية ، وكان ذا حظوة خاصة لدى المركز « دانترمون » ، الذى كان سفيرا لسردينيا فى ذلك العهد . وكان حسن البنيان ، ممتلئ الجسم ، بارز العينين ، ذا شعر أسود كان يتجمع بطبيعته على جبينه ، وذا أخلاق نبيلة وصريحة ومتواضعة ، فى آن واحد ! .. كان مظهره بسيطا وبديعا ، دون ما شئ من النفاق أو السلاطة التى عرفت من الرهبان ، ودون ذلك الصلف المألوف لدى نجوم المجتمع ، وإن كان واحدا منهم .. لم يكن يبدى سوى اعتداد الرجل الشريف ، الذى يحترم نفسه - دون أن يخجل من لباسه - ويشعر دائما بأنه فى الوسط

(١) سبق أن شرحنا مذهب الرهبان الجبليين فى الجزء الأول ، ونضيف

أنهم من « الفرنسيسكان » .

المحترم إنما يكون في مكانه الطبيعي . ومع أنه لم يكن جد متعلم بالدرجة التي تتفق مع « الدكتوراه » التي كان يحملها . إلا أنه كان كامل العدة والاستعداد لأن يكون من رجال المجتمع . . ولم يكن يتلطف على أن يعرض معرفته ، وإنما كان يستغلها في الفرص المناسبة ، حتى لقد كان يظن أنه أوتي من المعرفة أكثر مما كان يمتلك ! . . ولما كان قد عاش طويلا في المجتمع الرسمى ، فإنه كان يولى المؤلفات المستحبة من الاهتمام أكثر مما كان يولى العلم الجاف . وكان حاضر البديهة ، يقرض الشعر ، ويجيد الكلام ، ويحقق الغناء ، وقد وهب صوتا جميلا ، كما كان يعزف على الأرغن و « البيانو » . وكان هذا أكثر مما يكتفى لأن يجعله منشودا ومرغوبا . وهكذا كان بالفعل ! — بيد أن ذلك كله لم يجعله على أن يهمل واجبات منصبه إلا بقدر تناقه ، فلم يلبث أن اختير — برغم غيرة مزاحميه — نائبا لرئيس طائفته في إقليمه . وبمعنى آخر ، كان من أرفع أفراد الطائفة شأنًا !

ولقد تعرف الأب « كاتون » إلى « ماما » لدى المريكز « دانترمون » . وكان قد سمع من حفلاتنا الموسيقية في أحاديث القوم ، فأعرب عن رغبة في المساهمة فيها . وقد فعل ، فأكسبها بهجة ! وسرعان ما توثق ودنا بفضل ميلنا المشترك للموسيقى ، إذ كان هذا الميل — لدى كل منا — ولما متأججا ، وكان كل ما بيننا من فارق هو أنه كان موسيقيا موهوبا حقا ، في حين أنني لم أكن سوى متطفل على الفن ! وكنا نذهب فنعزف في غرفته ، مع « كانافا » والأب « باليه » ، كما كنا نعزف على أرغنه أحيانا في أيام الأعياد . وكثيرا ما كنا نتناول

غذاعنا على مائدته الصغيرة ، فقد كان — وهذا أبضا من دواعى العجب بالنسبة لراهب — كريما ، مغبدا ، نواقة للأطعمة فى غير نهم . وكان ، فى أيام حفلاتنا ، يتناول عشاءه فى دار «ماما» ، فكانت تلك المآدب كثيرة المرح والسرور ، يقال فيها كل ما يخطر بالبال ، وتلقى فيها الأغاني الثنائية . . بينما أسترسل أنا على سجيتى ، فأفدق الملح والطرائف . وكان الأب « كاتون » يبدو لطيفا ، و « ماما » تستأثر بالاعجاب ، بينما يغندو الأب باليه هدفا للضحك ، بصوته الذى يشبه خوار الثور ! . . أيتها اللحظات العذبة الحافلة بعيش الشباب ، لكم طال بك البعاد !

وبما أننى لن أعود إلى الكلام عن هذا الأب كاتون المسكين ، فإنى أوجز هنا قصته المحزنة فى كلمتين : فإن الرهبان الآخرين ، الذين كانوا يغارون منه — أو بالأحرى يحقدون عليه — إذ رأوا فيه كفاءة وخصالا حميدة ، ليس فيها من فساد الرهبان شيئا ، أوسعوه كراهية لأنه لم يكن بنفيسا مثلهم ! . . فاجتمع رؤساؤهم عليه ، وأوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه ، والذين لم يكونوا يجرؤون من قبل على التطلع إليه : ومناواته . . فرمى بألف إهانة ، وأقصى عن منصبه ، وانتزعت منه حجرته التى كان قد أثثها بأناقة وبساطة معا ، وحبسوه حيث لا أدرى . . وأخيرا ، أغرقه أولئك التعساء بوصفات لم تقو نفسه الشريفة الأبية — بحق — على احتمالها . وبعد أن كان بهجة أظرف المجالس ، مات أسى على فراش حقير (برش) ، فى ركن ما من « زنزانة » أو « جب » ، مأسوفا عليه

ومبكيا من جميع الاشراف الذين عرفوه ، والذين لم يجدوا فيه
اى عيب ، سوى انه كان راهبا !



وفى سياق هذه المعيشة ، لم البث ان غدوت — بعد امد
وجيز ، غارقا فى الموسيقى . والفيتنى بعيدا عن التفكير فى اى
شئ آخر ، ولم امد اذهب الى مكتبى إلا غصبا ، فقد أصبح
الارهاق والجهد الدائب يسببان لى عناء لا يطاق . . وانتهيت
أخيرا إلى الرغبة فى ترك منصبى ، لاكرس نفسى باكملها
للموسيقى ! وفى وسع المرء ان يتصور ان هذه الحماسة لم تقابل
بغير معارضة ، فإن ترك منصب شريف ، ودخل ثابت ، للجري
وراء تلاميذ غير مضمونين (١) ، كان نهجا خلوا من الحكمة ، بحيث
لم يكن يرضى « ماما » . . بل إننا إذا اقترضنا ان توفبقى المقبل
بلغ ما كنت أتصوره من ضخامة ، فإن ذلك كان يحد من طموحي
ويحصره فى نطاق متواضع ، إذ يهبط بى طوال العمر إلى مركز
الموسيقى (الموسيقىقار) . . واخذت تلك المرافة التى لم تكن
ترسم سوى أبداع الخطط ، والتى لم تعد تحكم على قط وفقا
لرأى السيد « دوبون » ، أخذت ترمقنى فى ألم وأنا أشغل جنيا
بموهبة كانت تراها غير مريحة ، وكثيرا ما كانت ترد لى ذلك
المثل الرينى الذى قل ما يصدق فى باريس : « ان الذى يتقن
الغناء ويحذق الرقص ، يتخذ لنفسه مهنة قل ان ترفع من
قدره » ! . . على أنها — من ناحية أخرى — كانت ترانى منساقا

(١) كان يعتزم ان يتكسب عيشه من تدريس الموسيقى .

ليل لا يقاوم ، فإن ولعى بالموسيقى غدا جنونا ، ومن ثم فقد حق لها أن تخشى أن يتأثر عملى من جراء انشغالى ، فيؤدى إلى أن أحرَم من منصبى ، وهو أمر كان من الخير أن أقدم عليه بنفسى (٢) . . ومرة أخرى ، بينت لها أن هذا المنصب لم يكن مقدرا له أن يدوم طويلا ، وأنه لابد لى من مهنة أكتسب منها عيشى ، وأن السعى إلى أن أكتسب بالمران حنقا للفن الذى كان ميلى يدفعنى إليه — والذى اختارته لى هى — أضمن من أن أضاع نفسى تحت رحمة من يولوننى حماهم ، أو أن أحاول عملا جديدا قد يجانبى فيه التوفيق ، وقد يدمنى — فى النهاية — بلا موارد لكسب عيشى ، بعد أن أكون قد تجاوزت سن التعليم ! . . وانتزعت أخيرا موافقتها ، بالفضب واللجاجة والملاينة ، أكثر منى بالحجج المقتعة ! . . فهرعت لفورى مقدما استقالتى إلى السيد كوتشيللى — المدير العام للمساحة — فى زهو وخيلاء ، وكأننى أقدمت على أكثر الأعمال بطولة . . وهكذا تركت منصبى طواعية ، دون ما داع ، ولا مذر ، ولا مبرر . . بل فى اغتباط يفوق اغتباطى يوم ظفرت به قبل عامين !

هذه الخطوة — برغم أنها كانت حماقة مطلقة — اكسبتنى فى البلاد نوعا من الاعتبار الذى أفسادنى . وظن البعض أننى استند إلى موارد لم أكن أملكها ، فى حين أن غيرهم قدسروا موهبتى على ضوء تضحيتى — وهم يروننى أنصرف بكل نفسى إلى الموسيقى — واعتقدوا ، إزاء كل هذا الولع بالفن ، أننى

(٢) أى أنه كان من الخير أن يستعمل بدلا من أن يتل !

ولابد على معرفة فائقة به . . . ولما كان الأعور ملكا في مملكة العميان ، فقد أخذنى القوم على أننى استاذ بارع ، لأنه لم يكن ثمة من المعلمين سوى الرديئين . . . وإلى جانب ذلك ، فبأننى لم يكن يعوزنى حذق الغناء — إلى درجة لا بأس بها — كما كنت مفضلا بسبب سننى وشمكى ، فسرعان ما أصبح لى من التلميذات أكثر مما كان يلزمنى لتعويض مرتبى كموظف كتابى !

ومن المؤكد أنه لم يكن بوسع امرئ أن ينتقل — فى سبيل الاستمتاع بالحياة — من أمر إلى نقيضه ، بأسرع مما انتقلت أنا . . . ففى المساحة كنت أمارس — ثمائى ساعات فى اليوم — أشد الأعمال كتابة ، مع أناس كانوا هم الآخرون أشد الناس كتابة ، حببسا فى مكتب مسمم بأنفاس وعرق كل هؤلاء الأجلاف الذين كان معظمهم بالغى القذارة ، مشعثين — حتى أننى كنت أشعر بدوار وغثيان لفرط الانتباه والرائحة والجهد والضيق أحيانا ! فإذا بى الآن ، بدلا من ذلك ، أجسدى أغوص فجأة فى المجتمع الراقى ، وأصبح مرفوبا ومنشودا فى خير البيوت ، أحظى بالحناة والملاطفة والإكرام فى كل مكان ، حيث ترتقب وصولى آتسعات لطيفات أنيقات ، ليستقبلننى فى تلهف . . . لا أدرى سوى الأتسباء الفاتنة ، ولا أثم سوى الورد وزهر البرتقال ، ولا أحاط إلا بالغناء والكلام والضحك واللهو . . . ولا أغادر بيتا إلا لأجد كل هذا فى بيت آخر . . . ولسوف يقرنى القارئ على أنه — وقد تساوت الميزات — لم يكن ثمة مجال للتردد فى الاختيار . والحق أننى رضيت من اختيارى إلى درجة أننى لم استشعر الندم قط . . . حتى فى هذه اللحظة ،

وأنا أزن أعمال حياتى بميزان العقل ، بعد أن تحررت من البواعث الفزقة التى كانت تحدونى إذ ذاك !

ولقد كانت هذه هى المرة الوحيدة - تقريبا - التى لم أطمع فيها سوى ميولى ، فلم يخب رجائى ! ولقد أدت الحفاوة السلسة ، والروح اللطيفة ، والطباع السهلة التى أوتيتها أهل تلك البلاد ، إلى جعل اتصالى بالدنيا أمرا مستحبا ، وقد كان الميل الذى تملكنى إذ ذاك نحو هذا كله ، دليلا أثبت لى بجلاء أنه إذا كان قد قدر لى إلا أحب العيش وسط الناس ، فحسب . كان هذا ذنبهم أكثر مما هو ذنبى !

ومما يؤسف له أن أهل (سافوا) ليسوا أغنياء - أو لعله كان أمرا أجدر بالأسف أن يكونوا أغنياء ! - ذلك أنهم ، على ما هم عليه ، خير من عرفت من الناس ، وأحسنهم معاشرة . وإذا كانت فى الدنيا مدينة صغيرة تقسنى فيها عذوبة الحياة ، فى وسط ملائم ومأمون ، فهذه المدينة هى (شامبرى) . . فإن الأسرات العريقة فى الإقليم ، التى تتجمع فى هذه المدينة ، لم تؤت إلا ما يكفيها للعيش ، دون ما زيادة . . وهم بحكم الضرورة - نظرا لعجزهم عن الإفراق فى طموحهم - يتبعون نصيحة « سينياس » (١) ، فيكرسون شبابهم للخدمة العسكرية ، ثم يعودون ليقتضوا شيخوختهم فى وطنهم بسلام . وبذلك يتقاسم

(١) كان « سينياس » وزير « بروس » ملك (ايبروس) - إحدى جزر

اليونان - وابن « أخيل » الذى قضى على طروادة ووضع خانمة للحرب الطروادية .

الشرف والحكمة حياتهم . أما نساؤهم فجماليات ، وجماليات بحق ، إذ أنهن يملكن جميعا ما يجعل للجمال قيمة ، بل وما يغنى عنه . ومن العجيب أننى — وقد قدر لى بحكم مهنتى أن أرى كثيرا من الشابات — لا أذكر أننى رأيت واحدة فى (شامبرى) لم تكن فاتنة ! . . قد يقال إننى كنت ميسلا لأن لراهن فائنات ، وربما كان فى هذا بعض الحق ، ولكنى لم أكن بحاجة إلى أن أضيف إليهن سحرا من خيالى . والحقيقة أننى لا أملك أن أفكر فى تلميذاتى الشابات دون أن أطرب . . وكيف أذكر هنا أبدعهن حسنا ، دون أن أتمثلن معى فى تلك الأيام الهائلة التى نعمنا بها ! . . تلك اللحظات البزيلة العذبة التى تمضيها معا ؟ . . كانت أولاهن الأنسة « دى ميلاريد » ، جارتى وأخت تلميذ السيد جايم . وكانت سمراء طروب ، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين ، ومجردة من كل نزق . وكانت — كمعظم لداتها — تميل إلى الفحافة ، ولكن عينيها اللامعتين ، وقوامها الأهيف ، وخلقتها الجذاب ، لم تكن فى حاجة إلى زينة كى تروق للأبصار . ولقد اعتدت أن أذهب إليها فى الصباح ، فأجدها عادة فى ثياب البيت ، لا يزين رأسها سوى شعرها الذى رفعتة فى إهمال ، وقد ازدان ببضع زهرات كانت توضع عند وصولى ، ثم ترفع عقب انصرافى ليتسنى تنسيق الشعر ! . . ولست أخشى فى الدنيا أكثر من شابة فى ثياب البيت ! — وتقل خشيتى هذه مائة مرة إذا كانت الفتاة فى كامل ثيابها ! — أما الأنسة « مانتون » ، التى كنت أذهب إليها بعد الظهيرة ، فكانت دائما فى كامل ثيابها ، وكانت هى الأخرى تحدث فى نفسى أثرا بالغ الرقة ، ولكنه من نوع مختلف . كان شعرها أشقر مغبر

اللون ، وكانت بالغة الظرف ، وبالغة الخجل ، ناصعة البياض ، ذات صوت صاف ، واضح ، موسيقى الرنين ، ولكنها لم تكن تجسر على رفعه . وكانت ثمة ندبة على صدرها خلفها حرق نشأ عن ماء مغلى . ولم يكن الوشاح الحريري الأزرق ليستر هذه الندبة تماما ، فكانت تجتذب انتباهى ، الذى لم يعد - بعد زمن قصير - ينحصر فى الندبة وحدها !

وهناك الأنسة دى « شال » ، التى كانت هى الأخرى من جاراتى . وكانت فتاة ناضجة ، وافية العود ، عريضة المنكبين ، تميل للبدانة . وكانت طيبة جدا . ومع أنها لم تكن جميلة ، إلا أنها جديرة بالذكرى لكرم خلقها ، واعتدال طباعها ، وطيبة سجيبتها . أما اختها السيدة « دى شارلى » - أجمل امرأة فى شامبرى - فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى ، ولكنها اتاحت التعلم لابنتها التى كانت لا تزال صغيرة ، والتى كان جمالها الناشئ يوحى بأنه سيضارع جمال أمها ، لولا أنها - لسوء الحظ - كانت ذات شعر ضارب إلى الحمرة . وكانت لى فى « دير الزيارة » آنسة فرنسية صغيرة (غاب عنى اسمها ولكنها جديرة بأن تحمل مكانا بين الأثيرات لدى) . وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة متتدة ، متراخية . . وبهذه اللهجة المتراخية كانت تلقى ملحا طريفة ، لا تبدو ملائمة لوقارها ! وفيما مدا ذلك ، كانت كسولا ، لا تحب أن تتجشم عناء إظهار ذكائها - إذ كان ذلك صنيعا لا تبيحه لكل امرئ! - ولم يخطر لها أن تولينى هذا الصنيع إلا بعد شهر أو اثنين من التدريس ، فقد شامت أن تجعلنى أكثر مواظبة على وافاتها ،

إذ إننى ما استطعت قط أن أحمل نفسى على الدقة فى المواعيد؛ كنت أحب دروسى اثناء قيامى بإلقائها ، ولكنى لم أكن أحب أن أقسر على حضورها ، ولا أن أكون مقيدا بموعد . . ففسد كان التقيد والانصياع أمرين لا أطيقهما ، بحيث كنا يحملانى على أن أكره السرور ذاته ! . . ويقال إن فى تركيا ، لدى «المحمديين» ، ينطلق فى الطرقات عندما يشرف النهار على الطلوع ، رجل يدعو الأزواج إلى أن يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم ، وإنى لخليق بأن أكون تركيا غير صالح فى هذا الموعد(١) .

كذلك كانت لى تلميذات من الطبقة الوسطى ، ومنهن واحدة كانت سببا غير مباشر فى تحول فى علاقاتى ، أرى أن أحدث عنه ، ما دمت ملزما بأن أروى كل شيء . كانت ابنة بدال (يقال) ، تدعى الأنسة « لار » . وكانت نموذجا كاملا لتمثال إغريقى ، حتى إننى كنت خليقا بأن أصفها بأنها أجمل فتاة رأيتها فى حياتى ، لو قدر للجمال الصادق أن يوجد بلا روح ولا حياة ! . . كان فتورها وبرودها وتجردها من الشعور ، تبلغ فيها درجة لا يصدقها العقل . وكان من المستحيل إرضاؤها ، كما كان من المستحيل إغضاها ، على السواء . وإنى لمقتنع بأنه لو قدر لأمريء أن يحاول العبث بها ، لتركته يفعل ، لا عن ميل ، وإنما عن بلاهة ! . . وهكذا كانت أمها — التى لم تشأ لها أن تتعرض للخطر — لا تفارقها لحظة . ولقد حاولت بفاية جهدها أن توقظ

(١) من المفهوم أن هذه نمرية من الفسريات التى شاعت فى أوروبا فى فترة

الحروب الصليبية . وقد كان كل مسلم يسمى تركيا .

مشاعرها ، إذ أتاحت لها دراسة الغناء ، وجاءت لها بمدرس شاب كى يعلمها .. ولكن دون جدوى .. وبينما كان المدرس يسعى لفتنة الابنة ، كانت الأم تسعى لفتنة المدرس ، ولكن أحدهما لم يكن أكثر توفيقا من الآخر ! .. كانت السيدة « لار » تجمع إلى نصيبها الطبيعى من الحيوية ، ما كان ينبغى لابنتها أن تحرزه ! كانت امرأة ذات وجه صغير ، يقظ ، عابس ، تفأثرت فيه آثار الجدرى . وكانت لها عينا صغيرتان ، شديدتا التالى ، يشوبيهما شيء من الاحمرار — لأنها كانت منحرفة الصحة باستمرار — وكنت أجد عند وصولى ، فى كل صباح ، قهوتي المزوجة بالقشدة . ولم يفت الأم قط أن تستقبلنى بقبلة تجيد طبعها على الفم ، فكنت — بدافع من الفضول — أتمنى لو أردتها إلى الابنة ، لأبين كيف تتلقاها ! .. على أن كل هذا كان يتم على صورة من البساطة وعدم التكلف ، بحيث كانت المغازلات والقبلات تأخذ مجراها كالمعتاد ، إذا ما كان السيد « لار » موجودا ! .. وكان رب الأسرة رجلا طيبا ، وأبا حقيقيا لابنته ، فما خدعته زوجته يوما ، لأنها لم تكن بحاجة إلى ذلك (١) !

وكنت ألقى هذه المغازلات بغبائى المعهود، مفسرا إياها على أنها إشارات للود الصادق ! .. على أننى كنت أتضايق أحيانا ، لأن السيدة « لار » لم تكن تغفل أداءها قط ! .. وكنت

(١) يقصد أنها لم تكن بحاجة إلى خداعه ، أما لأنها كانت تمارس التقبل أمامه ، وأما لأنها كانت تعجز عن اجتذاب الرجال وغم مغزلاتها .

إذا مررت خلال النهار بالحائوت دون أن أعرج عليه ، يخلق ذلك ضجيجاً . . فكنيت أضطر حين أكون في عجلة من أمري إلى أن أدور متخذاً طريقاً أخرى ، لفرط يقينى بصعوبة خروجى من لدن السيدة كما دخلت !

وهكذا كانت السيدة «لار» شديدة الانشغال بى ، بالقياس إلى عدم اهتمامى بها . ولقد أثرت في هذه الحفلات كثيراً . حتى أننى تحدثت عنها إلى « ماما » ، وكأنها أمر غير مستغرب . ولو كان فيها ما يستغرب لما كنت أقل حديثاً عنها . فقد كان كتمان أى سر عن هذه السيدة أمراً غير ممكن . كان قلبى مفتوحاً أمامها كما هو مفتوح أمام الله ! . . لكنها لم تتلق الأمر بمثل ما تلقينه من بساطة ، فقد رأت أن ما كنت أعتبره « مودة » ، إنما كان في حقيقته « مغالاة » ! . . وحدثت أن السيدة « لار » رأت من الكرامة ألا تدعنى غسراً كبيراً كما وجدتني ، فسعت — بشتى الطرق — إلى أن تكشف لى غايتها ! . . وكان لدى « ماما » من البواعث اللائقة بها ، ما جعلها ترفب في أن تعصمنى من الشراك التى كانت سننى وشكلى يعرضاننى لها ، فضلاً عن أنه لم يكن من الإنصاف أن تتولى امرأة أخرى تعليم تلميذها !

ثم نصب في طريقى شرك أخطر من المعتاد ! . . وبرغم أننى استطعت أن أنجو منه ، فإن هذا الشرك نبه « ماما » إلى أن الأخطار التى كانت تهددنى دون انقطاع ، أصبحت تستوجب كل الاحتياطات التى رأت أن تتخذها ! . . ذلك أن السيدة كونته « مانتون » — أم إحدى تلميذاتى — كانت امرأة واسعة الذكاء ،

عرفت بأنها أوتيت من الخبث ما لا يقل عن ذكائها . وقد تسببت
 — كما كان يقال — في كثير من المنازعات ، منها ما كان ذا عواقب
 مشئومة على أسرة « دانترون » . وكانت « ماما » على
 علاقة بها تكفى لأن تطلعها على أخلاقها ، فقد أولعت « ماما »
 — في براءة — بشخص كانت مدام دي « مانتون » قد بنت
 عليه آمالا ، فاتهمتها بالعدوان على إيثار كان موجهة إليها ،
 برغم أن « ماما » لم تفعل . . بل إنها لم تسع إلى هذا الإيثار ،
 ولم تتقبله ! . . ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام « مانتون »
 إلى تدبير عدة مكائد لغريمتها ، لم يقدر لاية مكيدة منها أن
 تنجح . وساروى واحدة من أكثرها إثارة للضحك ، على سبيل
 المثال : فقد كانتا مرة في الريف مع عدد من السادة — من
 الجيران — بينهم الشخص المذكور ، الذي كانت مدام
 دي « مانتون » تعلق عليه آمالها . وفي أحد الأيام ، قالت هذه
 لأحد السادة إن مدام دي فاران لم تكن سوى امرأة متحذقة ،
 وأنها عديمة الذوق ، لا تحسن ارتداء ثيابها ، وتحرص على أن
 تغطي عنقها كنساء الطبقة الوسطى . فقال السيد ، الذي كان
 مولعا بالمزاح : « أما عن هذه النقطة الأخيرة ، فإن لديها عنرا ،
 إذ أنني أعرف أن لديها ندبة كبيرة على شكل الفار البشع ،
 مطبوعة على صدرها ، وهي شديدة الشبه بالفار ، حتى ليقال
 إنها تجرى ! » . . والحب — كالبغضاء — يوحى بالتصديق ،
 لذلك اعتزمت مدام « دي مانتون » أن تستغل هذا الاكتشاف .
 وفي ذات يوم ، بينما كانت « ماما » تلعب الورق مع الشخص
 الذي جحد إيثار السيدة ، إذا بهذه الفرصة فتسلل إلى
 ما وراء غريمتها ، ثم توشك أن تقلب مقعدها لتزيح وشاحها عن

عنقها . . وبدلاً من أن يرى السيد غاراً كبيراً ، رأى شيئاً على النقيض تماماً ، لم يكن نسيانته بأسهل من مشاهدته ! . . وهذا ما لم يكن في حسابان السيدة !

وبرغم أنني لم أكن بالشخصية التي تشغل بال مدام « دى مانتون » ، التي لم تكن تبغى حولها سوى اللامعين ، فإنها أولتني بعض الاهتمام ، لا من أجل شكلي - الذي لم يشغلها البتة بالتأكيد - وإنما من أجل ذكائي المزعوم ، الذي كان من المحتمل أن يجعلني ذا نفع لها . . فلو كانت مخدمة الميل للهجاء ، وكانت تحب نظم الأغاني والأشعار في هجو الذين لا يروقون لها . . فلو أنها وجدت لدى كفاءة كافية لمعاونتها في نظم أشعارها ، واستعداداً كافياً لكتابتها ، لكان في وسعنا - غيها بيننا - أن نقيم (شامبيري) ونقعدنا ! . . وكان في الوسع طبعاً الاهتمام إلى مصدر هذه الهجائيات ، وإذا ذاك كانت السيدة « مانتون » كفيلة بأن تتصل من المسألة بأن تضحي بي ، فيلقى بي في السجن . . ولعلني كنت أمكث فيه بقية عمري ، لأنني قمت بدور « فيبوس » (١) مع السيدات !

لكن شيئاً من كل هذا لم يحدث - لحسن الحظ - فقد استبقتني مدام « دى مانتون » مرتين أو ثلاثاً للفداء ، لتستدرجنني في الحديث ، فألفت أنني لم أكن سوى أبله ! وكنت

(١) فيبوس : من أسماء أبوللون إله الضحاة والحب والنسر والموسيقى عند الرومان . . كما أنه كان إله النهار والشمس ، ومنها اشتق اسم « فيبوس » . وهو ابن الإله « جوبيتر » رب الأرباب وأبوه لدى الرومان .

— أنا نفسى — أشعر بذلك ، واتحسر له ، وأغبط صديقى « فينتور » على مواهبه ، فى حين أننى كنت جديرا بأن أحمد غبائى إذ أنقذنى من المخاطر ! وهكذا ظلت — بالنسبة لـدام مانتون — المدرس الذى يلقن ابنتها الموسيقى ، لا أكثر . . ولكنى عشت فى أمان ، وظللت مرغوبا فى (شامبرى) . وهذا أفضل من أن أكون نكيا — فى نظرها — وأفعوانا فى نظر بقية القوم !



وإذ كان الأمر على هذه الشاكلة ، فقد رأت « ماما » — لانتزاعى من مخاطر شبابى — أن الوقت قد حان كى تعاملنى كرجل ، وهذا ما فعلته . . ولكن ، بأغرب طريقة فذة خطرت لامرأة فى ظروف مشابهة : فقد وجدتيا أكثر جدية فى مسلكها ، وأكثر أدبا فى قولها ، مما عهدتها . . واستبدلت — للفور — بالمرح الملجن الذى اعتادت أن تمزجه بتعاليمها ، لهجة متحفظة على الدوام ، لم تكن مألوفة ولا قاسية ، ولكنها كانت تشسبه التمهيد لشرح ما ! . . وبعد أن بحثت عبثا ، فى أطراء نفسى ، عن سبب لهذا التحول ، سألتها . . وكان هذا ما تنتظره ، فإذا بها تقترح أن نخرج للنزهة فى البستان الصغير فى اليوم التالى ، نذهبا إليه منذ الصباح . وكانت قد اتخفت من الإجراءات ما يكفل بقاءنا وحيدين طوال النهار الذى استغلته فى إعدادى للنعم التى شاعت أن تفدقها على . . لا بالمغازلات والإغواء — كما تفعل أية امرأة أخرى — وإنما بأحاديث مفعمة بالعاطفة والحكمة ، قصدت بها إلى تعليمى أكثر مما قصدت إلى اغوائى ،

وكانت تنفذ إلى قلبي أكثر مما تنفذ إلى حسي ! ومع ما كانت عليه هذه الأحاديث من بهاء ونفع ، وبالرغم من أنها لم تكن سوى أحاديث غائرة حزينة ، إلا أنني لم أولها كل ما كانت تستحق من انتباه ، ولا نقشتها على ذاكرتي كما فعلت في كافة الأوقات الأخرى . . بل ان استهالها - ذلك المسك التمهيدى - بلبل فكرى ، فجعلنى أحلم وأشرد - بالرغم منى - وهى تتكلم . . وغدوت أقل اهتماما بما كانت تقوله ، منى بالبحث عما كانت تبغى الوصول إليه ! . . وما أن فهمت - وهو ما لم يكن بالسهل على - طرافة الفكرة التى لم تجل أبدا بخاطرى ، طيلة الوقت الذى عشته معها ، حتى تملكتنى الفكرة تمسما ، فلم أعد قادرا على التفكير فيما كانت تقوله لى «ماما» . . لم أعد أفكر إلا فيها هى وحدها ، دون أن أنصت إليها !

إن الرغبة فى حمل الشباب على الإصغاء لما يراد قوله لهم ، باطلاعهم مقدما على غاية جد مشوقة لهم ، أسلوب معكوس ، وإن كان جسد مألوف لدى المعلمين ، حتى لقد عجزت - أنا نفسى - عن تحاشيه فى كتابى «اميل» . فإن الشاب إذ يؤخذ بالغاية التى يوعد بها ، يشغل بها وحدها ، ويتخطى فى تسرع أحاديثك التمهيدية ، ليصل مسرعا منذ البداية إلى الغاية التى تسعى به إليها فى بطن بالغ - حسبما يرى هو - أما إذا أريد الاستحواذ على انتباهه ، فيجب ألا يمكن من أن ينفذ إلى الغاية مقدما ، وهذا ما أسأعت «ماما» تقديره . فبطريقة فذة تتمشى مع عقلها المنسق المنتظم ، عمدت إلى احتياط لا طائل منه قط ، إذ فرضت شروطا . ولكنى لم أكد أتبين جزاء هذه الشروط ،

حتى انصرفت عن سماعها ؛ وبادرت إلى الموافقة على كل شيء .. بل إننى لأشك في وجود رجل في الدنيا يقوى — مهما تكن أمانته وجلده — على المساومة في مثل هذه الحال ؛ وفي وجود امرأة واحدة تقبل أن تغفر له ذلك إذا فعله ! .. وكنتيجة لطريقتها الفريدة ، وضعت «ماما» في هذا الاتفاق أشد قيود أدبية ، ومنحتني ثمانية أيام أفكر خلالها .. وهى مهلة أكدت لها — كذبا وزورا — أننى لم أكن بحاجة إليها .. فالواقع أنه مما زاد من غرابة الموضوع ، وبلغ بها فروتها ، أننى كنت جد مغتبط بتقبل هذا المشروع ، بقدر ما أذهلتنى طرافته ، ويقدر ما شعرت بانقلاب في أفكاري ، كان يتطلب منى وقتا لتنظيمها !

ولقد يخال أن هذه الأيام الثمانية بدت لى كثمانية قرون ، ولكن الأمر كان على النقيض ، فلقد تمنيت لو أنها امتدت فعلا إلى هذا الأجل ! .. ولست أدري كيف أصف حالى ، فقد كانت لونا من الجزع الممزج بنفاد الصبر ، إذ كنت خلالها جزعا مما كنت أتوق إليه ، إلى درجة أننى فكرت جديا — في بعض الأوقات — في وسيلة مهينة لتفادى الهناء الموعود ! .. وتصور طبيعى المتهورة النزقة ، ودمى الفائر ، وقلبي المنتشى بالحب ، وصحتى الموفورة ، وسنى ! .. وتذكر أننى في هذه الحال ، وفي ظمنى إلى النساء ، لم أكن قد مسست بعد واحدة منهن ! .. ومن هنا فإن الخيال ، والحاجة ، والغرور ، والفضول ، تجمعت كلها لتذكى في نفسى رغبة نهمة متأججة في أن أكون رجلا ، وفي أن أثبت أننى رجل ! .. يضاف إلى ذلك — وهذا أمر يجب ألا يغفل — أن تعلقى الحنون ، المحتدم ، بهما ، كان

بعيدا عن التضاؤل ، بل إنه راح يزداد اتقادا يوما بعد يوم ،
حتى لم أعد أهنا إلا بقسريها ، وحتى أننى لم أكن أغارقها
إلا لأفكر فيها ، وحتى أن قلبى كان مترعا ، لا بطيبتها ولطفها
غضب ، وإنما بجنسها ، وشكلها ، وشخصها . . وبإيجاز :
بها ، بجميع الاعتبار التى كانت تجعلها عزيزة على ! . .
ولا يخطرن بالبال أنها كانت قد اكتهلت ، أو بسدت لى مكتلة
لأننى كنت أصغرها بعشر أو اثنتى عشرة سنة ، فالواقع أنها
لم تتعرض إلا لتغيير بسيط ، بل أنها — فى نظرى — لم تتغير
البتة خلال السنوات الخمس أو الست التى كنت أغيب فيها
فى نوبات من النشوة ، من سحر النظرة الأولى ! . . كانت تبدو
لى مائنة دائما ، وكان كل امرئ يعتبرها كذلك ، فى تلك
الآونة . . كل ما هنالك أن قوامها وحده ازداد بدانة ، بعض
الشيء . وفيها عدا ذلك ، فإنها احتفظت بنفس العين ، ونفس
البشرة ، ونفس الصدر ، ونفس الملامح ، ونفس الشعر الأشقر
الجميل ، ونفس المرح . . وبكل شيء ، حتى صوتها ، ذلك
الصوت الشاب ذى الجرس الفضى ، الذى كان له دائما تأثير
كبير على نفسى ، حتى أننى لا أستطيع — إلى اليوم — أن أسمع
رنين صوت عذب لفتاة شابة ، دون أن أتأثر به !

ومن الطبيعى أن الأمر الذى كان لى أن أخشاه خلال
انتظار الظفر بامرأة حبيبة كهذه ، هو التعجل وعدم المقدرة على
ضبط شهواتى بدرجة كافية ، فأصبح خيالى مسبطرا على .
ولسوف ترى أن مجرد التفكير فى بعض الأفضال الطفيفة التى
كانت ترتقبنى بالقرب من الحبيبة — فى سن متقدمة — كانت

تلهب دمي إلى الدرجة التي يستحيل على عندها أن اجتاز دون عناء الفارق القصير الذي كان يفصل بيني وبينها . فكيف كان يتسنى لي - وأنا في عنفوان الشباب - أن أشعر بشوق قليل إلى المتعة الأولى ؟ .. وكيف قدر لي أن أرقب ساعة القرب ، بألم أكثر منى بابتهاج ؟ .. كيف حدث أنني شعرت بنفور وخوف تقريبا ، بدلا من أن أشعر بالمباهج التي كانت خليقة بأن تسكرني ؟ لا شك في أنني لو كنت قد استطعت الفرار من هنائي - بطريقة مهذبة - لفعلت بكل قلبي .. ولقد وعدت بأن أروي عجائب في تاريخ تعلقى بها ، وهذه - بلا شك - عجيبة لم تكن متوقعة إطلاقا !

ولا شك أن القارئ يرى - في استنكار - أنها وقد استسلمت لرجل غريب ، قد حطت من قدرها في نظري وهي تشركني مع هذا الرجل ، وأن الشعور بعدم التقدير لها خلق بأن يكون قد هدا من سورة تلك المشاعر التي الهمتها .. ولكن القارئ يخطئ في هذا الظن ، فإن هذا الإشراك كان قاسي الإيلام لي حقا .. وكان هذا راجعا إلى رقة مشاعري بطبيعتها ، بقدر ما كان ناشئا عن أنني وجدت الأمر غير لائق بها ولا بي في الواقع . وبوسعي أن أقسم بأنني لم أكن مشغوبا بحبها يوما قدر ما شغفت عند ما كنت قليل الرغبة في الظفر بها ، فلقد كنت أعرف عن قلبها الطاهر ، ومزاجها الجليدي ما يعصمني من أن أظن لحظة أن للذة الحسية دخلا في هذا الإقدام منها على أن تمنحني نفسها ! .. وإيها كنت مقتنعا - تمام الاقتناع - وإن مجرد الاهتمام بتجنيبي مخاطر لم يكن من سبيل سوى

هذا لتفاديها ، ويصونى من أجل نفسى وواجباتى بحسب ، هو الذى جعلها تأخذ على عاتقها « واجبا » لم تكن تنظر إليه نظرة غيرها من النساء ، كما سابىن فيما بعد . ولقد اشتغلت عليها ، كما اشتغلت على نفسى ، ووددت لو أقول لها : « لا يا ماما ، لا ضرورة لهذا ، سأردع نفسى بدون هذا » . . ولكنى لم أجسر ، أولا : لأن هذا لم يكن بالشئ الذى يقال ، وثانيا : لأننى شعرت فى قرارتى بأن هذا غير صحيح ، وأنه ليست ثمة سوى امرأة واحدة تملك — فى الواقع — أن تصوتنى عن بقية النساء ، وأن تعصمنى من الفوايات . وكنت — دون أن أشتى الظفر بها — جد مسرور لأنها كانت تصدنى عن اشتهاؤ الظفر بالآخرىات ، إلى درجة أننى رحت أعتبر كل ما يشغلنى عنها لونا من النحس والشقاء !

ولقد كانت الفتنا الوثيقة ، ومعاشرتنا البريئة ، أبعد من أن توهم مشاعرى نحو « ماما » ، بل إنها عززتها ، ولكنها — فى الوقت ذاته — اتجهت بها اتجاهها جديدا ، فجعلتها أكثر وجدا ، وربما أكثر هيما ، ولكنها كذلك أقل شهوة . وبحكم مناداتى إياها بهما ، وبحكم معاملتها بالفة الابن ، اعتدلت أن اعتبر نفسى بمثابة ابنها ! واعتقد أن هذا كان السبب الحقيقى فى قلة تعجلى للظفر بها ، برغم أنها كانت جد حبيبة لى . وإنى لا أذكر بجلاء أن أحاسيسى الأولى كانت أكثر شهوانية ، دون أن تكون نشيطة متحفزة . فكنت فى (أنيسى) نشوانا ، ولكنى لم أعبد كذلك فى شامبيرى . ومع أننى ظلت أحبها دائما بكل وجد ممكن ، إلا أننى ازددت حبا لها لذاتها ، كما غدوت أقل حبا لها



وبحكم مناداتي أياها بماما ، وبحكم معاملتها بالفة الابن ، اعتدت أن
أعتبر نفسي بمثابة ابنها !

من أجل نفسى ، أو اننى لم أعد - على الأقل - أسعى إلى هنائى بقدر ما كنت أسعى إلى استمتاعى بقربها . كانت - بالنسبة لى - أكثر من أخت ، وأكثر من أم ، وأكثر من صديقة ، بل وأكثر من عشيقة ، ولهذا السبب بالذات ، لم تكن عشيقة ! .. وبإيجاز : كنت أحبها إلى درجة تجعلنى لا أستهيبها .. وهذا أوضح ما فى آرائى وأفكارى !

وحان أخيراً اليوم الذى كان مرهوباً ، أكثر منه مرغوباً ! .. ووعدت بكل شيء ، فلم أنكث بوعودى . ولقد عزز قلبى عهدى دون أن يطمع فى جزاء . ومع ذلك فإننى ظفرت بالجزاء . ورايتنى للمرة الأولى فى أحضان امرأة ، وامرأة كنت أعبدها .. أفكنت سعيداً ؟ .. لا ! .. لقد تذوقت اللذة ، ولكن شعوراً بأسى طاغ سقم سحرها ، فكنت وكأئننى ارتكبت جريمة الزنا مع إحدى المحرمات .. ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو ثلاثاً ، وأنا أضمرها بين ذراعى فى وجد .. أما هى ، فلم تكن حزينه ولا مرحة ، وإنما كانت حنوناً وساكنة . ولما كانت على قدر ضئيل من الحس الشهوانى ، ولم تكن تنشد اللذة الحسية قط ، فإنها لم تشعر بالمتعة ، ولا عانت الندم إطلاقاً !

وإنى لأكرر أن كل زلاتها ترتبت على أخطائها ، وليس من شهواتها قط . . كانت طيبة المنبت ، وكان قلبها طاهراً ، وكانت تحب الأمور الشريفة ، كما كانت كل ميولها مستقيمة سالحة ، وذوقها رقيقاً .. ولقد نشأت على لطف الشمائل ، وهو ما كانت تحبه دائماً ، وإن لم تتبعه قط ، لأنها بدلا من أن تنصت إلى قلبها - الذى كان يرشدها إلى الصواب - كانت تصغى إلى

عقلها الذى كان يخطئ في إرشادها ! . . . وعندما كانت المبادئ الزائفة تضللها ، كانت المشاعر الصادقة تكذب هذه المبادئ دائما . ولكن ماها كانت - لسوء الحظ - تخضع نفسها بالفلسفة ، وقد أدت المبادئ الخلقية التى استمدتها منها ، إلى إفساد المبادئ التى كان قلبها يملئها عليها !

وكان السيد «دى تافيل» - مشيقتها الاول - هو استاذها في الفلسفة ، وكانت المبادئ التى لقنها إياها هي تلك التى وجدها ضرورية لاغوائها! فلقد وجدها ونية لزوجها ولواجباتها، قاترة دائما ، مفكرة ، منيعة على الأحاسيس الشهوانية ، فعمد إلى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات . وانتهى إلى إقناعها بأن واجباتها - التى كانت متشبثة بها - لغو من تعاليم الدين التى وضعت خصيصا لتسلية الاطفال ، وأن الاتصال الجنىس - في حد ذاته - هو اقل التصرفات أهمية ، وأن الوفاء الزوجى محض التزام ظاهرى ، كل قيمته الخلقية مجرد رأى ! . . . وأن راحة الأزواج هي الأصل الوحيد لواجبات النساء، ومن ثم فإن الخيانات المجهولة - التى لا يكون لها اثر لدى من ترتكب ضدهم، لأنهم لا يدرون بها - لا اثر لها على الضمير كذلك ! . . . ومجمل القول انه اقنعها بأن الأمر لا قيمة له في حد ذاته ، وأنه لا يكون ذا شأن إلا إذا افترض ، وأن كل امرأة تبدو فاضلة إنما تدين بمظهرها الفاضل لهذا السبب وحده . وهكذا وصل الوغد إلى غايته ، فافسد عقل طفلة ، ولكنه لم يقو على إفساد قلبها ! . . . ولقد عوقب على ذلك بأعنى ألوان الغيرة ، إذ اعتقد انها كانت تعامله كما علمها ان تعامل زوجها ! ولست أدري ما إذا كان

على خطأ فى ذلك ، فإن الراهب « بيريه » خلفه فى علاقته بها .
 إنما الذى أدريه ، هو أن الطبع البارد الذى أوتيت به هذه المرأة ،
 والذى كان خليقا بأن يعصمها من هذا المسلك ، كان هو عين
 ما منعها ... بعد ذلك ... من أن تنبذه ! .. فما قدر لها أن تحرك
 أن الناس تخلق أهمية على الشيء الذى لا قيمة له لديها ،
 وما وجدت قط ... باسم الفضيلة ... زهدا لا يكبدها سوى جهد
 بسيط !

على أنها لم تسيء قط استغلال هذه المبادئ الزائفة من
 أجل نفسها ، وإنما استغلتها من أجل الغير ، وكان ذلك من جراء
 نظرية تعادل تلك المبادئ زيفا ، وأن تمشت مع ما فطر عليه
 قلب السيدة من طيبة . فلقد كانت تعتقد دائما أن لا شيء
 يربط أى رجل بامرأة سوى ظفريه بآربه منها . ومع أنها لم تكن
 تحب أصدقائها إلا بدافع من المودة ، فإن مودتها كانت من
 اللطف والرقّة بحيث أنها كانت تستخدم كل وسيلة ممكنة
 لتوثق ارتباط هؤلاء الأصدقاء بها . . . والغريب فى الأمر أنها
 كانت توفق فى بلوغ غايتها باستمرار تقريبا . فقد كانت حبيبة
 حقا ، حتى أن المرء كلما عظمت الألفة التى يعيش عليها معها ،
 ازداد اكتشافا لأسباب جديدة تدفعه إلى حبها . وهناك أمر
 آخر جدير بالملاحظة ، هو أنها بعد ضعفها الأول ، لم تكن تخلق
 أفضلها الناعمة قط إلا على البائسين . وكان اللامعون يفقدون
 ... سدى ... العناء الذى يتكبّدونه للوصول إليها ، ولكن ... إذا
 ما بدأت تشعر بالإسفاق يوما على رجل ، فلا بد من أن يكون
 هذا الرجل قليل الجدارة بالحسب ، إذا هى لم تنته إلى أن

تجبه ! .. وكانت إذا أقدمت على اختيار أشخاص يليقون بها ، لا تصدر فى اختيارها عن الميل الخسيسة التى لم تكن قط تقارب مؤادها النبيل ، بل إنها لم تكن تصدر إلا عن خلقها المفرط الكرم ، المفرط الرحمة ، المفرط الحُسن ، المفرط الحساسية .. هذا الخلق الذى لم تكن تحكمه دائماً بحكمة وبصيرة كافيتين !

وإذا كانت بعض المبادئ الزائفة قد غررت بها ، فكم من مبادئ رائعة اعتنقتها ، فلم تتخل عنها قط ! .. وبكم من الفضائل كفرت عن نواحي ضعفها ، إذا جاز للمرء أن يطلق هذا الاسم على أخطاء لم يكن للإدراك فيها نصيب يذكر ! .. بل إن هذا الرجل الذى غشها فى ناحية ، أحسن تعليمها فى ألف ناحية أخرى . ثم إن عواطفها — التى لم تكن متأججة مندفعة — كانت تتيج لها أن تتبع دائماً أضواء العقل ، فكانت تسلك جادة الصواب عندما لا تضللها السفسطة .. كانت دوافعها حميدة ، حتى فى أغلاطها ، وكانت آراؤها الزائفة كفيلة بأن تدفعها إلى الزلل ، ولكنها لم تكن تقوى على الزلل عن رغبة وطواعية .. كانت تكره الرياء والكذب ، وكانت منصفة ، عادلة ، شفوقة ، منكرة لذاتها ، ومنية لوعدها ولاصدقائها ولواجباتها — التى كانت تعترف بأنها واجبات — عاجزة عن الانتقام والبغضاء ، دون أن تكون لديها أقل فكرة من أن فى الصنع أية ميزة أو فضيلة ! .. وأخيراً ، لو أننا عدنا إلى تلك الخصال التى لم يكن لها فيها عذر يذكر ، نجد أنها لم تكن تدرك كيف تقدر قيمة الفضائل الناعمة التى كانت تطلعها على من يقع عليها اختيارها ،

ولا كانت تتخذ منها مادة للتجار أو المساومة . . كانت سخية في إغداق هذه الأنصاف ، ولكنها أبدا لم تكن تبيعها ، بالرغم من أنها كانت في شغل دائم بموارد العيش . . وإني لأجرؤ على القول بأنه إذا كان سقراط قد استطاع أن يحترم «أسباسيا» (١) فإنه كان قميئا بأن يحترم مدام دي غاران !

وإني لأعرف مقدما أنني إذ أصفها بالشخصية الحكيمة ، والطبيعة الباردة ، سوف اتهم بالتناقض كالمعتاد ، ويحق . ولكن من الجائر أن الطبيعة قد أخطأت ، وأن اجتماع هاتين الخليتين ما كان يجب أن يوجد . ولكني لا أعرف سوى أنه قد وجد فعلا ! . . إن كل الذين عرفوا مدام دي غاران — ومنهم عدد كبير لا يزال على قيد الحياة — يعلمون أنها كانت كذلك . بل إني لأجرؤ على أن أضيف أنها لم تعرف سوى متعة واحدة من المتع الحقيقية في الحياة ، وتلك هي : تيسر الاستمتاع بالحياة لأولئك الذين كانت تحبهم . ومن المباح لكل امرئ أن يناقش ما تقدم بحرية تامة ، وأن يثبت عن علم ودراية أنه غير صحيح . إن مهمتي هي أن أقول الحق ، ولكن ليس أن أحمل الناس على تصديقه !

ولقد ألمت شيئا فشيئا بكل الذي قلته ، خلال الأحاديث التي أعقبت اتحادنا (٢) ، والتي كان لها وحدها الفضل في جعل

(١) أسباسيا : كانت عشيقة بريكليس السياسي الأثيني ، في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد وقد كان سالونها ملقى اللامعين من بكتامر أثينا .

(٢) يفسد العلاقة الجنسية التي قامت بينه وبين مدام دي غاران .
(م ٨ - اعترافات - ج ٢)

هذا الاتحاد عذبا . ولقد كانت على حق إذ داخلها الأمل في أن يكون صانعها ذا نفع لى ، فقد أفدت منه في تعلمى فوائده كثيرة : نتقد كانت « ماما » — حتى ذلك الوقت — تتحدث إلى كما لو كنت طفلا ، ولكنها بدأت تعاملنى كرجل ، فحدثتنى عن نفسها . وكان كل ما قالت لى مشوقا ومثيرا لاهتمامى ، فتأثرت به إلى درجة أنني كنت — إذا ما استعدت له لنفسى — أخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها . ونحن عندما نشعر أن محدثنا إنما يتحدث من مؤاده ، تتفتح قلوبنا لتلقى اعترافاته . . . وإن يقدر لكل ما لدى أى مدرس من علم ، أن يصل إلى مرتبة الثروة العاطفية الناعمة التى تفيض من امرأة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه !

ولقد هيات لها ظروف الألفة الوثيقة التى عشت فيها معها، فرصة تكوين رأى عنى ينطوى على مزيد من التقدير من ذى قبل . . . كانت ترى أننى — على الرغم من خجلى وتقاعسى — أهل لأن أدرب على الحياة ، وأننى لو ظهرت يوما في مستوى معين ، لتسنى أن أصبح في مركز يمكننى من أن أشق طريقى . وبهذه الفكرة ، كرست نفسها لا لتشكيل وعيى فحسب، وإنما لصوغ مظهرى ومسلكى كذلك ، حتى تجعلنى جديرا بالحب وبالتقدير معا . وإذا صح أن النجاح في الدنيا يقترن بالفضيلة — وهو ما لا أؤمن به من ناحيتى — فإننى مقتنع ، على الأقل ، بأنه لم تكن ثمة وسيلة تؤدي إلى مثل هذه الغاية سوى تلك التى اتخفتها « ماما » ورغبت في أن تظننى إياها ! . . . فلقد كانت مدام دى فاران تفهم الجنس البشرى ، وتفهم — إلى درجة

عالية — فن التعامل مع الناس دون خداع أو تهور ، ودون غش أو إساءة ، ولكنها كانت تلقن هذا الفن بشخصيتها أكثر منها بدروسها ، وكانت أكثر معرفة بممارسته منها بشرحه ، وكنت أنا — دون رجال العالم طرا — أقلهم قابلية لأن اتعلمه . . . ومن ثم فقد كانت محاولاتها — في هذا الاتجاه — جهودا مضیعة ، وكذلك كان حال كل ما تجشمته لتزودنى بأسسائذة للمبارزة والرقص . ومع أننى كنت لذن العود ، حسن القوام ، إلا أننى لم اتعلم قط كيف أرقص ، ولو لدقيقة واحدة ، فلقد اعتدت — بفضل البثور (الكالو) — أن أسير على كعبى قدمى ، وهى عادة لم يستطع «روش» أن يشغنى منها . وبالرغم من خفة مظهرى ، فإننى لم أكن قادرا يوما على أن أقفز عبر حفرة عادية . وكنت حالى أنكى فى مدرسة المبارزة . فقد ظللت — بعد ثلاثة أشهر من الدراسة — مضطرا إلى أن اقتصر على الصد والمراوغة ، بعيدا من أن أقوى على الهجوم . . كما أننى لم أوت قط رسفا لينة أو ذراعا ثابتة ، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للاستاذ أن يطوح بها . أضف إلى ذلك أننى أوتيت تنورا قاتلا من هذه الرياضة ، ومن المدرس الذى كان يحاول أن يعلمنيها . فها كنت قط بان من المستساع الفخر بفن قتل أى إنسان ! . . ولكى يدخل المدرس علمه الواسع فى ذهنى ، اعتاد ألا يشرحه إلا بمقارنات مقتبسة من الموسيقى ، التى لم يكن يلم بشيء منها ، فوجد أوجها لتشابه عجيب بين أبعاد الثلث والربع (١) ، وبين

(١) من مصطلحات أبعاد الخطوات فى المبارزة .

المسافات الموسيقية التى تحمل الاسم ذاته . وكان إذا أراد أن يقوم بحركة خادعة ، دعائى إلى أن انتبه إلى (AS DIESE) ، لأن النغمات الحادة كانت تسمى قديما (DEFIENTES) .. وإذا أراد أن يطوح بشيئى من يدي ، قال ضاحكا إن هذه « وقفة » .. وقصارى القول ، أننى لم أر فى حياتى متعالما (٣) لا يطاق ، أكثر من هذا المسكين ، بريشته وصدارته الجلدية ..

ومن ثم فإن تقدمى فى تدريباتى كان بسيطا ، حتى أننى لم ألبث أن هجرتها لمجرد كراهيتى لها ، ولكنى أحرزت تفوقا فى من أكثر نفعا ، هو : القناعة بحظى ، وعدم الطمع فى نصيب أشد بريقا ، كنت قد بدأت أشعر أننى لم أخلق له ! .. وإذا كنت منصرفا بكل نفسى إلى الرغبة فى إتاحة حياة سعيدة لهما ، فإتنى كنت أحس دائما بمزيد من الغبطة فى قربها .. ولما كانت دروسى الموسيقية كثيرا ما تضطرنى إلى البعد عنها لأهرع إلى المدينة ، فإتنى بدأت — برغم شغفى بالموسيقى — أشعر بضيق من هذه الدروس !

ولست أدري ما إذا كان « كلود آتيه » قد لاحظ توثق علاقتنا ، وعندى ما يحملنى على الاعتقاد بأن هذا لم يخف عليه ، لقد كان متى شديد الذكاء ، ولكنه كان شديد التكتم ، لا يتحدث

(١) علامة من علامات الموسيقى ترمع العلاقة التى تليها بنفس مقام .

(٢) المعنى اللغوى يخدع أو يغريز .. وفى الموسيقى نغم حاد ..

(٣) المتعالم هو الذى يدمى العلم

قط بما يناقض تفكيره ، بيد أنه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائما .
ومع أنه لم يبد أنه يادرة عن علمه بالأمر ، إلا أنه أظهر هذا العلم ، بمسلكه . . وما كان هذا المسلك صادرا عن خسة نفس ، وإنما عن امتناع لمبادئ سيدته ، مما لم يكن يملك معه أن يستهجن تصرفها وفقا لهذه المبادئ . ومع أنه كان أصغر منها سنا ، إلا أنه كان من النضوج والوقار ، بحيث أنه نظر إلينا كما لو كنا طفلين جديرين بالإشفاق والتسامح ، بينما رحنا ننظر إليه كرجل محترم ، نكن له تقديرا ومراعاة . . وما أدركت مدى العلاقة التي كانت بينه وبينها ، إلا بعد أن خانتبه . ولما كانت تعلم أنني لم أكن أفكر إلا بفكرها ، ولا أشعر إلا بشعورها ، ولا أتنفس إلا عن طريقها ، فقد أطلعتني على مدى حبها له ، حتى أكن له نفس المحبة ، وكانت أقل إسهابا في بيان ودها ، منها في بيان تقديرها له ، فقد كان هذا هو الشعور الذي أستطيع أن أشاركها إياه كل المشاركة . وكم من مرة هنت بقلبينا ... أنا وهو ... وجعلتنا نتعاقق باكيين ، إذ راحت تقول لنا إننا لازمان معا لإسماد حياتها ! . . ألا ليت اللاتي يقرآن هذا لا يبتسمن في خبث ! . . فإن طباسع السيدة كانت تجعل هذه الضرورة أمرا لا مرية فيه . . كانت ضرورة نابعة عن مؤادها محسب !

وهكذا قامت بين « ثلاثنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! . . كانت جميع أمانينا ، وميولنا ، وقلوبنا مشتركة ، وما كان أي منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة . وأصبح اعتياد العيش معا ، والحياة في معزل عن الدنيا ، من القوة

بحيث أن كل شيء كان ينقلب فى انظارنا إذا غاب واحد من ثلاثتنا عن المائدة ، أو شاركنا الوجبات رابع ! .. وبالرغم من الروابط الخاصة التى كانت بيننا ، فإن الخلوات بين أى اثنين منا لم تكن فى حلاوة اجتماع ثلاثتنا .. وكان الذى حسال دون أى توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة ، والذى عصمنا من الملل هو أننا كنا جد مشغولين ، إذ كانت « ماما » لا تنفك بتكر المشروعات ولا تكف عن العمل ، ولا تسمح لأى منا بأن يركن إلى الخمول .. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص ما يكفى لملء أوقاتنا . وفى رأى أن البطالة ليست أقل من الوحدة إفسادا للجماعة ! .. وليس ادعى لتضييق الأفق ، ولا أكثر مدعاة للتفاهة ، واللغو ، والاحقاد ، والمنغصات ، والاكاذيب ، من أن تمكث جماعة — إلى الأبد — بين جدران غرفة واحدة ، متقابلين ، وليس لديهم من عمل سوى الثرثرة باستمرار ! .. فإنه إذا كان لدى كل امرئ ما يشغله ، فهو لن يتكلم إلا إذا كان لديه شيء يقال . أما إذا لم يكن لديه عمل ، فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام بلا انقطاع ، وهذا ادعى الأمور للضجر وخطرها ! .. بل إنى لأجرو على أن أذهب إلى أبعد من هذا ، فأقول إنه لابد — لجعل أية صحبة ملائمة حقا — من أن يقوم كل امرئ لا بعمل أى كان ، فحسب ، وإنما بعمل يتطلب قدرا من الاهتمام . فالحياكة مثلا ليست عملا ، ومن ثم فإن مهمة تسلية امرأة تقوم بالحياكة ، تتطلب عناء يعادل ما تتطلبه تسلية امرأة تجلس مكتوفة اليدين . أما حين تطرز ، فإن الأمر يختلف ، إذ أن التطريز يشغلها بدرجة تكفى لملء فترات الصمت . والمزيج ، المضحك ، هو أن ترى فى

مكان ما مثلا اثنى عشر أخرق ثقل الدم ، يقومون ، ويجلسون . ويفقدون ، ويروحون ، ويدورون على أعقابهم ، ويحركون التحف — التى على رف المدفأة — مائتى مرة ، ويمتصرون أمخاضهم ليبتقوا على تيار الكلمات دافقا لا ينضب . . ما أبدعها من بهمة ! . . مثل هؤلاء — ايا كانوا — يصبح بعضهم عبثا على بعض ، وعلى أنفسهم ! ولقد اعتدت — حين كنت فى (موتير) — أن أذهب لصنع الاشرطة المجدولة فى دور الجيران . . ولو اننى عدت إلى ذلك المجتمع ، لحملت فى جيبى دائما «البيلوكة» (١)، وللعبت بها طوال النهار ، لأشغل بها عن الكلام عندما لا يكون لدى ما يقال . ولو أن كل امرئ فعل ذلك ، لأصبح الناس أقل شرا ، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم ، وأحب ، على ما اعتقد! وقصارى القول ، أن دع الماجنين يضحكون ، ولكنى أرى أن المذهب الخلقى الوحيد الذى فى متناول القرن الحاضر ، هو مذهب «البيلوكية» !

وإلى جانب هذا ، لم يكن لدينا وقت كاف للتحوط ضد السام عندما نكون معا ، فإن الزائرين المزعجين كانوا يسببون لنا من السام ما يجعلنا لا نشعر بشيء منه إذا ما خلا بعضنا إلى بعض ! . . ولم يكن الضيق — الذى اعتادوا أن يوحوا إلى

(١) البيلوكة : لعبة تتألف من كرة مثقوبة ، تتصل بخيط دقيق بمسما صغيرة مدببة فى أحد طرفيها ، ومجوفة فى الآخر . . ويمسك المرء بالطرف المدبب ، ويطوح الكرة فى الهواء محاولا ادخالها فى الطرف المجوف . وقد شاع أخيرا نوع منها يتألف من كرة وكوب صغيرة من البلاستيك .

به من قبل - قد تضاعل . وكل ما كان هنالك من اختلاف ، هو أنني لم أعد أجد وقتا كافيا لأن أسلم نفسي إليه ! . . ولم تكن « ماما » المسكينة قد فقدت شيئا من شغفها القديم بالمشروعات والخطط ، بل إن الأمر كان على النقيض ، فبازدياد إلحاح حاجاتها المعيشية ، أخذت تزداد إغراقا في المشروعات لسد هذه الحاجات . . ويقدر ما قلت مواردها الراهنة ، ازدادت تدبرا لها في أوامها بشأن المستقبل . ولم يزد لها مرور السنين إلا إغراقا في هذا التهوس ، ويقدر ما كانت تفقد من ميل إلى ملاذ الدنيا والشباب ، أخذت تعوضه بميل إلى الأسرار والخطط . فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين ، والصناع ، والكيميائيين ، والمغامرين على اختلاف أنواعهم ، الذين كانوا يبعثون الثروات بالملايين ، وينتهون إلى أن يصبحوا بحاجة إلى دينار ! . . ولم يكن أى واحد منهم ليخرج من لدنها صفر اليدين ، وقد كان من بواعث ذهولي أنها كانت قادرة - لوقت طويل - على مثل هذا الإسراف دون أن ترهق مواردها ، أو تستنفد صبر دائئها !

كان المشروع الذى شغلها أكثر من أى شئ آخر ، فى الوقت الذى أتحدث عنه ، والذى لم يكن أبعد المشروعات التى صاغتها عن المعقول ، هو إنشاء حديقة ملكية للنباتات فى (شامبرى) ، يعين لها مدير ! وفى وسع المرء أن يفهم مقدما من الذى كان موهودا بهذا المنصب . فإن موقع هذه المدينة وسط جبال (الألب) كان جد مناسب للتجارب النباتية ، ولما كانت « ماما » تحاول دائما أن تساعد كل مشروع بآخر ، لمائها قرنت

هذا المشروع بمشروع كلية للصيدلة ، الأمر الذي بدأ جد مفيد — حقا — لمنطقة فقيرة في هذا الباب إلى درجة أن الصيادلة كانوا الأطباء الوحيديين فيها تقريبا ! . . وكانت إقامة الطبيب الأول «جروسي» في (شامبيرى) ، بعد موت الملك ميكتور ، تبدو لها ملائمة جدا للفكرة ، أو لعلها هي التي أوحى بها . ومهما يكن الأمر ، فإنها أقبلت على تملق «جروسي» المذكور ، الذي لم يكن بالشخص السهل المراس ، بل كان أكثر من عرنت في حياتى سخرية وقسوة ، وسيحكم القارىء على ذلك من حادثين أو ثلاثة أذكرها كنماذج !

فلقد كان «جروسي» يتشاور يوما مع أطباء آخرين ، استدعى أحدهم من (أنيسى) ليعالج مريضا . وجرؤ هذا الأخير — الذى لم يكن قد استكمل لباقتسه كطبيب — على أن يمارض رأى السيد « الطبيب الأول ، جروسي » ، فكان رد هذا الأخير عليه ، أن سألته من موعد عودته من حيث أتى ، وعن الطريق التى اعتزم أن يسلكها ، والمركبة التى سوف يستقلها ! وإذا أجاب الآخر عن كل هذه الأسئلة ، سأل « مستجوبه » بدوره عما إذا كان يستطيع أن يؤدي له أية خدمة ، فقال جروسي : « لا ، لا خدمة هنالك . . وإنما أريد أن ألق في نافذة على طريقك ، لأستمع برؤية حمار يركب جوادا !

وكان «جروسي» بخيلا بقدر ما كان غنيا وصعب المراس . ولقد أراده أحد أصدقائه يوما على أن يقرضه نقودا ، بضمانات طيبة ، فقال له وهو يمسك بذراعه ، وقد كثر عن

أنيا به : « يا صديقى . . إذا هبط القديس بطرس من السماء ليقترض منى عشر « بيستولات » (١) ، وقدم لى المهد المقدس ضمنا ، لما أقرضته ! » . . وفى ذات يوم ، دعى للغداء لدى السيد الكونت بيكون ، حاكم (سافوا) - الذى كان شديد التقدين - فوصل قبل الموعد ، وكان صاحب السعادة منصرفا إلى تسبيحاته ، فعرض عليه أن يتسلى بالتسبيح . وإذا لم يدر الطبيب بماذا يجيب ، ابتسم ابتسامة رهيبة ، وركع ، ولكنه لم يكذب يطلو اثنتين من التسبيحات الملائكية ، حتى عجز عن الاحتمال ، فنهض على حين غرة ، وتناول عصاه ، وانصرف بدون أن ينبس ببنت شفة ! فهرع الكونت بيكون خلفه ، وهو يصيح به : « يا سيد جروسى ! يا سيد جروسى ! امكث ، فإن على السفود حجلا بديعا » (٢) . فالتفت إليه الآخر مجيبا : « يا سيدى الكونت ، لو أنك وهبتنى ملاكا مشويا لما بقيت ! » . . هذا هو السيد الطبيب الأول جروسى ، الذى تولته « ماما » وانتهت إلى ترويضه . ومع أنه كان جم المشاغل إلى أقصى حد ، فقد اعتاد أن يتردد كثيرا جدا على دارها ، وقد اصطفى « أنيسه » فآثره بوده ، مبديا تقديره لعلمه ، متحدثا عنه باحترام . والأمر الذى ما كان ليتوقعه أحد من دب شرس كهذا ، إنه راح يعامل الوصيف باعتبار كبير ، ليمحو آثار الماضى !

(١) عملة ذهبية قديمة ، كانت قيمتها تتغير بتغير العصر والسلك الذى

يمسكها .»

(٢) السفود : المشواة . والحجل : نوع من الطيور .

ذلك لأنه وإن كان « آنيه » لم يعد فى مرتبة الخدم ، إلا أنه كان من المعروف أنه كان من قبل خادما ، ولم يكن يعوزه شيء قدر مسلك الطبيب الأول ، واحترامه ، كيما يعامله الناس بأسلوب ما كانوا ليأخذوه قط عن شخص آخر سوى جروسى ! .. وكان « كلود آنيه » يميزه السوداء ، وشعره المستعار الجيد التنسيق ، ومظهره الجساد الوقور ، ومسلكه الرصين الحذر ، والملمه الواسع بعلم النبات والطب ، وتأييد رئيس الكلية له ، خليقا بأن يجعله يأمل — بحق — فى أن يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية ، لو قدر للمشروع أن يتحقق ! والواقع أن جروسى حبذ المشروع ، واحتضنه ، ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكى ، سوى اللحظة التى يسمح فيها استقرار السلم بالتفكير فى الأشياء المفيدة ، وتوغير بعض المال من أجلها .

ولكن هذا المشروع — الذى كان من المحتمل أن يصرفنى تحقيقه إلى التفرغ لعلم النبات ، إذ كان يخيّل إلى اننى خلقت له — أخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التى تقلب خيم الخطط المتناسقة . وكان مقدرا على أن أصبح تدريجا مثالا للإنسان البائس . ومن الممكن القول إن العناية الالهية — التى كانت تبطلينى بترك الاختبارات الضخمة — كانت تزيع بيدها كل ما كان يمنعنى من خوض تلك المحن . ففى إحدى الجولات التى كان « آنيه » يقوم بها إلى أعلى الجبال للبحث عن « الجنبية » — وهى نبات نادر لم يكن ينمو إلا على جبال الالب ، وكان السيد جروسى بحاجة إليه — تعرض الفتى المسكين لحرارة

أدت إلى إصابته بنوبة من داء الجنب (التهاب غشاء «البلورا») ، لم تقو « الجنبه » على إنقاذه منها ، برغم ما كان يقال من أنها علاج لهذا الداء بالذات . وبالرغم من كل مهارة جروسى ، الذى كان نطاسيا حاذقا حقا ، وبالرغم من العناية التى لا حد لها والتى بذلتها - سيدته الطيبة وأنا - له ، فإنه مات بين أيدينا ، فى اليوم الخامس ، بعد أن عانى آلاما فظيعة فى الفرج الأخير ، لم يجد خلالها سلوى سوى دعواتى التى رحت أبذلها فى أسى وحماس بالغين ، والتى كانت خليقة بأن تسرى عنه لو أنه فهمها ! .. وهكذا فقدت أوفى صديق حظيت به فى حياتى .. رجلا جديرا بالتقدير ، نادرا ، تولت الطبيعسة تربيته وتعليمه ، وكان - وهو فى منصبه كخادم - يغذى قلبه بكل فضائل العظماء ، ولعله لم يكن بحاجة - لكى يظهر الدنيا بأسرها على أنه من هؤلاء - إلا لعمر أطول ، ومركز أفضل !

وفى اليوم التالى ، كنت أتحدث منه إلى « ماما » بأشد وأصدق الأسى ، عندما خطرت لى فجأة - وسط الكلام - أدنا وأخبت فكرة : تلك هى أننى خلىق بأن أرى ثيابه ، ولا سيما بزة سوداء أثيقة كانت تستهوينى ! .. فكرت فى هذا ، فإذا بى أفصح عنه ، إذ أن التفكير والقول كانا مترادفين عندى حين أكون بالقرب من « ماما » . ولم يجعلها شىء أكثر شعورا بالخسارة التى منيت بها ، قدر هذه الكلمة المتهورة البغيضة ، فقد كان إنكار الذات ونبل النفس خصلتين امتاز بهما الراحل . وأشاحت عنى المرأة المسكينة - دون أن تجيب بكلمة - وانخرطت فى البكاء .. وما كان أعز دموعها وأغسلاها ! لقد



واشاحت على المرأة السكينة - دون ان تجيب بكلمة - وانخرطت فى البكاء بهـ

أفصحت هذه الدموع من معانيها ، وانسسايت إلى فؤادي ،
فغسلت عنه آخر آثار الأحاسيس الخسيسة ، غير الكريمة ..
فلم تدخله هذه الأحاسيس بعد ذلك !

ولقد أضرت هذه الخسارة بهما ، بقدر ما أحزنتها ، فلم
تكف شئونها من الانهيار منذ تلك اللحظة ، إذ كان « آنييه »
فتى دقيقا ، منظما ، عنى بتنظيم دار سيدته . وكانت يقظته
مهابة من الخدم ، فإذا الإسراف يتضائل .. حتى « ماما »
نفسها كانت تخشى لومه ، وتحد من نفقاتها . ولم تكن تكنى
بحبه ، بل كانت ترغب في الاحتفاظ بتقديره ، وكانت تخشى
اللوم العادل الذي كان يجروا أحيانا على إبدائه ، إذ كانت تسخو
بمال غيرها لا بمالها فحسب ! .. ولقد كنت أرى رايه في هذا ،
بل وأعربت عنه فعلا ، ولكنى لم أوت ما كان له من نفوذ عليها ،
فلم يكن لأموالي ما كان لأقواله من تأثير لديها . ولما لم يعد له
وجود ، اضطرت إلى أن أتخذ مكانه ، وهو ما كنت قليل
المقدرة عليه والميل إليه ، فلم أحسن ملء المركز ، إذ أننى كنت
قليل العناية ، شديد الخجل ، فتركت كل شيء يسير على
هواه ، وأنا أنحو على نفسى باللائمة ، وبجانب هذا ، فإننى لم
أحظ بسلطانه ، وإن حظيت بنفس الثقة التى كان ينعم بها .
وكنت أرى الفوضى فاتحسرها عليها ، واشكو منها ، ولكن أحدا
لم يكن يصفى إلى . فقد كنت أصغر سنا وأكثر مرحا من أن
أبدو عاقلا حكيما . وعندما كنت أسعى للتدخل والرقابة ،
كانت « ماما » تقابلنى بصفغات بسيطة مدللة ، وتدعونى
بمرشدها الصغير ، وتضطررنى إلى أن أعسود للدور الذى كان
يلائمنى !

وكان الاقتناع العميق بالضائقة التي كان إسماعيلها المطلق كفيلا بأن يفرقها فيها — أن عاجلا أو آجلا — قد ترك أثرا في نفسي .. وقد اشتد هذا الأثر كثيرا حين أصبحت — كمشرف على شئون الدار — قادرا على أن أتبين بنفسى الفارق بين دخلها ونفقاتها ، فقد كانت كفة الأخيرة أرجح ! — وإلى هذه الفترة أرجع تاريخ الميل الذي استشعرته منذ ذلك الحين إلى التقدير — وأنا لم أكن قط مسرعا في نزع ، إلا في نوبات عابرة ، ولكنى حتى ذلك الحين لم أكن قد حملت هم ما إذا كانت ثمة نقود كثيرة أو قليلة .. غبسات أهتم بهذا ، وأعنى بكيس نقودى .. وهكذا تحولت إلى البخل ، نتيجة باعث رائع جدا ، ذلك أن همى الأوحاد انحصر — فى الحقيقة — فى : كيف اقتصد لما شينا بقيها محنة الانهيار الذى كنت أراه مقبلا ! ؟ وكنت أخشى أن يحجز دائنوها على معاشها ، أو أن ينقطع هذا المعاش نهائيا ، فخيل إلى — لضيق عقلى — أن مدخراتى الضئيلة ستكون ، إذ ذاك ، مظيمة النفع لها ! على أنه لا ذخار شيء ما ، ولحفظه — قبل كل شيء — كان لا بد من مكان لاخفائه فيه عنها ، إذ لم يكن من المجدى لهذه الخطة أن تعرف « ماما » شيئا من وجود مدخراتى القليلة ، عندما تكون فى أشد الحاجة إلى المال ! .. ومن ثم رحت أبحث عن عدة مخايب أودعها بضع قطع من فئة « اللوى » ، معتزما أن أضعف الرصيد بين وقت وآخر ، إلى أن تحين اللحظة التى كنت اعتزم أن أطرحه فيها عند قدميها ! ولكنى كنت من الارتباك فى اختيار مخايبى بحيث أن « ماما » كانت دائما تعثر عليها ، وإذ ذاك ، كانت

تشعرنى بذلك ، بأن تأخذ النقود التى أودعتها ، وتضع بدلا منها مبلغا أكبر ، من عملات أخرى مخالفة ! .. وكنت أشعر من ذلك بخجل بالغ ، فأضع كنزى الصغير فى صندوق النفقات العامة ، (فرائها لم تكن تغفل قط عن أن تنفقه على ثياب أو أشياء أخرى لى ، كسيف ذى مقبض فضى ، أو ساعة ، أو أى شيء من هذا القبيل) !

وإذ أيقنت من أننى لن أفلح فى الادخار ، وأن ما أدخره لن يكون — بعد ذلك — ذا نفع يذكر لها ، شعرت أخيرا بأنه لم يعد ثمة ما يعمل إزاء النكبة التى كنت أخشاها ، اللهم إلا أن أحصل على منصب يمكننى من أن أعولها بنفسى ، بمجرد أن تكف عن إمدادى بالمال ، وببجرد أن تجد نفسها فى غائة ! .. ووضعت خططى على أساس ميولى الخاصة — لسوء الحظ — فأصررت فى غياب على أن أنشد نجلاها فى الموسيقى ، إذ أحسست بأنغام والحن تنصاعد فى رأسى ، فظننت أننى مستطيع — بمجرد أن أصبح فى مركز يمكننى من استغلالها — أن أقدو شهرا ، وأن أصبح « أورغيه » (١) حديثا ، لا تخلف أنغامه فى اجتذاب

(١) « أورغيه » هو « أوتونيوس » ، الشمامسة والموسيقى الإفريقى الذى ورد ذكره فى الأساطير على أنه ابن « أبوللو » ، ويمزى إليه أنه أيقظ الربة « هكديس » من الموت بموسيقاه المعقدة وأغانيه الساحرة . وقد استجابت له الآلهة على شريطة أن يسير أمام « هاديس » دون أن يلتفت خلفه لينظر إليها ، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على وعده ، فعادت إلى موتها . وقد نسبت إليه عقيدة دينية صوفية ، من أهم معالمها الإيمان بحياة جديدة بعد الموت .

فضة (بيرو) (١) بأسرها . . . ولما كنت قد بدأت إذ ذاك اقرا « النونة » باتقان كبير فإن المسألة أصبحت ممثلة في : كيف استطيع أن اتعلم الطحين ؟ . . . وكانت الصعوبة هي أن اعثر على من يعلمني ، لأنني لم أكن آمل أن أتمكن من أن أعلم نفسي بمساعدة كتاب « رامو » - الذي كنت اعترضه - فحسب . . . ولم يكن في (سافوا) - منذ رحيل لوميتز - امرؤ على دراية بأي شيء من تناسق النغم !

وهنا يتراعى مظهر آخر من مظاهر التناقض التي تحفل بها حياتي ، والتي كثيرا ما أفضت بي إلى أن أحييد عن غايتي ، حتى وأنا أظن أنني أسير إليها صادقا : فإن « فينتور » كان قد تخصصت إلى كثيرا من الراهب « بلانشار » ، أستاذه في الطحين . . . وكان رجلا قديرا ، عظيم الموهبة ، كان إذ ذاك استاذا للموسيقى في كاتدرائية (بيزانسون) ، وهو يشغل اليوم عین المنصب في كنيسة (فرساي) . وقلت لنفسى إننى خليق بالذهاب إلى (بيزانسون) لأتلقى دراسة على الأب بلانشار ، وقد بدت لى هذه الفكرة معقولة ، حتى أنني سعييت إلى أن أحمل « ماما » على أن تراها كذلك . فلذا بها تعمل على إعداد مقامى البسيط ، و قد فعلت ذلك بالإسراف الذي كانت تلجأ إليه في كل شيء . وهكذا . . . بينما كنت أهدف دائما إلى تنادى إفلاسها ، وإلى أن أصلح في المستقبل نقائج إسرافها ،

(١) (بيرو) إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية ، وقد اشتهرت بأنها غنية

بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى .

إذا بي أبداً — في نفس اللحظة — بتكبيدها ثمانمائة فرنك ! . .
فمجلت بخرابها لكي أهيب نفسي لعلاج حالها ! ومهما تكن
الحماقة التي انطوى عليها هذا التصرف ، فإن الوهم كان بأكمله
راجعاً إلي ، وإليها هي الأخرى . فقد اقنع كل منا الآخر ،
فكنت من ناحيتي مقتنعة بأنني أقوم بعمل نافع من أجلها ،
وكانت هي مقتنعة بأنني أقوم بعمل نافع من أجل نفسي !

وكنيت أمول على أنني سأجد غينتور باقيا في (أنيسي) ،
فأحصل منه على خطاب إلى الأب « بلانشار » . ولكنه لم يكن
هناك ، وكان على أن اقنع — من الدراسة كلها — بقداس من
أربعة أجزاء ، من تلحينه ، كان قد تركه لي . وبهذه الشفاعة
ذهبت إلى (بيزانسون) ، مارا بجنيف — حيث زرت أهلي —
وبـ (نيون) ، حيث زرت أبي الذي تلقاني كالمعتاد ، وتكفل بأن
يرسل في أثرى حقييتي ، لكنها لم تصل إلا بعدى ، لأنني كنت
مسافرا على جواد . . ووصلت إلى (بيزانسون) ، فأحسن
الأب بلانشار استقبالي ، ووعدني بأن يزودني بدروسه ، وقدم
إلي خدماته . وفيها نحن على أهبة البدء ، إذا بي أعلم من أبي
بأن حقييتي قد ضبطت وصودرت في (روس) ، وهي نقطة
للجمارك الفرنسية على الحدود السويسرية . وفي غمرة انزعاجي
لهذا النبا ، انتفعت بالأصدقاء الذين اكتسبتهم في (بيزانسون)
لمعرفة السبب الداعي لهذه المصادرة ، إذ لم أتصور أي مبرر
لها ، بحكم اطمئناني إلى أنني لم أكن أمتلك شيئا من المهربات .
وأخيرا عرفت السبب ، ولا بد لي من ذكره لأنه أمر عجيب !

ذلك أنتى كنت قد التقيت في (شامبير) بكهل من (ليون)^١ يدعى « ديفيغييه » ، كان قد عمل في إدارة الجوازات ، في عهد الوصاية ، وقد وفد ليعمل في المساحة ، لحاجته إلى عمل . وكان قد عاش في المجتمعات الراقية ، وأوتى مواهب وقدر من المعرفة ، واللفظ ، والادب ، كما كان ملما بالموسيقى . ولما كنت أعمل في حجرة واحدة معه ، فإن كلا منا مال إلى إثثار الآخر ، وسط الدببة المسعورة التى كانت تحيط بنا . . . وكان له مراسلون في باريس ، يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة ، وتلك المطبوعات اليومية التى تنتشر دون أن يدرى أحد كيف تنتشر ، وتموت دون أن يدرى أحد كيف تموت ، ثم لا يعود أحد إلى التفكير فيها بعد أن تغيب عن الذكر . ولما كنت أصطحبه معى أحيانا لتناول الغداء لدى ماما ، فإنه كان يعاملنى بقدر كبير من الاحترام . ولكى يجعل نفسه حلو المعشر ، كان يحاول أن يحملنى على أن أحب هذه الصحف الغثافة التى كنت انفر منها دائما إلى درجة أننى لم أقرأ من تلقاء نفسى شيئا منها في حياتى . ولسوء حظى أن إحدى هذه الوريقات اللعينة ، ظلت في جيب صدر إحدى السترات الجديدة التى لم أكن قد ارتديتها سوى مرتين أو ثلاثا لكى لا يتعرض لها رجال الجمارك . وكانت تلك الوريقة تضم تحريفا « يانسينيا »^(١) غثا لمشهد جميل

(١) اليانسينية مذهب دينى ابتدعه تاس هولندى يدعى « كورنيليوس يانسين » في القرن السابع عشر ، وتنادى فيه بأن تعاليم القديس أوغسطين بشأن الغفران وحرية الإرادة والقدر تتعارض مع آراء رجال الدين المحدثين ،

لمسرحية راسين « ميثريدات » . . ولم أكن قد قرأت من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية ، ثم تركتها ، ونسيتها في جيبى . وكان هذا ما أدى إلى مصادرة أمتعتى ، فلن رجال الجمارك الذين اشرفوا على تفتيش حقيبتى بنوا على هذه الوريقة قضية كبيرة ، زاعمين أنها اجتلبت من جنيف لتطبع وتوزع في فرنسا ، وشنوا حملة من الطعن والقذح المبنيين على التقوى ، ضد « أعداء الله والكنيسة » . ومن المدح والثناء على أولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم أن يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمى ! . . ولا بد أنهم وجدوا أن لقمصتى كانت هي الأخرى تنضح بالزندقة ، إذ أنهم - استفادوا إلى هذه الوريقة الرهيبة - صادروا كل شيء ، فلم ألق أبدا أى نفا أو بيان من حقيبتى البائسة ! ولقد طلب الموظفون الذين كتبت إليهم أوسطهم في الأمر ، معلومات وبيانات ، وشهادات ، ومذكرات ، بلغ من كثرتها أتنى بعد أن تخطيطت ألف مرة في هذا التيسه ، اضطررت إلى التخلي عن كل شيء ! وإنى لنادم حقا على عدم الاحتفاظ بالدهوى التى وضعها موظفو (روسو) ، فقد كانت خليقة بأن تبرز وأن تكون موضع امتياز بين الوثائق التى ستصحب هذا المؤلف .

لا تسمية الجيزويت (اليسوعيين) . وقد اشتد الصراع بين أتباع « يانسين » والجيزويت في فرنسا ، ومن هذا نذكر الأهمية التى أضفاها موظفو الجمارك على التمسيدة التى وجدت لدى « روسو » .

وجعلتني هذه الخسارة ابادر بالعودة إلى (شامبيري) دون أن أكون قد أبرمت شيئا مع الأب « بلانشار » . وبعد أن وزنت كل الأمور ، وتبينت أن النحاس يلاحقني في كل مشروعاتي ، عقدت العزم على أن أنصرف بكل جوارحي إلى « ماما » وحدها ، وإن اشاركها حظها ، وألا أعود إلى الاهتمام غير المجدي بمستقبل لم أكن أملك إزاءه شيئا . وقد تطلقتني « ماما » وكأنني جلبت إليها كنوزا ، وزودت صوان ملابسي الصغير شيئا فشيئا ، وسرعان ما تنوسي تقريبا سوء طالعني ، الذي كان نادحا سواء لي أو لها !

ومع أن هذا النحاس قد هدا من حدة مشروعاتي الموسيقية ، إلا أنني لم اتخل قط عن أن أدرس كتاب « رامو » باستمرار ، وانتهيت بفضل الجهد الشاق إلى أن استوعبه ، وإلى أن أقوم ببضع محاولات صغيرة في التلحين ، شعجني نجاحها . وكان الكونت « دي بيلجارد » - ابن مركز دانترمون - قد عاد من (درسدن) بعد موت الملك « أوجيست » . وكان قد أقام ربحا طويلا في باريس ، وأحب الموسيقى حبا جما ، وشغف بمؤلفات « رامو » بوجه خاص . وكان أخوه الكونت (دي نانجي) يعزف على الكمان ، والسيدة الكونتيسة ديلاور - شقيقتهما - تحيّد الغناء بعض الشيء . فنادى كل هذا إلى أن أصبحت الموسيقى هي الهواية الشائعة في (شامبيري) ، وأنشئ نوع من الفرق الموسيقية العامة . وقد أرادوا في بادئ الأمر منحى إدارة هذه الفرقة ، ولكن سرعان ما تجلّى أنها فوق طاقتي ، فأتخذت تدبيرات أخرى . ولم اتخل عن تقديم بضع قطع صغيرة من تلحيني ، بينها أغنية أصابت رضاء كثيرا . ولم تكن

هذه الأغنية قطعة بديعة التلحين ، ولكنها كانت مليئة بالوان جديدة من الغناء ، وبمؤثرات ما كان أحد يرتقبها منى . ولم يستطع هؤلاء السادة ان يصدقوا اننى — وقد كنت أسىء قراءة المقطوعات الموسيقية — كنت فى وضع يمكننى من تأليف الحان مقبولة ، فلم يرتابوا قط فى اننى انتحلت لنفسى فخر عمل سواى ! .. ولكى يتحروا الأمر أقبل السيد دى نانجى ذات صباح ليبحث عنى ، ومعه إحدى أغاني « كليرامبو » ، وقد عدل فيها — كما قال لى — لكى تلائم صوته ، غير أنه كان من الضروري وضع أنغام أخرى للقرنيم الثانى ، إذ أن التعديل جعل من غير الممكن عزف الأنغام التى وضعها كليرامبو على الكمان الكبيرة . وأجبتة بأن هذا عمل ضخم ، لا يمكن أدائه فى التو ، فظن اننى أبحث عن مهرب ، وألح على فى ان أضع له — على الأقل — أنغام رنيم القانى ففعلت . وقد أسأت فى ذلك بلا شك ، لأنه لا بد لى ، لكى أجيد أداء أى أمر ، أن أكون على سجيتى وحريتى .. بيد اننى وضعت ما طلب منى وفقا للقواعد على الأقل ، ولما كان السيد حاضرا ، فإنه لم يستطع ان يرتاب فى اننى لم بأصول التلحين . ومن ثم فإننى لم أفقد تلاميذى ، ولكننى ازددت فتورا — بعض الشيء — نحو الموسيقى ، إذ رأيت القوم قد ألفوا فرقة موسيقية وأهملونى فى تأليفها !



وحوالى ذلك الوقت ، عقد الصلح وساد السلام ، وعبر الجيش الفرنسى الجبال عائدا إلى بلاده .. وجاء عدد من

الضباط لزيارة « ماما » ، كان بينهم السيد الكونت « لوتريك »
 — قائد كتيبة (أورليان) ، والمتدوب المفوض فى جنيف بعهد
 ذلك ، ثم مارشال فرنسا (٤) فى النهاية — فقدمتلى « ماما »
 إليه ، وإذا سمعها تتحدث عنى ، أبدى اهتماما كبيرا بى ،
 ووعدنى بأمور كثيرة ، لم يتذكرها البتة إلا فى العام الأخير من
 حياته ، عندما لم أكن بحاجة إليه ! .. كما مر بشامبيري — فى
 الوقت ذاته — مركز دى سنيكتير الشاب ، الذى كان أبوه
 إذ ذاك سفيرا لدى (تورين) ، فتناول الغداء فى دار السيدة
 « دى مانتون » ، وكنت أنا الآخر أتفدى هناك فى ذلك اليوم .
 وبعد الغداء أثار المركز ذكر الموسيقى ، وكان واسع الدراية
 بها . وكانت أوبرا « جيفته » JEPHTE حديثة العهد إذ ذاك ،
 فتكلم عنها ، وجيء إليه بها ، فإذا به يجعلنى أرتجف ، إذ
 اقترح أن يؤديها معا . . وما أن فتح الكتاب ، حتى وقع بصره
 على هذه المقطوعة الشهيرة ، التى يؤديها فريقان من المنشدين
 (الكورس) :

« إن الأرض ، والجحيم ، بل والسماء

ذاتها لترتجف جميعا أمام الرب »

وسألتنى : « كم دورا تريد أن تؤدى ؟ » .. فأجبت :
 « سأأخذ لنفسى هذه الأدوار الستة » .. ولم أكن قد امتدت
 بعد هذه النزوة الفرنسية ، وإذا كنت قد أدبت الأدوار — مرتبكا
 فى بعض الأحيان — إلا أنني لم أدر إطلاقا كيف يملك رجل واحد
 أن يؤدى ستة أدوار — بل دورين — فى وقت واحد ! وما كبنتى
 شيء من المشقة ، فى ممارسة الموسيقى ، أكثر من القفز ببساطة

من دور إلى آخر ، موجهها عينى إلى فصل بأكمله فى آن واحد . ولا بد أن السيد دى سنيكتير أنساق — من جراء الطريقة التى أدبت بها هذا المشروع — إلى الظن بأننى لم أكن على معرفة بالموسيقى . ولعله أراد أن يتحرى صحة ارتيابه ، فاقترح على أن أكتب «نوتة» أغنية كان يريد أن يقدمها إلى الأنسة « دى مانتون » ، فلم أملك أن أرفض . . وراح يترنم بالأغنية وأنا أكتب ، دون أن أسأله أن يكثر من التكرار . ثم قراها بعد ذلك ، فوجدتها — كما كانت حقيقة — صحيحة التسجيل . وكان قد لاحظ ارتباكى ، فطسب له أن يطئب فى امتداح توفيقى البسيط . والواقع أننى كنت على معرفة طيبة جدا بالموسيقى ، ولم يكن ينقصنى سوى سرعة الاستيعاب ، من أول نظرة القيثا ، وهو الأمر الذى لم أملكه ، والذى لا سبيل إلى اكتسابه فى الموسيقى إلا بالمران الدائب . . ومهما يكن الأمر ، فإننى تقبلت العناية الأمانة التى بذلها ليحوى من أذهان الآخرين ، ومن ذهنى ، الحياء الذى عانيت به . ولقد وجدتني منساقا — عدة مرات بعد ذلك — إلى أن أذكره بهذه القصة ، منما كنت التقى به فى عدة دور بباريس ، بعد اثنى عشر أو خمسة عشر عاما ، لأرى أننى كنت احتفظ بالذكرى . ولكنه كان قد فقد بصره منذ ذلك الحين ، فخشيت أن أجدد شجونه إذ أذكره بالنفع الذى كان يجنيه من هذا البصر فيما مضى ، وأمسكت لسانى ! .



وأصل الآن إلى اللحظة التى بدأت تربط وجودى الماضى بوجودى الراهن ، فإن بعض الصداقات التى امتدت منذ ذلك

الوقت حتى وقتنا الحاضر ، أصبحت جد غالية لدى . وأناها
لتحملني كثيرا على أن اتحسر على ما كنت أسعد به من خمول
الذكر ، حين كان أولئك الذين يعلنون أنهم أصدقائي ، أصدقاء
بالفعل ، يحبونني لذاتي ، بنية طيبة ، لا عن زهو بأن يكونوا
مرتبطين برجل نابذ الذكر ، أو عن رغبة خفية في أن يجدوا مزيدا
من الفرص للنساء إليه . . . وإلى هذه الفترة أرجع معرفتي
الأولى بصديقي القديم «جوفكور» الذي ظل دائما صديقا لي ،
برغم جهود الآخرين لابعاده عني . . . ظل دائما . . . لا ، مع
الأسف ! . . . فلقد قدر لي أن أخسره . ولكنه لم يكف عن حبي
إلا حين كف من الحياة ، ولم تنته صداقتنا إلا بانتهاء عمره .
ولقد كان السيد « دي جوفكور » من أرق وأحب الرجال الذين
وجدوا على ظهر البسيطة ، وما كان من الممكن لأحد أن يراه دون
أن يحبه ، ولا أن يعيش معه بدون أن يتعلق به في ولاء . . . أبدا
لم أر في حياتي ملامح أكثر صراحة أو رقة . . . ولا وجهها أكثر
وقارا ، أو أكثر إظهارا للحس المرهف والذكاء ، أو أكثر إحياء
بالثقة ! . . . ونهما يكن تحفظ المرء ، فقد كان من المستحيل عليه
أن يتمالك نفسه . . . منذ أول نظرة — من أن يصبح على ألفه معه ،
وكأنه عرفه منذ عشرين عاما ! . . . حتى أنا — الذي كان يجسد
مشقة في أن يكون على سجيته مع الأغراب — اطمأننت إليه منذ
اللحظة الأولى . كان سلوكه ، ولهجته ، وأقواله ، تتمشى
مجتمعة مع ملامحه . وكان رنين صوته جليا ، مليئا ، واضح
الجرس . كان صوتا مذبذبا ، جهوريا ، قويا رنانا ، يملا الأذن
ويرن في الفؤاد . وما كان في الوسع أن يوجد مزج أكثر اعتدالا ،

واكثر لطفا من مرجه . . ولا كياسة أصدق وأبسط من سذاجته ،
ولا مواهب اكثر تأصلا ونموا وارهاقا من مواهبه ! . . اصف إلى
هذا قلبا ودودا ، مسرفا بعض الشيء في حبه للناس جميعا ،
وشخصية فعالة للخير دون ترو . . . وكان ميالا لخدمة الأصدقاء
في حمية ، او لعله كان يسعى لاكتساب صداقة أولئك الذين
يستطيع أن يخدمهم ، وهو يدرك انه إنما يغدو أحقق أداء
لشئونه النزيهة ، عندما يخدم بحرارة شئون الغير !

وكان «جوفكور» ابن ساعاتى بسيط، وكان - هو الآخر -
ساعاتيا ، ولكن شكله وكفافته قاداه إلى جو آخر لم يتلصقا في أن
ينفذ إليه ، فقد تعرف إلى السيد ديلاكوسير - مندوب فرنسا
المقيم في جنيف - الذى أولاه وده ، فأحرز له صلات تعارف
أخرى في باريس ، أجبت عليه نفعا ، واستطاع بنفوذ أصحابها
أن يظفر بحق امداد (فاليه) بالمح ، مما عاد عليه بدخل قدره
عشرين ألف لييرة . وقد انتهت به ثروته - وهى جد كافية -
إلى هذا الحد في علاقته بالرجال . أما من ناحية النساء ، فقد
كان يجد عناء . كان عليه أن يختار ، وأن يفعل ما يشاء . وكان
من أندر وأشرف ما امتاز به انه في علاقاته بالأشخاص - من
كافة الرتب والدرجات - كان محبوبا من الجميع ، مرجوا من
الناس طرا ، دون أن يتعرض لحسد أو بغضاء أى شخص .
وإنى لأعتقد بأنه مات دون أن يرى في حياته عدوا واحدا ! . .
كم كان سعيدا ! . . وكان يذهب في كل عام إلى حمامات (ايكس) ،
حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة . وإذا كان على
ود مع علية القوم في (سافوا) ، فقد جاء من (أبكس) إلى

(شامبيرى) لزيارة الكونت « دى بيلجارد » وابييه المركيز دانترمون . . وفى دارهما عرفت « ماما » وعرفتني به . وقد تجددت هذه المعرفة — التى لم يبد إذ ذاك أن من المقدر لها أن تنتهى إلى شيء ، والتى انقطعت عدة سنوات ، بعد ذلك — فى مناسبة سارويها ، وأصبحت ودا وثيقا صادقا . وهذا كاف لأن يبرر حديثي من صديق كنت وثيق الارتباط به . وحتى إذا لم يكن ثمة مصلحة شخصية فى تفكره ، فإنه كان رجلا حبيبا ، ولد سعيدا ، حتى أننى اعتقد دائما أن ذكره جدير أن تبقى ، لتكون فخرا للجنس البشرى . ومن المحقق أنه كانت لهذا الرجل الساحر أخطاؤه ، كغيره من البشر ، وكما سيتجلى فيما بعد . ولكن ، لعله كان يغدو أقل استئثارا بالمحبة إذا لم تكن له أخطاء . فقد كان من الضروري — لجعله جديرا بالاهتمام إلى أقصى ما كان ممكنا — أن يوجد فى مسلكه ما يستحق الصنح والغفران !

وهناك علاقة أخرى تمت إلى ذلك العهد ، ولم تغتر بعد ، بل إنها لا تزال توعز إلى بالأمل فى الهناء الدنيوى ، الذى يتعذر موته فى قلب الإنسان . فلقد شغف السيد « دى كونزيبه » — وهو سيد من أبناء (سافو) ، كان إذ ذاك شابا لطيفا — بتعلم الموسيقى ، أو — بالأحرى — بالتعرف إلى ذلك الذى يتولى تدريسها . ولقد أوتى السيد « دى كونزيبه » ذكاء وميلا إلى الصداقات الجميلة ، وكان يقرن هذا بلطف الخلق ، مما جعله لين الجانب إلى حد كبير ، مثلما كنت أنا الآخر — إلى حد كبير كذلك — بالنسبة لمن أجدهم على هذه الشاكلة . وسرعان

ما نوثقت صلتنا (١) ، فإن بذور الأدب والفلسفة التى كانت قد بدأت تختمر فى راسى ، والتى لم تكن ترتقب سوى شىء من الرعاية والتشجيع لتترعرع لتوها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيد « دى كونزيبه » ، إذ كان على قدر من الميل إلى الموسيقى ، فكان فى هذا خير كبير لى ، لأن ساعات الدرس راحت تنقضى فى كافة الأشياء عدا التدريب على الألحان . وكنا نتناول الفطور معا ، ونتجاذب الحديث ، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة ، ولا نفوه بكلمة واحدة فى الموسيقى . وكانت الرسائل المتبادلة بين « فولتير » وولى عهد بروسيا قد أحدثت ضجة فى ذلك الحين ، فكنا كثيرا ما نتكلم عن هذين الرجلين الشهيرين ، اللذين ارتقى أحدهما العرش بعد ذلك بقليل ، فى حين كان الآخر موضع تشهير - بقدر ما هو الآن موضع تمجيد - مما كان يجعلنا نرثى فى إخلاص لسوء الطالع الذى بدا أنه كان يلاحقه ، والذي كثيرا ما يكون نصيب ذوى المواهب العظيمة . وكان الأمر البروسى قد حظى بقتل من السعادة فى شبابه ، أما فولتير فكان يلوح وكأنه خلق لكى لا يسعد البتة . وكان الاهتمام الذى تولانا نحو كل منهما قد امتد إلى كل ما كان يتعلق به ، فلم يكن

(١) قدم لى أن أمراء بعد ذلك ، وأن أجده قد تغير تغيرا شاملا . فبالسيد شوارزل من ساحر تغير ! .. فما قدر لأحد من معارفى القدامى أن ينجو من قدرته على التبدل !

هذه الإضافات وجدت فى الأصول الأولى المكتوبة بخط روسو ، ولكن لا اثر لها فى طبعة (جنييف) .

يفوتنا شيء مما كتبه « مولتير » . وقد ألهمتني المتعة التي حظيت بها من هذه المطالعات ، بالرغبة في أن اتعلم الكتابة البليغة ، وإن أحاول أن أقلد ما لهذا المؤلف من أسلوب بديع ، كنت مفتونا به . ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه « الرسائل الفلسفية » ، ومع أنه لم يكن أفضل مؤلفاته ، إلا أنه كان أعظم ما اجتذبتني إلى الدرس ، ومنذ ولد في هذا الميل ، لم يقدر له أن يخبو أو يفترأ

على أن الوقت لم يكن قد حان بعد كي أفرغ للأدب تفردا تاما ، إذ كانت لا تزال لدى بقية من النزق ، والرغبة في الغدو والرواح ، التي كانت قد هدأت وإن لم تكن قد خمدت ، والتي وجدت ما يغذيها في سياق العيش في بيت مدام دي ماران . . . فقد كانت الحياة هناك أكثر صحيا من أن تلائم مزاجي الانعزالي ، إذ أن سيل الأغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الأرجاء ، واقتناعي بأنهم لم يكونوا يسعون إلا إلى التفرير بها — كل بطريقة — جعل حياتي في البيت عذابا منتظما ! . . . فمِنذُ أن خلفت « كلود آتیه » في الظفر بثقة مولانه ، رحلت اتعقب عن كتب تطور شئونها ، وأرى تدهورها الذي كان يزعجني . ولقد اطلعتها ، وتوصلت إليها ، وضغطت عليها ، ورحلت أناشدها مائة مرة ، ولكن دون ما جدوى على الإطلاق ! . . . لقد ارتفعت على قدميها ، وعرضت عليها — بأقوى ما وسعني — النكبة التي كانت تتهددها ، ورحلت أنصحها في الحاج بأن تحد من نفقاتها ، وأن تبدأ بتطبيق ذلك على أنا ، وأن تعاني قليلا من الحرمان وهي بعد لا تزال شابة ، بدلا من أن تضاعف ديونها ودائنيها باستمرار ، مما يعرضها لمضايقاتهم وللفتاة أيام شيخوختها . .

وهى صدق تحمسى عواطفها ، فجارتنى فى شعورى ، ووعدتنى بأجل ما فى الدنيا من وعود . ولكن كل شىء كان يغدو منسياً ، بمجرد أن يصل أحد الأفاقين ! وبعد ألف دليل على عدم جدوى ارشاداتى ، ما الذى تراه قد بقى لى — كى أفعله — سوى أن أفض بمرى من الشر الذى لم أكن أملك دفعه ؟ . . لقد رحلت أئامى من البيت الذى عجزت عن حراسة بابه ، وأخذت أقوم برحلات قصيرة إلى (نيون) و (جنيف) و (ليون) ، شغلت بالى عن همى الكظيم ، بينما كانت — فى الوقت ذاته — تزيد من عبثه ، نظراً لثقتائى . . . وبوسعى أن أقسم بأننى كنت خليقاً بأن اتحمل باغتيال كل تضيق ، لو أن « ماما » كانت تنفع حقاً من ذلك الاقتصاد . . ولكنى كنت موقناً من أن ما كنت أهرم نفسى منه ، كان ينتقل إلى الأفاقين ، ومن ثم فإننى كنت أسىء استغلال سخائها لكى أقاسمهم ما كانت تغدغه عليهم . . وكالكلب العائد من المذبح ، كنت استولى على قضة من القطعة التى لم استطع أن أنقذها من الكلاب الأخرى !

ولم تكن تعوزنى الحجج لتبرير كل هذه الرحلات ، وكانت « ماما » وحدها تغذبنى بهذه الحجج ، إذ كان لديها الكثير من الاتصالات ، والمباحثات ، والشئون ، والمهام التى تحتاج إلى شخص موثوق به . ولم يكن عليها سوى أن توفدنى ، كما أننى لم أكن أرجو سوى أن أذهب . . ولم تخفق هذه الحال فى تهيئة حياة مليئة بالترحال . ولقد هيات لى هذه الرحلات فرص مقد صلات تعارف طيبة ، كانت — فيما بعد — مستحبة ونافعة . ومن هذه الصلات التى عقدتها فى (ليون) معرفتى

بالسيد « بريشون » — وهى المعرفة التى لوم نفسى لأننى لم
أعمل على تنميتها بدرجة كافية ، برغم ما كان السيد قد أبداه لى
من طيبة وكرم — ثم تعرفى إلى « باريسو » الطبيب ، الذى
سأحدث عنه فى حينه . . . وفى (جرينوبل) تعرفت إلى السيدة
« دى ديبيان » ، والسيدة حرم رئيس « الباردونانش » (١) ،
وكانت امرأة جمة الفكاء ، على استعداد لأن تؤثرنى بوجدها لو
أننى أوتيت مزيدا من الفرص لزيارتها . . . وفى (جنيف) تعرفت
إلى السيدة « ديلا كلوسير » — مندوب فرنسا المقيم — الذى
حدثنى فى أحيان كثيرة عن أمى ، التى كانت ما تزال تحتل مكانة
فى عواده ، برغم الموت والزمن . . . كما تعرفت إلى السيدين
« باريو » ، وكان الأب منهما — وقد اعتاد أن ينادينى بابنه
الأصغر — حلو المعشر ، ومن أجدر من عرفتهم بالاحترام .
وقد قدر لهذين المواطنين أن ينفازا إلى فريقين متعارضين —
إثناء اضطرابات الجمهورية — فكان الابن فى صفوف
البورجوازيين « ، بينما كان الأب فى صفوف الطبقة الحاكمة .
وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر — فى سنة
١٧٣٧ — كنت فى (جنيف) ، فقدر لى أن أرى الأب والابن يخرجان
مسلحين من بيت واحد ، أحدهما ليذهب إلى دار محافظة المدينة ،
والآخر ليذهب إلى مركز قيادته ، وهما موقنان من أنهما لن يلبثا
أن يجدا نفسيهما — بعد ساعتين — وجها لوجه ، معرضين لأن
يقتل كل منهما الآخر ! . . . ولقد ترك هذا المنظر الرهيب طابعا
عميقا فى نفسى ، حتى أننى أقسمت ألا أشتبك قط فى أية

حرب أهلية ، والا أذود بالسلاح من الحرية — في داخل البلاد — سواء بنفسى أو بتحبيذى ، إذا ما قدر لى أن أمارس حقوقى كمواطن . وإنى لأشهد بأننى وفيت بهذا العهد فى مناسبة مسيرة ، ولسوف يتبين — أو هكذا أظن ، على الأقل — أن هذا الامتدال كان ذا فوائد جمة .

على أنى لم أكن قد بلغت — بعد — هذا الفوران الأول للوطنية ، الذى أثارته جنيف — بتسلحها — فى فؤادى . وللمره أن يحكم على مدى بعدى من ذلك على ضوء واقعة خطيرة أثرت على ، وقد نسيت أن أذكرها فى مكانها ، ويجب ألا أغفلها : ذلك أن خالى برنار كان قد انتقل منذ سنوات عديدة إلى (كارولينا) (١) لإنشاء مدينة (تشارلستون) ، التى وضع تصميمها . وما لبث أن مات بعد ذلك بقليل . كذلك مات ابن خالى المسكين ، فى خدمة ملك بروسيا . وهكذا فقدت عمى ابنها وزوجها فى آن واحد تقريبا ، فأدى هذان المصابان إلى انكفاء ودها لأقرب قريب بقى لها ، وهو أنا . . فكننت إذا ما ذهبت إلى (جنيف) أنزل لديها ، وكننت أتسلى بأن أنبش الكتب والأوراق التى تركها خالى ، وأقلب صفحاتها . وقد وجدت كثيرا من الأشياء العجيبة ، من بينها أوراق ما كان أحد ليحدث وجودها يقينا . وكانت عمى — التى لم تعلق أهمية تذكر على تلك

(١) الظاهر أن « روسو » يقصد (كارولينا الجنوبية) ، وهى إحدى ولايات أمريكا الشمالية القائمة على الساحل الجنوبى الأطلسى وتعتبر (تشارلستون) من أكبر مدنها .

الأوراق — على استعداد لأن تدعني آخذها جميعا ، لو أنني شئت ذلك . على أنني قنعت بكتابين أو ثلاثة ، تحمل تعليقات وشرحا بخط جدى برنار القس ، ومنها مؤلفات « روهو » اليتيمة (١) ، وقد طبعت في مجلد من حجم « ربع القطع » (٢) ، وملئت هوامشها بملاحظات رائعة ، حببت إلى العلوم الرياضية . ولقد بقى هذا الكتاب بين كتب مدام دي فاران ، وإنى لاشعر بالحزن دائما لأننى لم احتفظ به . وقد أضفت إلى هذه الكتب خمسا أو ستا من المذكرات المخطوطة ، وواحدة مطبوعة هي المذكرة الشهيرة التى كتبها « ميشيل دوكريه » ، وكان رجلا عظيم العبقرية ، عالما متورا ، ولكنه كثير الشطط فى آرائه ، فلقى معاملة سيئة من حكاه (جنيف) . وقد مات مؤخرًا فى قلعة (اربرج) ، حيث ظل سجينًا أسوأ ما طويلة ، لأنه — على ما قيل — اشترك فى مؤامرة (بيرن) !

وكانت هذه المذكرة نقدا رصينا عادلا لتلك الخطة الكبيرة ، والمسخيفة ، التى وضعت للتحصينات ، والتى حقق جزء منها فى (جنيف) ، وقد كانت اضحوكة كبرى لدى الخبراء الذين لم يدركوا ما كان للمجلس (٣) من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل . ولما كان السيد « ميشيل » قد اقصى عن

(١) أى التى لم تنشر الا بعد موت مؤلفها .

(٢) يكاد يعادل ضعف حجم « كتابى » و « مطبوعات كتابى » أو يزيد قليلا فى العرض .

(٣) المجلس الذى كان يضم عددا من المستشارين ، ويتولى حكم جنيف . (٢٠٤ - اعترافات - ج ٢)

« هيئة التحسينات » لأنه عاب المشروع ، فقد اعتقد أن بوسمه كعضو من « المائتين » (١) — وك مواطن كذلك — أن يعلن رأيه بهزيد من الإسهاب ، وهذا ما فعله في مذكرته هذه ، التي أقدم — في غير حكمة — على طبعها ، ولكنه لم ينشرها ، لأنه لم يطبع بها سوى عدد محدود من النسخ ، أرسله إلى « المائتين » . . . ولكن هذه النسخ صودرت جميعا في البريد ، بأمر من المجلس الاستشاري الصغير (٢) . ولقد وجدت هذه المذكرة بين أوراق خالي ، مع الرد الذي عهد إليه بوضعه ، فأخذت كلا منهما . وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالي عن « المساحة » بقليل ، ولما أزل على بعض الارتباط بالمستشار « كوتشيللي » ، الذي كان رئيسا لها . وقد حدث — بعد وقت قصير — أن رجائي مدير الجمارك أن أقوم بدور الاثنيين لطفله . وكانت السيدة « دي كوتشيللي » هي الاثنيينة ، فأدار هذا التكريم رأسي ، وحاولت — وأنا مزهو بأن أغدو في مكانة جد قريبة من مكانة السيد المستشار — أن أقوم بعمل ذي قيمة ، لأبدو جديرا بمثل هذا الشرف العظيم . . . وأنسياقا وراء هذه الفكرة ، لم أر أفضل من أن أطلعه على مذكرتي المطبوعة التي ألفها السيد « ميشيلي » ، والتي كانت — في الحقيقة — تحفة نادرة ، كي أبرهن له على أنني أنتمى إلى عليا القوم في (جنيف) ،

(١) مجلس المائتين . . يظهر أنه كان مجلسا نيابيا يضم ذوي المواهب في

جنيف ، بمثابة مجلس للتواب :

(٢) مجلس الشيوخ .

ممن كانوا يعرفون أسرار الدولة . . على أننى — بدافع من شيء من الحذر ، لم أكن أدري ماأناه — لم أطلعه قط على رد خالى من المذكرة ، ولعل ذلك كان راجعا إلى أن الرد كان بخط اليد ، وأنه لم يكن ليلىق بمقام المستشار سوى كل مطبوع . . بيد أنه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التى كنت من الغباء بحيث أئتمنته عليها ، فلم يتسدر لى قط أن أسترجمها أو أن أراها ثانية . . حتى إذا أيقنت من عدم جدوى جهودى ، رأيت أن استغل الأمر ، وأن أحول السرقة إلى هدية . . ولست ارتاب إطلاقا فى أنه قد أحسن استغلال هذه التحفة فى بلاط (تورين) — فقد كانت طريفة أكثر مما كانت نافعة — وأنه عنى ، بطريقة أو بأخرى ، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعى أن يزعم أنه أنفقه فى الحصول عليها . . ولما كان من أقل أحداث المستقبل احتمالا وامكانا — لحسن الحظ — أن يقدم ملك سردينيا يوما على حصار (جنيف) ، وإن لم يكن هذا الأمر مستحيلا ، فقد ظلمت دائما اليوم غرورى الأحمق الذى جعلنى أكثف مواطن الضعف فى استحكامات المدينة ، لآلد أمدائها !



وقضيت عامين أو ثلاثة على هذه الحال ، بين الموسيقى ، والحكام ، والمشروعات ، والرحلات . . أتنقل دائما من أمر إلى آخر ، وأنشد دائما الاستقرار دون أن أدري فيم أستقر ، ولكنى كنت أتجه تدريجيا إلى الدراسة ، والتقى برجال الأدب ، وأسبح الأحاديث الأدبية ، وأجرؤ — فى بعض الأحيان — على أن أخوضها أنا الآخر ، مقتبسا أساليب الكتب بدلا من أن

استوعب محتوياتها ! وكنت اقوم بين آن وآخر ، أثناء رحلاتي إلى (جنيف) ، بزيارات عابرة لصديقي القديم السيد سيمون ، الذي أذكى كثيرا تحمسي الوليد للأدب بتزويدي بأحدث الأنباء من « دولته » ، وهي أنباء كان يأخذها عن « باييه » أو عن « كولومبييه » . كذلك كثيرا ما كنت التقى في (شامبيري) بواحد من (اليعاقبة) كان أستاذا لعلوم الطبيعة ، وراهبا صالحا . ولقد نسيت اسمه ، ولكنه كثيرا ما كان يقوم بتجارب صغيرة أثارت اهتمامي للغاية ، فوددت ان احذو حذوه فأصنع المسدات العاطفي^(١) . والوصول إلى هذه الغاية ، ملأت زجاجة إلى ما فوق منتصفها بالجير الحي ، وبمسادة مركبة من الزرنيخ والكبريت والماء ، ثم أحكمت سدادة . وبدأ التفاعل في الحال — تقريبا — ويعنف شديد ، فأسرعت إلى الزجاجاة لأزيل سداداتها ، ولكني لم أصل في الوقت المناسب ، فإذا بها تقفز في وجهي وكأنها قنبلة . . وابتلعت الزرنيخ والحديد والجير ، فمكنت أموت ! وقد مكثت أكثر من ستة أسابيع وأنا أعمى ، وأدركت من ذلك أنني يجب ألا أقحم نفسي في تجارب العلوم الطبيعية ، دون إلمام بالعناصر المستخدمة !

وقد ألحقت هذه المغامرة ضررا بصحتي ، التي كانت في

(١) نوع من المسدات يعرف عادة باسم « المسدات السري » ، ولعل « روسو » اشتهر المسدات العاطفي ، لأنه كان يستخدم في المراسلات الغرامية ، فبما ان يجتأ حتى يبدؤ الورقة وكأنها خالية من الكتابة ، الى أن تعرض لحرارة اللهب فيبرز ما تحتويه !

انحدار محسوس منذ فترة من الزمن . ولست أدري من أين
جاءني هذا الانهيار ، فقد كنت حسن البنيان ، ولم أكن أقدم
على أى افراط ، من أى نوع ومع ذلك فلأنتى كنت أنهار بجلاء!
ولقد كنت جيد التركيب ، عريض الصدر ، مما كان يتيح لرئتي
مراغا كافيا كي تتحركا بسهولة . . ولكنى كنت — برغم ذلك —
قصير الأنفاس ، وكنت أشعر بضيق ، وأرسل الزفرات دون
إرادة منى . ولقد أصبت باضطراب فى القلب ، وأخذت أبسق
دما ، واستولت على الحمى البطيئة التى لم تفارقنى تماما على
الاطلاق . . فكيف يقع المرء فى مثل هذه الحال وهو فى زهرة
العمر ، دون أن يكون ثمة أذى داخلى على الإطلاق ، ودون أن
يكون قد فعل ما يقضى على صحته ؟

ويقال أحيانا أن السيف يبلى القراب . وهذه هى قصتى ،
فإن شهواتى قد أحيتهنى ، وشهواتى قد أماتتهنى ! . . وقد يقال :
أية شهوات ؟ . . كانت توافه . . كانت أكثر أمور الدنيا انطباما
بالتابع الصبيانى ، ولكنها كانت تثيرنى كما كان خليقا أن يثيرنى
الاستيلاء على هيلين (١) ، أو على عرش الكون ! . . وكانت
النساء فى مقدمة هذه المثيرات ! فكانت حواسى تحتفظ بهدوئها ،
إذا ما ظفرت بواحدة ، ولكن قلبى لم يكن يعرف الهدوء قط !

(١) هيلين الطروادية : كانت أجمل نساء الأفريق ، وقد تزوجت من
« ميلاوس » ، ملك أسبرطة . . ولكن باريس — أمير طروادة — اختطفها ،
فشن أمراء اليونان حربا على طروادة دامت عشر سنوات ، وانتهت برد هيلين
إلى زوجها .

كانت مستلزمات الهوى تنهشنى وأنا فى غمرة اللذة . وكنت قد اوتيت أما حنونا ، وصديقة حبيبة ، غير أنه كان لا بد لى من مشيئة . وكنت أتمثل العشيقة المنشودة فى مكان « ماما » ، وأصورها لنفسى فى ألف صورة ووضع ، لكى أموه على نفسى ! .. ولو أنتى تفكرت — وأنا أعانقها — أنتى إنما كنت أضمر « ماما » بين ذراعى ، لما غترت حرارة عناقى ، ولكن كافة شهواتى كانت خليقة بأن تخبو ، وكنت أبكى وجدا ، ولا استمتع بلذة ! .. لذة ؟ .. افخلق هذا الحظ ليكون من نصيب الإنسان ؟ .. آه ، لو أنه قدر لى يوما — بل مرة واحدة فى حياتى — أن أتذوق كل لذات الحب فى أوج تدفقها ، فإنى أعتقد أن كيانى الهش لم يكن ليقوى على الاحتمال .. كنت قمينا بأن أموت فى مكانى !

وهكذا كنت أكتوى بالحب ، دون ما هدف . ولعل هذه الحال هى أشد الحالات أرهاقا ! .. وكنت قلقا معذبا لمساءء حال شئون « ماما » المسكينة ، ولتصرفاتها غير الحكيمة ، التى كان مآلها أن تقود إلى خرابها تماما ، فى وقت قصير . وكان خيالى القاسى — الذى يسبق المصائب دائما — يصور لى هذه المصيبة بالذات ، دون انقطاع ، وبكل مداها ، وبكافة نتائجها ! .. فرأيت نفسى ، مقدما ، مضطرا إلى أن أفترق — بحكم الفاقة — عن تلك التى كرسيت لها حياتى ، والتى لم يكن بوسعى أن أستمع بهذه الحياة ، بدونها ! .. وهكذا كنت دواها مضطرب النفس .. كانت الشهوات والمخاوف تنهشنى بالتناوب !

وكانت الموسيقى — بالنسبة لى — شهوة أخرى ، أقل عتوا ولكنها لم تكن أقل أرهاقا ، بفضل التحمس الذى ارتيمت

به في غيبتها ، وبفضل الدراسة الدائبة لكتب « رامو » المبهمة ، وبفضل إصرارى العنيد على الرغبة في أن أحشو بها ذاكرتى التى كانت ترفضها دائما ، وبفضل الجرى المستمر (١) ، وبفضل تلك المجموعات الهائلة التى كنت أراكمها ، وكثيرا ما كنت اقضى ليالى بأسرها في نسخها ..

ولكن ، لماذا اقتصر على الشهوات الدائمة ، في حين أن كل النزوات التى كانت تمر بخاطرى دون انقطاع : الاهواء العابرة التى لا تمكث سوى يوم واحد ، كرحلة ، أو حفلة موسيقية ، أو مسرحية فكهة أحب أن أشهدها .. كل هذه الأشياء التى كانت أبعد ما في الدنيا عن مسراتى وعن أعمالى ، أصبحت لدى بدورها بمثابة شهوات عديدة عنيفة ، كانت في جيشائها المستهجن تسبب لى أصدق ألوان العذاب ! .. بل إن قراءة مصائب « كليفلاند » الخيالية - وهى القراءة التى كنت أقبل عليها في نهم ، والتي كثيرا ما كنت أعجز عن الاسترسال فيها - كانت تثير أشجائى ، قهسا أعتقد ، أكثر مما كانت تثيرها مصائبى !

وكان ثمة شخص من أبناء (جنيف) يدعى السيد « باجيريه » ، عمل فترة في خدمة بطرس الأكبر في البلاط الروسى . وقد كان من أعظم الأوغاد ، ومن أشد الحمقى الذين رأيتهم في حياتى .. وكان دائما يفكر في مشروعات تماثله حماقة ، فقد كان

(١) يتعد القتل والتزمل بأشبهاء

ينثر الملايين كالطر ، ولم تكن الأصفار تكبده شيئا (١) . . . وإذا جاء هذا الرجل إلى (شامبيري) من أجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ ، فقد استولى على إرادة «ماما» ، كما كان متوقعا . وفي مقابل كنوزه من الأصفار - التي كان ينفقها بسخاء - أخذ يبتز منها تلك الدنانير البائسة ، قطعة بعد قطعة ! . . . ولم أحبه إطلاقا ، وقد أدرك هو ذلك - فما كان الأمر يوما بالهمة العسيرة (٢) - فلم يدع نوعا من الخسة لم يستخدمه كي يتقرب إلى . . . وإلى على نفسه أن يفريني بتعلم الشطرنج ، برغم أنه كان لا يحذقه ! . . . ولقد حاولت ذلك ، بالرغم من نفسي تقريبا . وبعد أن تعلمت الحركات في غير ما أكثرات بما إذا كانت صوابا أو خطأ ، إذا بتقدمي يتزايد سريعا ، حتى أنني استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى أن أرد إليه الهزيمة التي كان قد اذاقنيها في البداية ! . . . ولم أقتنع بذلك ، فقد شغلت بالشطرنج ، وابتعت طاقما ، كما اشتريت « الكالابروا » (٣) ، واحتبست نفسي في غرفتي ، ورحلت أضي الأيام والليالي في السعي لتعلم كل الحركات الافتتاحية من ظهر قلب ، وحشو رأسي بها طوعا أو كراهية ، وأنا العيب وحيدا ،

(١) يقصد أن الرجل كان يدمي الثراء وهو لا يملك شيئا .

(٢) يزيد « روسو » بذلك أن عرفان مواطنه وما يجول بنفسه ، لم يكن بالهمة العسيرة على أي شخص .

(٣) « الكالابروا » رسالة في الشطرنج ، وضعها لاعب إيطالي ماهر كان يدمي « جيواكينو جريكو » ، عاش في عهد لويس الرابع عشر .



واحتبست نفسي في غرفتي ، ورحلت اقضى الايام والليالى في التسعى
لتعلم كل الحركات الافتتاحية .

دون ما هوادة ولا نهاية ! .. وبعد شهرين أو ثلاثة من هذا العمل الشاق ، والجهود التى تفوق الخيال ، ذهبت إلى المقهى وأنا واهن ، شاحب ، متلبذ الذهن تقريبا . وقمت بتجربة ، فلعبت مرة أخرى مع السيد « باجيري » .. وهزمنى مرة ، فاثنتين ، فعشرين مرة ، فقد اختلطت كثير من الترتيبات المختلفة فى رأسى ، كما كان خيالى بالغ الوهن ، حتى أننى لم أعد أرى أمامى سوى سحابة غائمة ! .. وفى كل مرة حاولت فيها أن أتدرب لحفظ الحركات بمعونة كتاب « فيليدور » أو كتاب « ستاما » ، كان يحدث لى عين الشيء .. وبعد أن أنهك قواى ، أجد نفسى أشد ضعفا من ذى قبل . وسواء كنت قد هجرت الشطرنج ، أو أننى وجدت فى لعبه متنفسا لى ، فأننى لم أحرز أبدا أى تقدم منذ تلك الجلسة الأولى ، حتى أنى لأجد نفسى دائما حيث انتهيت إذ ذاك ، ولو أننى تدربت آلاف القرون لما انتهيت إلا إلى إعطاء « باجيري » الدور ، فحسب ! .. وقد تقول : هكذا يستغل الوقت على أحسن وجه ! .. والحق أن الوقت الذى أنفقته فى ذلك لم يكن قليلا ، وما كففت عن المحاولة الأولى إلا عندما لم تعد لدى طاقة على الاستمرار .. وعندما ظهرت خارج غرفتى ، كنت أبدو كشخص خارج من قبر . ولو أننى استمررت على النهج ذاته ، لما ظلت « خارجا من القبر » طويلا (١) ! وإن المرء ليقرب بأن من العسير

(١) يقصد أنه كئن خليفا بأن يلزم القبر .. أى يموت .

— لا سيما في تحمس الشباب — أن يدع مثل هذا الرأس جسد صاحبه في صحة !

ولقد أثر تداعى صحتى على طبعى ، كما هذا من حمية خيالى . فما أن شعرت بضغفى حتى ازددت هدوءا ، وفقدت بعض شغفى بالأسفار . وإذا ازددت استقرارا ، تعرضت لا للبلل ، وإنما للأسى والسوداء ، فإذا التهوس يحل محل الشهوات والعواطف المشبوبة ، وإذا نبولى يتقلب حزنا واكتئابا ، وأصبحت أبكى وأتهد دون ما سبب ، وشعرت بأن الحياة ثقلت منى دون أن أكون قد تذوقتها ، وأخذت أتصر على الحال التى سأترك « ماما » البائسة فيها ، وعلى الحال التى كنت أراها موشكة على التردى فيها . . ويوسى أن أقول أن فراقها وتركها فى مسغبة كان مصدر أساى الوحىسد ! . . وأخيرا ، سقطت مريضا حقا ، فراححت تعنى بى كما لم تمن أم بطفلها ، وقد كان فى هذا خير لها هى الأخرى ، إذ حولها من المشروعات، وصرفها عن أصحاب المشروعات . . ما كان أمذب الموت لو أنه جاء إذ ذاك ! . . وإذا لم أكن قد استمتعت بكثير من نعم الحياة ، فأتنى لم أشعر إلا بقليل من محنها . وكانت روحى الوادعة خليفة بأن ترحل دون الشعور القاسى بظلم الناس . . الشعور الذى يسهم الحياة والموت ! . . وكنت أجد

المعزاء في أنني كنت أحييا في النصف الأفضل من نفسي (١) ، وهذا لا يكاد يعتبر موتا ، ولولا القلق الذي كنت أستشعره إزاء حظها ، لقضيت نحبي وكأنتي أستسلم للنعاس . . بل إن هواجسي كانت ذات نهاية رقيقة لطيفة ، خففت من مرارتها . . ولقد قلت لها يوما ، « إن كل كياني بين يديك ، فاسعديه ! » . . وحدث في مرتين أو ثلاث - عند ما كنت في أسوأ حال - أن نهضت في الليل ، وجررت نفسي إلى غرفتها ، لكي أقدم لها نصائح بصدد تصرفاتها . . نصائح أجروا على القول بأنها كانت مائلة وحكيمة ، ولكن اهتمامي بمصير « ماما » كان يغلب في هذه النصائح على كل شيء آخر . . وكأنها كانت الدموع غذائي ودوائي ، فقد كنت أستمد قوة من تلك الدموع التي كنت أنفها في قريبا ، وأنا معها ، جالسا على سريرها ، ممسكا بيديها بين يدي . وكانت الساعات تنصرم ونحن مستغرقان في هذه الأحاديث الليلية ، ثم أعود إلى غرفتي وأنا أحسن حالا مما كنت حين بارحتها ، وقد اغتبطت واطمأنت للوعود التي عاهدتني عليها ، والآمال التي بثتها في نفسي . . وإذ ذاك ، كنت أنام بقلب مطمئن ، وبثقة في العناية الإلهية . إنني لأدمو الله - بعد أن تعرضت لكثير من الأسباب التي تدمو إلى كراهية الحياة وبعد كثير من العواصف التي هزت حياتي وجعلتها

(١) اسمه الأمتل في مدام دي نيران ١

مجرد عبء — أن يكون الموت الذى قدر له أن يختم هذه الحياة ، أقل قسوة مما كان فى تلك اللحظة !

وبفضل العناية ، والسهر ، والضنى الذى يفوق التصور ، استطاعت « ماما » أن تنقذنى ، ومن المحقق أنها الشخص الوحيد الذى كان بوسعه إنقاذى . فقد كان إيمانى ضعيفا بدواء الأطباء ، ولكنى أوتيت إيماناً عارماً بدواء الأصدقاء الصادقين . والأشياء التى يتوقف عليها هناؤنا ، تفضل كثيراً كافة الأشياء الأخرى ! .. وإذا كانت فى الحياة عاطفة مستعذبة ، فإنما هى تلك التى استثمرناها إذ عاد كل منسا إلى الآخر . ولم يزد شغلنا المتبادل — فما كان من الممكن أن يزداد — ولكنه اتخذ مزيداً من الألفة ، لا أدرى كيف أشرحه . .. وفداً ، فى بساطته الضافية ، أشد تأثيراً ! .. وهكذا أصبحت بكل كيائى صنع يديها . أصبحت ابنها تماماً ، بل وأكثر مما لو أنها كانت أمى حقاً ! .. ودون ما تفكير أو قصد ، لم نعد نفرق ، بل بدأنا ندمج كيائينا فى وجود مشترك ، وداخلنا شعور مشترك بأن كلا منا لم يكن لازماً للآخر بحسب ، وإنما كان فيه الكفاية والغناء له من سواه . .. فعودنا نفسينا على ألا نفكر فى أى شيء غريب عنا ، وعلى أن نقصر سعادتنا وكل شهواتنا قصراً تلما على ذلك « الانتناء » المتبادل (١) ، الذى أحسب أنه كان

(١) يقصد بالانتناء المتبادل ، الملاحة الجلسية الكاملة بينه وبين مسدام

مريدا في نوعه بين البشر ، والذي لم يكن — كما قلت — صادرا
عن هوى محسب ، وإنما كان اقتناء أكثر واقعية من المألوف . .
كلن — دون ما استناد إلى الاحاسيس أو الجنس أو السن
أو المظهر — يرتبط بكل مقومات شخصية الفرد !

ترى كيف قدر لهذه المحنة ألا تجتلب السعادة إلى حياتنا،
حتى آخر أيام « لما » وأيامي ؟ . . لم يكن هذا ذنبي ، ولدى
من الدليل ما يعزيني ! . . كذلك لم يكن ذنبا هي ، أو لم يكن
بإرادتها ، على الأقل ! . . فلقد كتب للطبيعة التي لا تلين ، أن
تفرض سلطانها (١) سريعا . على أن هذه النكسة المشنومة لم
تكن مفاجئة ، بل كانت ثمة مهلة ، والحمد للسماء ! . . كانت
ثمة فترة قصيرة ، وغالية ، لم تكن نتيجة ذنب مني ، ولست
الوم نفسي أو اتهمها بإساءة استغلالها !

ذلك أننى — وإن كنت قد شفيت من مرضى الخطير — إلا
أننى لم استعد قط قواى . فما عادت لصدري عافيته ، وإنما
لازمتنى دائما بقية من الحمى ، جعلتنى في قبول وكلل . فلم
أعد أصبوا إلى شىء سوى أن أنفق أيامى إلى جوار تلك التي
كانت عزيزة لدى ، وأن أعضدها في ثواياها الطيبة ، وأن أتمكنها

(١) يرى « روسو » بهذا إلى أن حكم الطبيعة — مثلا في الشغل الذي
أصاب صحته — هو الذي مرض عليه وعلى مدام دي فلران ألا يستمرا في
سعادتهما إلى نهاية عمرهما .:

من أن تحس بما للحياة الهائلة من سحر حقيقي ، وأن أجعل حياتها على هذه الشاكلة ، فيما يتوقف على . بيد أنني رأيت — بل شعرت — أن العزلة المستمرة التي كانت تجمعنا في بيت معتم كئيب ، لن تلبث أن تتسم هي الأخرى بطابع حزين . ولاح لنا علاج ذلك ، وكأنه قفز من تلقاء نفسه ، حين أوصتني « ماما » باللبن ، ورغبت في أن أذهب إلى الريف لاتناوله هناك . ووافقتها على شريطة أن تذهب معي . وكان هذا كافيا لأن تعقد مزمها ، ولم يبق سوى أن نختار المكان . ولم يكن البستان القائم في الضاحية ، من الريف تباعا . . إذ أنه — لوقوعه بين منازل وبساتين أخرى — لم يؤت فتنة المكان الريفى الملائم للاستجمام . . فضلا عن أننا — عقب موت « آنيه » — تخطينا من البستان رغبة في الاقتصاد ، إذ لم يعد يراودنا الشوق إلا نباتاته النادرة ، كما أن ثمة اعتبارات أخرى حملتنا على أن نأسف على فقد هذا المعزل !

وانتهزت — إذ ذاك — فرصة الشعور بالملل الذي لمسته عندها نحو المدينة ، فاقترحت عليها أن تهجرها نهائيا ، وأن نستقر معا في عزلة مستحبة ، في دار صغيرة على بعد كاف لأن يصد المتطفلين ! ولقد كانت على استعداد لأن تفعل ، وكان هذا الاقتراح الذى ألهمنى إياه ملاكها الحارس وملاكى ، كفيلا بأن يضمن لنا — حقا — أياما سعيدة هادئة ، حتى اللحظة التي يفرق فيها الموت بيننا . ولكن هذا لم يكن الحظ الذى قدر

لنا ، فقد كتب على « ماما » أن تبتلى بكل بلايا الفاقة وسوء الحال — بعد أن قضت عمرها في الرخاء — حتى تغادر الدنيا وهي غير آسفة عليها . . أما أنا ، فقد كتب على أن أعانى التعاسات — من كل نوع — كي أصبح يوما مثالا للمرء الذي لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة ، بحيث يجرؤ — وهو غير مسلح بغير براعته وحسدها — على أن يقول الحقيقة للناس جهارا ، دون مؤازرة الانصار ، ودون أن يؤلف حزبا لحمايته !

ولقد عمل هاجس تعس على استبقاء « ماما » ، فلم تجرؤ على أن تهجر بيتها الحقير ، خوفا من أن تغضب مالكة . وقالت لى : « إن فكرة العزلة التى تقترحها بديعة ، وإنها لتروق لى ، ولكن لابد من تدبير أسباب العيش ، حتى فى العزلة . وإنى لأتعرض — بمبارحة سجنى — لأن ألقى بمصدر عيشى ، فإذا لم يعد لدينا خبز فى الغابات ، أصبح من المحتوم علينا أن نعود إلى المدينة بحثا عنه . ولكى نقلل من حاجتنا إلى العسودة ، يجب ألا نهجر المدينة نهائيا . . فلندفع هذا الايجار البسيط للكونت دى سان لوران ، حتى يدع لى معاشى (١) ، ولنبحث عن ماوى

(١) فكلم « روسو » من قبل أن « سان لوران » كان مشرعا على الشئون المالية لـإسلاط ملك مـردينيا ، وأن مدام دى لوران لم تطمن إلى استئجار معاشها إلا بعد أن استأجرت منه ذلك البيت الحقير ، فاكسبت بذلك ودهـ

منعزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكنا من العيش في دمة ، وقريب منها بحيث نستطيع أن نعود إليها في الحال ، إذا ما دعت الضرورة » . . وهذا ما جرى ، فبعد بحث قصير ، استقر بنا المقام في (سارميت) ، وهي ضيعة كان يمتلكها السيد دي كوتزيه ، على مشارف (شامبيرى) ، ولكنها منعزلة وغير مطروقة ، حتى وكأنها تقع على مائة فرسخ منها . . فبين ثلثين مرتفعين ، يمتد - شمالا وجنوبا - واد صغير ، يجرى في أسفله جدول ، تحف به الصخور والأشجار . وعلى أحد الجانبين - بطول هذا الوادى - بضعة بيوت متناثرة ، تناسب كل المناسبة أى امرئ يهفو إلى ماوى خلوى منعزل . وبعد أن تفرجنا على بيتين أو ثلاثة - من هذه البيوت - اخترنا في النهاية أبعدها ، وكان ملكا لسيد فى خدمة الحكومة يدعى السيد « نواريه » . وكان البيت جد ملائم للسكنى ، تقوم أمامه حديقة مرتفعة عن سطح الأرض ، تعلوها كرمة ، ويمتد تحتها بسستان ، وفي مواجهتها غابة من اشجار البلوط ، ونبع قريب . وعلى مرتفع من الجبل ، مروج لرعى الانعام . ومجمل القول ، توفرت فيه كل مستلزمات الأسرة الريفية الصغيرة التى كنا نعزم إيواها هناك . ويقدر ما استطيع أن أتذكر الأزمان والتواريخ ، تسلمنا البيت حوالى نهاية صيف سنة ١٧٣٦ . ولقد طربت فى أول ليلة قضيناها هناك ، فقلت لصاحبتى العزيزة وأنا أمانتها وأغرقها بدموع الحب والابتهاج : « أواه ، يا ماما ! . . ان هذا

١٦٢. اعترافات جان جاله روسو - الجزء الثاني

المقر لهو وكر الهناء والبراءة . . فإذا لم نجدهما هنا - وكل
منا مع الآخر - فليس لنا أن نرجو العثور عليهما في أي
مكان ! « (١) » .

(١) في أوائل القرن التاسع عشر ، آل هذا البيت - الذي أقام فيه روسو
ومدام دي فاران - إلى كاتب كانت له مؤلفات أدبية وعلمية ، وقد أصبح
في سنة ١٨١٧ كتيبا عن (شارميت) ، سجل فيه كل صنفرة وكبرة من
أوصاف هذا البيت الذي اعتاد السياح أن يترددوا عليه . وقد ثبتت إلى
جدار المنزل - بقرب مدخله - لوحة حجرية أمز بوضعها « هيرلو سيشيل »
في سنة ١٧٩٢ - عندما كان حاكما للمنطقة - وقد نقشت عليها أبيات
شعرية للذكرى ، هذا معناها :

« أيها المأوى الذي شغلته جان جاك . . أنك لتذكرنى بعقريته ، وبحببه
للعزلة ! وبتميمته وحببته . . وبصقله وطيشه . . لقد جرى على أن يكرم
عيلاته للمجد والمهجة . . وكان دائما مشغولها ، أما بنفسه وأما بالحاسدين ! »

الكراسة السادسة

سنة ١٧٣٦

« هاك كل ما كنت أتمنى : قطعة أرض غير شاسعة ،

« وحديقة ، ونبع ماء فياض بقرب الدار ،

« وإلى جانب هذا .. غابة صغيرة .. »

ولم استطع قط أن أضيف إلى هذا :

« لقد حبتنى الآلهة .. بأكثر مما انتهيت » (١)

ولكن لا بأس ، فما كنت بحاجة إلى أكثر من ذلك ، بل
إننى لم أكن بحاجة إلى أن أمتلك هذه الأشياء ، وإنما كان
يكفينى أن أستمتع بها ! .. ولقد قلت — وشعرت — منذ أجل
طويل ، أن المالك والمتنعم كثيرا ما يكونان شخصين جد مختلفين ،
حتى إذا أقصينا الأزواج والعشاق من المقارنة !

هنا يبدأ هناء حياتى القصير ، وهنا أقبلت اللحظات
الواعدة — وإن كانت وجيزة — التى أباحت لى الحق فى أن أقول :
« إتنى مشيت » ! .. أيتها اللحظات الغالية ، التى آسى عليها
كل الآسى .. إلا أبدئى من جديد — من أجلى — سريانك
الحبيب ، وتتابعى فى ذاكرتى أكثر بظنا مما كنت فى فرارك فى

(١) هذه الأبيات من اشعار « هوراس » ، وقد أوردها « روسو »

باللاتينية ، وعلق عليها بالسخر الذى قطع به تتابعها .

الواقع ، إذا كان هذا ممكنا ! .. كيف لى بأن أطيل — كما
أشاء — هذا الحديث المؤثر ، الساذج ، فأردد نفس الأقوال
دائما ، دون أن أبعث في نفوس قرائى — بتكرارها — ساما ،
اللهم إلا إذا سئمت أنا نفسى العود إلى ترديدها دون انقطاع !
.. كذلك ، ليت كل هذا يتألف من وقائع ، ومن أعمال ، ومن
أقوال أستطيع أن أصنها وأن أردّها إلى الحياة بطريقة ما ،
ولكن .. كيف لى أن أقول ما لم يقل ، ولم يفعل ، ولم يطف
بخاطر ، ولكنه استمرى ، بل استشعر — ولست أملك
أن أبين أى سبب آخر لهئائى سوى هذا الشعور البسيط ؟
.. كنت أستيقظ مع الشمس ، وأنا سعيد .. فأتمشى ، وأنا
سعيد .. وأرى « ماها » ، وأنا سعيد .. وأفارقها ، وأنا
سعيد .. وأهيم في الغابات والربى ، وأرتاد الوديان ، وأقرأ ،
وأقعد عن العمل ، وأفلق الحديقة ، وأجنى الزهور ، وأساعد
في أعمال البيت .. والهناء يتبعنى في كل مكان .. لم يكن
يتحصر في شيء معين ، وإنما كان يشيع في كل كيانى ، ولم يكن
يفارقنى لحظة واحدة !

ما من شيء جرى لى أثناء تلك الفترة الحبيبة ، ولا من شيء
فعلته أو قلته أو فكرت فيه إبانها ، إلا بقى فلم يتسرب من
ذاكرتى . ان الأوقات التى سبقته ، والأوقات التى لحقته ،
لا توافى ذهنى إلا بين آن وآخر ، فأذكرها دون تمييز ، وفي تخبط
.. ولكنى أذكر هذه الفترة بأسرها ، وكأنها ما تزال باقية ! إن
خيالى الذى كان يتطلع دائما إلى الأمام — في شبابى — والذى
أصبح اليوم يلتفت إلى الوراء ، يعوضنى بهاتين الذكريتين

الفاقتين من الرجاء الذى فقدته إلى الأبد ! فانتى لم اعد أرى فى المستقبل ما يستهوينى ، بل إن رجعات الماضى وحدها هى التى تستطيع أن تهنو بعواطفى . . وهذه الذكريات تمتاز — فى الفترة التى أتحدث عنها — بأنها بالغة الحيوية والصدق ، حتى أنها كثيرا ما تجعلنى أحيا سعيدا ، برغم بؤسى وسوء حظى !

وانى لأقدم من هذه الذكريات مثلا واحدا يمكن من الحكم على وضوحها وصدقها : ففى أول يوم ذهبنا فيه كى نبيت فى (شارميت) ، كانت « ياما » فى محفة محمولة على الأكتاف ، بينما تبعتها على قدمى . وكان الطريق صاعدا ، وهى ثقيلة الوزن — بعض الشيء — مخشيت أن تضاعف من إنهاك قوى الحملين ، ورغبت فى أن تهبط فى منتصف الطريق تقريبا ، لتقطع ما تبقى منه على قدميها . وغيا كانت تسير ، رأيت شيئا أزرق فى الحسك (١) ، فقلت لى : « ها هو القضايب (٢) لا يزال مزهرا ! . ولم أكن قد رأيت القضايب قط ، ومع ذلك فانتى لم انحن لفحصه ، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكننى من أن أقبين النباتات التى على الأرض ، إذا كنت أقف منتصب العامة . واكتفيت بأن ألقى نظرة على ذلك النبات ، وأنا أمر به . . ولقد مرت ثلاثون سنة تقريبا ، قبل أن أرى أى قضايب — مرة أخرى — أو ألقى إليه بالا . وفى سنة ١٧٦٤ ، كنت فى (كريسييه) مع صديقى السيد « دى بيرو » ، فمسلقنا جبلا صغيرا تقوم

(١) الامشاب الشوكية التى تحد بالطريق .

(٢) نوع من النباتات البرية

على قمته استراحة (صالون) بديعة ، تسمى بحق « بيلفى »
— المنظر الجميل — وكنت قد بدأت إذ ذاك أهوى دراسة
الأعشاب ، بعض الشيء . وفيما كنا نصعد ، ونحن نتأمل
الأدغال ، إذا بى أطلق صيحة جذلانة : « آه ! .. ها هو ذا
القضيب ! » .. وكان ذلك حقا . ولاحظ « دى بيرو » فرحى ،
ولكنه جهل سببه . ولسوف يعرفه ، إذ أننى أرجو أن يقرأ
يوما ما كتبت هنا . ويوسع القارىء أن يحكم — من الأثر الذى
أحدثته فى نفسى مناسبة نافهة كهذه — على مدى التأثير الذى
يحدثه كل ما يمت إلى تلك الفترة !



على أن جو الريف لم يرد إلى صحتى السابقة إطلاقا .
فلقد كنت ذابلا ، وقد ازدادت حالى سوءا ، ولم أعد أطيع اللبن ،
فلم يكن ثمة بد من التحول عنه . وكان الماء هو العلاج الشائع
— إذ ذاك — لكل داء ، فأقبلت على الماء فى غير ما حكمة ، حتى
أنه كاد يشفينى ، لا من عالى ، وإنما من حياتى (١) ! .. غفى
كل صباح ، كنت أذهب — عندما أستيقظ — إلى النبع ، حاملا
وعاء كبيرا . وهناك ، كنت أشرب على التعاقب — وأنا أتمشى —
ما يعادل ملء زجاجتين . وتحولت نهائيا عن تناول النبيذ فى
وجباتى . وكان الماء الذى اعتدت شربه عسر الهضم قليلا ،

(١) هذا هو نمى تعبير « روسو » . ومن الطريف أن كلمة « يشفى »
— فى العربية — تعنى « يبرىء » ، كما تعنى « يهلك » . وهو عين ما أراد «
« روسو » !

شان معظم مياه الجبال . . . وموجز القول اننى ظللت على نهجى ،
حتى اننى — فى اقل من شهرين — اتلقت تماما معدتى التى
كنت احتفظ بها حتى ذلك الوقت فى خير حال ! واذا لم تعد
تهضم ، أدركت اننى لا ينبغى أن أرجو لها شفاء . . . وفى ذلك
الحين بالذات ، وقع لى حادث كان غريدا فى نوعه وفى عواقبه
التى لن تنتهى إلا بانتهاء حياتى !

فنى ذات صباح لم اكن فيه أسوأ حالا من المعتاد ، كنت
ارفع مائدة صغيرة على قوائنها ، وإذا بى اشعر باضطراب حاد
— لا يكاد يبدو له سبب — فى جميع جسمى . ولست أجد له
تشبيها افضل من أنه كان مثل نوع من عاصفة هبت فى دمي ،
وانتشرت لتوها فى كل أعضاء جسمى ! واخذت عروقى تنبض
بقوة هائلة ، حتى اننى لم اشعر بنبضها فحسب ، وإنما
سمعتها ، لا سيما نبض الشرايين السباتية . وقد صاحب ذلك
ضوضاء هائلة فى أذنى ، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة
او أربعة انواع : طنين قوى مكتوم ، وخرير واضح كأنه ينبعث
من ماء جار ، وصفير حاد جدا ، ثم النبضات التى ذكرتها ،
والتي كان يوسعى أن أمد دقائقها دون أن اجس نبضى أو أمس
جسمى بيدي ! وكان هذا الصخب الداخلى من الضخامة بحيث
أنه حرمنى من إرهاب السمع الذى كان لدى قبل ذلك ، وجعلنى
ثقيل السمع — لا أصم تماما — كما هو شائى منذ ذلك الحين !

وفى الوسع تقدير دهشتى وانزعاجى ، فقد خيل إلى اننى
أموت ، ولزمت سريرى ، واستدعى الطبيب فرويت له حالى
وأنا ارتجف ، إذ كنت أعقبرها بلا علاج ! واعتقد أنه شاركنى

هذا الرأي ، ولكنه قام بما تحتمه عليه مهنته ، وراح يسرد على تعليقات طويلة لم أفقه منها شيئاً البتة ، ثم عمد — تمشياً مع نظريته الرفيعة الشأن — إلى إجراء « تجارب على كائنات حية » (١) ، وهو العلاج التجريبي الذي طاب له أن يجربه معي ، وكان جد أليم ، ومثير ، وقليل المفعول ، حتى أفنى سرعان ما تحولت عنه . . وبعد بضعة أسابيع ، رأيت أنني لم اتحسن ، ولا ازددت سوءاً ، فغادرت مرأشئ ، واستأنفت حياتي العادية ، مع استمرار نبض عروقي وطيني أنني ، اللذين لم يفارقاني دقيقة واحدة ، منذ ذلك الحين . . أي منذ ثلاثين عاماً !

وكنيت حتى ذاك الوقت كثير النوم ، فإذا الحرمان التام من النوم — الذي رافق كل هذه الأعراض ، والذي ظل يلزمها باستمرار حتى الآن — انتهى إلى إقنامي بأنه لم يبق أمامي أجل طويل في الحياة . وقد هذا الاقتناع من اهتمامي بالشفاء ، فترة من الزمن . وإذا رأيت أن ليس بوسعني أن أطيل من حياتي ، فقد اعتزمت أن أفيد بأكبر شطر ممكن مما تبقى لي من العمر . وهذا ما تسنى لي بفضل صنيع فذ أسدته لي الطبيعة ، إذ أمفنتني — في مثل هذه الحال المشثومة — من الآلام التي يبدو أنها كانت قمينة بأن تنتابني . كنت أنضايق من هذه الضوضاء في أذني ، ولكني لم أكن أعاني منها ، كما أنها لم تكن مصحوبة بأية مضايقات مستمرة أخرى ، اللهم إلا الأرق

(١) IN ANIMAL VILI اصطلاح يطلق على التجارب العلمية التي

تجرى عادة على الحيوانات .

فى اثناء الليل ، وبضيق دائم فى التنفس ، لم يكن ليرقى إلى درجة الربو ، ولا كان يبدو محسوسا إلا عندما أحاول الجرى ، أو أرهق نفسى فى العمل أكثر مما ينبغى قليلا .

هذا الحادث — الذى كان خليقا بأن يقتل بدنى — لم يقتل سوى شهواتى ، وانى لأبارك السماء فى كل يوم لهذا الأثر السعيد الذى أحدثته فى نفسى . واستطيع أن أقول إننى لم أبدا العيش إلا حين اعتبرت نفسى رجلا ميتا ! . وبينما رحت أقدر الأشياء — التى كنت مزعما أن أتخلى عنها — بقيمتها الحقيقية ، شرعت أشغل بالى بأمور أسمى وأنبى ، وكأنما كنت أريد أن أستبق الزمن إلى تلك الأمور التى كان ينبغى أن أبادر إلى أدائها، والتى كنت قد أهملتها — حتى ذاك الحين — إهمالا شديدا . كنت كثيرا ما أفسخ الدين وفقا لهوائى ، ولكننى لم أكن قط بلا دين على الإطلاق . ولم يكن يكبدنى شيئا أن أعود إلى هذا الموضوع الكئيب بالنسبة لكثير من الناس ، ولكنه لطيف بالنسبة لأمريء ينشد فيه مادة للأمل والعزاء . . وكانت « ماما » — فى هذا الصدد — أكثر نفعا لى من كل رجال الدين قاطبة ! . . فلم تغفل — وهى التى اعتادت أن تضع لكل شيء نهجا خاصا — عن أن تطبق هذا على الدين كذلك . وكان منهجها يتألف من إنكار جد متباينة ومفككة : بعضها معقول للغاية ، والأخرى طائشة جدا . . ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها ، ومن أفكار قديمة تبعت من تربيتها . فالقاعدة أن المؤمنين يمثلون الله على ضوء أنفسهم ، فالطييون يمثلونه طيبا ، والخبيثون يمثلونه خبيثا . . والمؤمنون الحقودون والمتشائمون ، لا يرون سوى الجحيم ، لأنهم يبتغون النعمة للدنيا بأسرها . . أما النفوس المحبة

والوادة ، فإنها لا تخشى الجحيم إطلاقاً ! . . ومن المدهشات التي لم يقدر لي أن اتغلب عليها قط ، أن رأيت « فينيلون » الطبيب (١) يتحدث عن ذلك في مؤلفه « تيليماك » ، وكأنه كان يؤمن به حق الإيمان ! . . على أنني أرجو أن يكون قد لجأ - إذ ذاك - إلى الكذب . . إذ أنه لا يد للمرء ، بالرغم من كل اعتبار ، من أن يكذب أحياناً ، إذا ما كان أسقفاً ! - وهذه حقيقة يعرفها الجميع ! - أما « ماما » ، فلم تكذب على . كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض ، لا تقوى على أن تتصور لها منتقماً دائماً السخط ، وما كانت لترى في الله سوى الرحمة والشفقة ، في حين أن الأتقياء لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب . وكثيراً ما كانت تقول لي أنه ليس من العدالة في شيء أن يتشدد الله القصاص منا ، لأنه لم يمنحنا ما يلزم لكي نكون كما ينبغي ، ومن ثم فإن القصاص يكون بمثابة مطالبتنا بأكثر مما منحنا ! . . والغريب في الأمر ، أنها - برغم عدم إيمانها بالجحيم - لم تتخل قط عن إيمانها بالمطهر (٢) ، وقد تأتي هذا عن أنها لم تكن تدري ما تفعله بالنفوس الشريرة ، فما كانت تملك أن تدبغها بالشر ، ولا كانت تملك أن تسلكها في الصالحين ريثما تفسدو صالحة فعلاً . . ولا بد في الواقع من الاعتراف - سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة - بأن الأشرار مصدر حيرة دائماً !

Fénélon, Télémaque. (١)

(٢) المطهر في المعتقدات الدينية ، هو الطريق الذي يفضى من النار إلى

الجنة ، ويعتني فيه البشر - عقب الموت مباشرة - مدة للتكفير عن خطاياهم قبل أن يصبحوا أهلاً لدخول الجنة !

وهناك أمر غريب آخر ، فمن الواضح أن نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير ، تنهار بفضل هذا النهج ، حتى أن أساس المسيحية الشائعة ليهتز ، وحتى أن الكاثوليكية لا تعود قادرة على أن تظل قائمة . ومع ذلك فقد كانت « ماما » كاثوليكية صالحة ، أو كانت تجهر بذلك ، ومن المؤكد أنها كانت تصدر في جهرها من إيمان جد صحيح . وكان يبدو لها أن الناس اعتادوا أن يفسروا الكتاب المقدس في حرفية وتزمت أكثر مما ينبغي . . . وكان يلوح لها أن كل ما يقرأ عن العذاب الأبدى يجب أن يؤخذ على أنه وعيد أو مجاز وكفاية . . . وكان موت المسيح يتراعى لها مثالا للخير القدسي ، يرشد الناس إلى أن يحبوا الله وأن يتحابوا فيما بينهم على قراره ! . . . وموجز القول ، أنها كانت ونية للديانة التي اعتنقتها ، وقد تقبلت في إخلاص كل مقررات العقيدة . . . غير أنه كان يبدو منها — إذا ما توقفت في كل مادة على حدة — أن عقيدتها تختلف تماما عن الكنيسة التي كانت تقر لها بالولاء دائما . . . ولقد أوتيت — فوق ذلك — سذاجة قلب ، وصراحة أكثر تأثيرا من أي رياء . وكثيرا ما كانت هذه الصراحة تحير الناس ، حتى الراهب الذي اعتاد أن يلقى اعترافاتها ، والذي لم تكن تخفى عنه شيئا ، ففسد اعتاد أن تقول له : « إنني كاثوليكية صالحة ، وأود أن أكون دائما كذلك . . . واني لا اعتنق — بكل طاعة نفسى — مقررات أمنا الكنيسة المقدسة ، على أنني لا أتحكم في إيماني ، وإن كنت أتحكم في إرادتي ، فأسيطر عليها دون ما تحفظ . واني لراغبة في أن أؤمن كل الإيمان ، فبماذا تطالبني فوق هذا ؟ » .

وإني لأعتقد بأنها كانت خليفة بأن تتبع القانون الخلقى المسيحى — ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقى مسيحى — لأن مبادئه تتمشى تماما مع أخلاقها . وكانت تفعل كل ما يأمر به ، لكنها كانت قهينة بأن تفعله ولو لم تؤمر به ! . . . وكانت تحب أن تبدى طاعتها فى الأمور غير المهمة : فمثلا لو كان أكل اللحوم مباحا — بل لو أنه كان مفروضا — فى أيام الصوم ، لصامت عنه فيها بينها وبين الله ، دون أية حاجة لمراعاة الاعتبارات التى تملئها الحكمة . ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تتبع دائما مبادئ السيد « دى تافيل » (١)، أو بالأحرى كانت « ماما » تدمى أنها لا ترى تناقضا بينها ، فكانت على استعداد لأن تضاجع مشرين رجلا — فى كل يوم — وهى مطمئنة الضمير ، دون أن يكون لها هم سوى إرضاء الشهوة . وإني لأعرف أن كثيرات من المتدينات لسن أكثر منها ترددا فى هذه الناحية ، ولكن الفارق بينها وبينهن هو أنهن يفسقن إلى الفجائية بفضل شهواتهن ، فى حين أنها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية ! . . . ولقد كانت فى أثناء أكثر الأحاديث العاطفية نائرا — بل وأجرؤ على أن أقول : أكثر الأحاديث التهذيبية عبرة — تنساق إلى هذا الموضوع ، فلا تتغير هيأتها ، ولا تتغير لهجتها ، ولا يخطر ببالها أنها تناقض نفسها . بل إنها كانت تقطع تلك الأحاديث — إذا دعت الحاجة — لتتكم فى هذا الموضوع ، ثم تعود إلى حديثها الأول بنفس الهدوء

(١) سبق لروسو أن ذكر أن المسيو دى « تافيل » قد أسد بمعتقدات مدام دى غوران ، فى سبيل بلوغ ماويه منها غامسى فى نفسها الاقتصار بأن إرضاء شهوات النفس لا يتعارض مع إرضاء الله والضمير !

السابق . . وهكذا كانت صادقة في اقتناعها ، إلى درجة أن الأمر كله لم يكن يعدو أن يكون — في نظرها — مبدأ اجتماعيا يستطيع كل من أوتى إدراكا أن يؤوله أو يطبقه أو ينبذه ، وفقا لنظرته إلى الموضوع ، دون أقل تعرض للإساءة إلى الله !

ومع أنني — بالتأكيد — لم أكن أرى رأيها في هذا الموضوع ، إلا أنني أعترف بأنني لم أجرؤ على معارضتها ، خجلا مني من أن أبدى من قلة اللطف والأدب ما كانت تتطلبه المعارضة . ولقد كان بوسعني أن أضع قاعدة للآخرين ، وأن أحاول أن استثنى نفسي منها (١) . ولكن طباع «ماما» لم تكن فيها الوقاية الكافية لها من أن تسوء استغلال مبادئها ، كما أنني كنت أعرف أنها امرأة لا تميل إلى التقلب والتلون ، وأن استباحة الاستثناء لنفسني كان معناه أن أدع لها فرصة إباحته لكل من يروق لها ! . . على أنني أورد هذا التناقض هنا — بين ما أورد من تناقضات — بحض المصادفة ، برغم أنه كان دائما قليل الأثر في سلوكها ، بل إنه لم يكن ذا أثر البتة ، في ذلك الحين . . غير أنني وعدت بأن أعرض مبادئها في صدق وإخلاص ، وإني لراغب في أن أتى بوعدي .

(١) كان روسو لا يقر مدام دي غارون في فلسفتها السفسطائية التي لعنها أياها المسيو دي تاكيل . ولكن هذه الفلسفة بالذات ، هي التي يسرت له أن يصبح مشيقا لمدام دي غارون ، علو أنه هدم هذه الفلسفة — لينتج تيسام مثل هذه العلاقة بين السيدة وغيره من الرجال — لتحتم عليه أن يبحث عن سبيل ليستثنى نفسه ، حتى لا يهجم من جهة !

ولأرجع ثانية إلى الحديث عن نفسي . . فما إن وجدت لدى « ماما » كل المبادئ التي كنت بحاجة إليها لأعزز نفسي ضد مخاوف الموت وما وراءه ، حتى أقبلت بإطمئنان على هذا المصدر للثقة ، وأصبحت أكثر تعلقاً بها منى في أى وقت آخر ، وكأنها كنت أود أن أنقل إليها الحياة التي كنت أحس بأنها توشك أن تهجرني ! . . وترتبت على مضاعفة تعلقى بها ، وعلى الاقتناع بأنه لم يبق أمانى في الحياة سوى أجل قصير ، وعلى رضائى العميق بما كتب لى في المستقبل . . ترتبت على كل هذا ، حالة دائمة من الطمانينة — بل ومن اللذة — خمدت فيها كافة الانفعالات التي تنأى بالهواجس والآمال عنا ، ولكنها — في الوقت ذاته — تركتني أنعم في سكونية ، ودون ما هم ، بما تبقى في صمري من أيام ! . . وكان ثمة عامل ساهم في جعل هذه الحال أكثر مذكوبة ، ذلك هو السعى إلى تنمية ميل « ماما » إلى الريف ، بكل وسائل اللهو والتسلية التي كان بوسعى توفيرها . وفيما كنت أحملها على أن تحب حديقتهما ، وساحة دواجنهما ، وحمائمهما ، وبقراتهما ، اكتسبت أنا الآخر ميلاً نحو هذه جميعاً ، وإذا بهذه الشواغل البسيطة — التي كانت تملأ نهاري دون أن تعمرك صفائى — تجدني تحسناً في صحتي يفوق ما أجدانيه اللبن وسائر الأدوية الأخرى التي استخدمت للمحافظة على كيائى البائس ، إلى أقصى ما كان ممكناً !

ووجدنا في قطف الثمار وجنى الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام ، فأخذنا نزداد شغفا بالحياة الريفية ، وسط الناس الطيبين الذين كانوا يحيطون بنا . وشهدنا اقتراب الشتاء



ووجدنا في قطف الثمار وجنى الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام

يأسف بالغ ، فعدنا إلى المدينة وكأننا كنا نذهب إلى منفى . .
لا سيما أنا ، إذ كنت في ريب من أننى سأشهد الربيع مرة
أخرى ، فاعتقدت أننى ودعت (شارميت) إلى الأبد . ولم
أبرحها دون أن أقبل الأرض والأشجار ، ودون أن أرتد إليها
مدة مرات كلما ابتعدت عنها ! ولما كنت قد تخلّيت — منذ زمن
طويل — من تلميذاتى ، وفقدت شغفى بمسلاهى المدينة
ومجتمعاتها ، فأننى لم أعد أفاخر البيت ، ولم أعد أرى أحدا
سوى « ماما » والسيد سالومون ، الذى أصبح — منذ قليل —
طبيبها وطبيبى . . وكان رجلا أميناً ، فكياً ، « كارتى » (١)
متحمس ، يحسن الحديث عن نظام العالم ، وقد عادت على
أحاديثه العذبة ، المفيدة ، بخير يفوق ما عادت على به كل
وصفاته الطبية . وما كنت لأطلق يوماً ذلك القباء وذاك
التخبط الأحمق الذى تحفل به الأحاديث العادية ، ولكن الأحاديث
النافعة الدسمة تبعث دائماً فى نفسى سروراً عارماً ، وما اعتدت
أن أرفضها قط ! . . وقد تولانى ميل شديد إلى أحاديث السيد
سالومون ، فقد لاح لى أننى كنت أكتسب معه — سلفاً — تلك
المعلومات الرقيقة التى كان مقدراً لروحي أن تكتسبها حين
تتخلص من القيود التى كانت تثقلها . وقد امتد الميل الذى
استشعرته نحوه إلى الموضوعات التى كان يعالجها ، فشرمت
أبحث عن الكتب التى تستطيع أن تساعدنى على أن أحسن
فهمه . وكانت الكتب التى تمزج التقوى بالعلوم هى أكثرها

(١) أى من ألباع تماليم « ديكورت » .

ملاحة لى ، لا سيما كتب «الخطابة» وكتب «بور - رويال» (١)،
التي أخضت أطلالها ، أو بالأحرى ، التهمها . ووقع بين يدي
منها كتاب للأب «لامى» عنوانه «أحاديث من العلوم» . وكان
مبارة من مقدمة للتعريف بالكتب التي تعالج العلوم . وقد
قرأته وأعدت قراءته مائة مرة ، وعقدت العزم على أن أجعله
مرشدي . والفيتنى في النهاية انجذب ، بالرغم من حالتي
الصحية ، أو بالأحرى بفضلها ، إلى الدراسة دون أن أملك
مقاومة . وبينما كنت أنظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامي ،
رحت أدرس في تحبس عارم ، وكأنتى سأعيش دوماً . . . ولقد
قيل لى أن هذا كان ضاراً بى ، ولكنى اعتقد - من ناحيتى -
أن هذا قد أمدنى ، لا ذهنياً محسب ، وإنما جسدياً كذلك . .
إذ أن هذا الشغل ، الذى شغفت به ، صار مستعذباً لى ،
حتى أننى لم أجد أفكر فى عالى ، ومن ثم أصبحت أقل تأثراً
بها . ومن الصحيح يقيناً ، أن شيئاً لم يؤثر لى شفاء حقيقياً ،
ولكنى - إذ لم أجد أشعر بالمرحاض - تعودت الوهن ، وعدم
النوم ، وأن أفكر بدلاً من أن أعمل ، و - أخيراً - أن أنظر إلى
التداعى التدريجى البطيء ، الذى ألم بكيانى ، وكأنه تظهور
لا مناص منه ، ولا يملك أن يوقفه سوى الموت !

ولم تصرفنى هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التى لا جدوى
منها محسب ، وإنما أملتنى أيضاً من مضايقات الأدوية التى كنت

(١) من كتب المدرسة اليانسيية . وقد سبق أن أوردنا نبذة عنها فى

تعلق سابق .

... حتى ذلك الوقت ... اضطر إلى تقبلها مرغما . فإن سالومون لم يلبث أن اقتنع بأن هذه العقاقير لم تكن تملك لى إنقاذاً ، فأعفاني من غضاضتها ، وقنع بأن يهدىء من شجن « ماها » المسكينة ببعض الوصفات غير الضارة ، التى تغر المريض وتحفظ على الطبيب سمعته ! وتحولت من نظام التغذية الضيق النطاق ، فعدت إلى تناول الثبيذ وكل مستلزمات حياة الإنسان الموفور الصحة ، بقدر ما كانت قواى تسمح . وكنت أقبل على كل شيء فى اعتدال ، ولكنى لم أحرم نفسى من شيء البتة ! . . بل اننى عدت إلى الخروج ، واستأنفت زيارة معسارفى ، سيما السيد دى « كونزيبه » ، الذى كانت صحبته تروق لى كثيرا . وقصارى القول ان ارتقاب الموت لم يعق ميلى للدرس ، بل بدا أنه انكاه ، سواء كان ذلك راجعا إلى اننى رايت أن من الجميل أن أدرس حتى سامتى الأخيرة ، أو كان راجعا إلى أن بقية من الأمل فى الحياة كانت تكمن متوارية فى قرارة قلبى ! . . ورحت أسرع فى جمع بعض المعرفة للعالم الآخر ، وكأنمسا كنت أمتقد أننى لن أملك فيه من المعرفة سوى القدر الذى ساحمله إليه . وأصبحت ولوعا بحانوت كتبى يدعى السيد « بوشار » ، اعتاد أن يتردد عليه عدد من رجال الأدب . . . وعندما أصبح الربيع ... الذى كنت أظننى لن أشهده ثانية ... على الأبواب ، جمعت لنفسى عددا من الكتب لأحملها معى إلى (شارميت) ، إذا كان لى حظ الرجوع إليها !

واتيح لى هذا الحظ ، فاستغللته لصالحى . . . وإن الاغتياب الذى شهدت به البراعم الاولى للربيع ليجل من الوصف ! . .

كانت رؤية الربيع مرة أخرى ، بمثابة البعث في الفردوس . .
فما ان بدأت الطلوج في الذوبان ، حتى هجرنا وكرنا ، ووصلنا
إلى (سارميت) لنحظى هناك بأولى أنغام البلبل . ومنذ ذلك
الحين لم أعد أفكر في الموت ! ومن العجيب حقا أنني لم أصب
قط بأمراض شديدة الوطأة في الريف . ولقد عانيت كثيرا من
الآلام هناك ، ولكنني لم ألزم السرير أبدا . وكثيرا ما كنت
أقول ، عندما أشعر أنني أسوأ حالا من المعتاد « عندما ترونني
موشكا على الموت ، أحملوني إلى ظل بلوطة ، وأعدكم بأن أعود
إليكم معافى » !

ومع أنني كنت لا أزال ضعيفا ، إلا أنني عاودت أعمالى
الريفية ، ولكن بقدر يتناسب مع قواى . وقد عانيت أسى
حقيقيا لعدم استطاعتي أن أعنى بالحديقة وحدي . . بيد أنني
كنت إذا هويت ست مرات بالمعول ، شعرت بأننى أفقد
أنفاسى ، وتصيب العرق منى ، وشعرت بعجز عن الاستمرار
.. وإذا انحنيت ، كان خفقان قلبى يتضامف ، والدم يندفع
إلى رأسى بقوة بالغلة تضطرنى إلى الاعتسفال سريعا . وإذا
اضطرت إلى أن اقتصر على أعمال أقل إرهاقا ، فقد تكلمت
— بين ما اضطلعت به من مهام — بأعشاش الحمام ، فشغقت
بها جدا ، حتى أنني كثيرا ما كنت أقضى عدة ساعات هناك دون
أن أشعر بالملل لحظة . . والحبلة جسد هيابة ، وصعبة
الترويض ، إلا أنني توصلت إلى أن أبث في حمامتى الثقة ، حتى
أنها راحت تتبعنى في كل مكان ، وتدعنى أمسكها متى شئت . .
ولم أكن أظهر في الحديقة أو في ساحة الدار ، دون أن تحط

اثنان أو ثلاث على نرامي ورأسى في الحال ! . . وبالرغم من الغبطة التي كنت استشعرها ، فإن هذا الموكب لم يلبث أن غدا متعبا إلى درجة اضطرت معها إلى أن انبذ هذه الالمة . ولقد اعتدت دائما أن أجد متعة غدة في استئناس الحيوان ، لا سيما ما يكون منه خجولا وبريا نفورا . وكان يبدو لى من المطرب أن أوحى للحيوان بالثقة ، وما خدعته قط ، إذ كنت أود أن يحبنى بانطلاق ودون قيد !

ولقد ذكرت أنني أحضرت معى كتابا . . وقد انتفعت بها ، ولكن بطريقة أقل تمكينا لى من التعلم ، وأدعى إلى الحيرة وبلبلة الفكر . فإن الفكرة الخاطئة التي كانت لدى من الأمور ، أغرتنى بأنه لا بد لقراءة كتاب قراءة مثمرة ، من أن يحرز المرء كلمة المعلومات الأولية التي يرتبط بها موضوع هذا الكتاب ، دون أن يخطر ببالي أن المؤلف نفسه كثيرا ما لا يكون محيطا بهذه المعلومات . . وأنه إنما يأخذها عن كتب أخرى ، بقدر ما تدمو الحاجة . وبهذه الفكرة الدالة على غباء ، رحلت أتوقف عن القراءة في كل لحظة ، مضطرا إلى أن ألثث باستمرار من كتاب إلى آخر . . وكنت أحيانا أضطر إلى أن أستنفذ مكتبات بأسرها ، قبل أن أصل إلى الصفحة العاشرة من الكتاب الذي أرجو أن أدرسه ! . . ومع ذلك فأننى اتبعت هذا الأسلوب المجرد من الإدراك ، في إسراف ، حتى أننى بددت وقتا لا حد له ، وأرهقت رأسى إلى درجة أننى لم أعد أقوى على رؤية أو استيعاب شيء ما . . وفطنت - لحسن الحظ - إلى أننى كنت أسلك طريقا خاطئا ، يقودنى إلى تيه هائل ، فعدلت عنه قبل أن أضل تماما !

ومهما تكن قلة ما لدى الإنسان من ميل حقيقى للعلوم ، فإن أول شيء يشعر به حين يقبل على دراسة العلوم ، هو ترابطها الذى يجعلها تتقارب ، وتتعاون ، ويلقى كل منها الضوء على الآخر ، بحيث لا يكون ثمة غنى لواحد منها عن الآخر . ومع أن الذكاء البشرى لا يقوى على أن يسمعها جميعا ، بل لابد له دائما من أن يتخذ واحدا منها كأساس ، إلا أن المرء كثيرا ما يجد نفسه فى الظلام — لا سيما فى العلم الذى اختاره — إذا هو لم يلم بفكرة عن العلوم الباقية . . ولقد شعرت بأن هذا الذى آليته على نفسى ، كان — فى حد ذاته — شيئا طيبا ونافعا ، وأنه ليس من حاجة إلا إلى تبديل الأسلوب . فاقبلت على « دائرة المعارف » أولا ، وقسمتها وفقا لفروعها ، ثم رايت أن لا بد لى من أن أفعل العكس تماما فأدرس هذه الفروع منفصلة ، وأمضى فى كل منها على حدة ، إلى النقطة التى يلتقى عندها بسواه ، فتتحد جميعا . وبهذا عدت إلى التقسيم المسالوف ، ولكنى عدت إليه وقد أصبحت رجلا يعرف ما ينبغي أن يفعل . وفى هذا عوضنى التأمل عن المعرفة ، وساعد التفكير الطبيعى للغاية ، على إرشادى للصواب . وسواء كان مقدرا لى أن أميش أو أن أموت ، فقد رايت أننى لم أوت وقتا اضيعه . وعدم الالمام بشيء — فى سن تقرب من الخامسة والعشرين — مع الرغبة فى التعلم ، يتطلب الانهماك فى الإفادة من الوقت . ومع أننى لم أكن أدرى عند أية نقطة قد يحلو للحظ أو للموت أن يوقف تحصسى ، إلا أننى كنت راغبا — مهما تكن الظروف — فى أن ألم بفكرة عن كل شيء ، لكى أتبين اتجاه كفاءاتى الطبيعية ،

أكثر منى لكى أحكم بنفسى على قيمة الجدارة القائمة على
التعب !

ووجدت فى تنفيذ هذا المشروع فائدة أخرى لم أكن قد
فكرت فيها ، وهى توفير أطول وقت ممكن ، لاستغلاله فى ذلك .
ولا بد أننى لم أخلق للدرس ، لأن العكوف عليه طويلا يضجرنى
إلى درجة أنه من المستحيل على أن أضطر نفسى إلى الانشغال
بموضوع واحد لنصف ساعة بأكمله ، سيما حين أكون منصرفا
إلى متابعة سير تفكير شخص غيرى (١) ، فى حين أننى أقوى
أحيانا على أن استغرق فى تفكيرى الخاص أمدا أطول ، بل
ويتوغلج كبير ! .. أما حين أتبع تفكير مؤلف ما ، لبضع
صفحات أضطر إلى مطالعتها بإمعان واستيعاب ، فإن عقلى
يشرد ويتوه بين السحاب ! .. فإذا أصررت ، فأننى أرهق
نفسى عبثا ، وأصاب بدوار ، ولا أعود أرى شيئا .. أما إذا
تعاقبت موضوعات متباينة — ولو كان تعاقبها متواصلا دون
إمهال — فإن الواحد منها يسرى عنى عناء الذى سبقه ، ومن
ثم فأننى أمضى فيها ببسر ، دون أن أشعر بحاجة إلى أية مهلة
للراحة أو التخفف . ولقد عمدت إلى الإفادة من هذه الملاحظة
فى الخطة التى انتهجتها للدرس ، فرحت أمزج الموضوعات
بشكل كان يجعلنى أشغل بها طيلة اليوم دون أن أسأم البتة ! ..
ومن الصحيح أن المهام الريفية والمقزلية كانت تحدث تغييرا

(١) كما يحدث حين يقرأ المرء كتابا للدرس ، اذ يحاول أن يتتبع سير

تفكير المؤلف ، وأن يستوعب آراءه .

نافعا ، ولكننى — فى غمرة التحمس المطرد — لم ألحظ أن وجدت الوسيلة لتوفير وقت للدرس — إلى جانب أداء هذه المهام — ولأن أشغل بأمريين فى آن واحد ، دون أن يخطر لى أن هذا يقلل من إتقانى لكل منهما !

على اننى أعمد إلى شىء من التحفظ، بشأن هذه التفاصيل الدقيقة التى تملتنى ، والتى أثقل بها أحيانا على قارئى . . . وهو تحفظ لا يحسنه القارئ إطلاقا ، إذا أنا لم أمن بتحبيه إليه .
هنا — على سبيل المثال — أذكر فى استعذاب كافة المحاولات المتباينة التى قمت بها لتقسيم وقتى على نمط اتاح لى أن أجد فيه أكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة ، فى آن واحد .
ويوسمى أن أقول أن تلك الفترة ، التى قضيتها فى عزلة ، وفى مرض مستمر ، كانت أقل غترات عمرى تعرضا للضمحل والضيق . وقد انقضى شهران أو ثلاثة على هذا النسق ، فى تعرف اتجاه عقلى ، وفى الاستمتاع — فى أجهل فصول السنة ، وفى البقعة التى أحالها هذا الفصل فائنة — بسحر الحياة الذى أحسست بقيته تماما : كسحر الزمالة العذبة ، غير المقيدة — إذا صبح أن نطلق هذا الاسم على معاشرة قامت على اتحاد كامل — أو سحر معرفة رائعة كنت أعترم أن اكتسبها ، ولكننى كنت أنتشى بها وكأنتى حصلتها فعلا . . . أو لعل نشوتها كانت أشد لأن لذة الدرس والتعلم كانت ذات دخل كبير فى سعادتى !

ومن الواجب التجاوز عن هذه المحاولات ، التى كانت بالنسبة لى مبعث لذة وإبتهاج ، ولكنها كانت أبسط من أن تشرح .
فأنا أكرر أن السعادة الحقة لا توصف ، وإنما هى تحس . .

وكلمها عز وصفها ، كان الشعور بها أفضل وأجمل ، إذ انها ليست نتيجة مجموعة من الوقائع ، وإنما هى حالة دائمة .
إننى كثيراً ما أكرر نفسى ، ولكننى خلىق بأن أزداد تكراراً ، لو
أننى رويت الشيء الواحد بعدد المرات التى يخطر فيها ببالى !
وعندما اتخذت حياتى — التى كانت كثيرة التغير — مجرى أكثر
انتظاماً ، فهلكم أقرب وصف ممكن لتوزيع أوقاتي .

كنت استيقظ قبل مشرق الشمس فى كل صباح ، فأمرق
خلال بستان مجاور ، إلى طريق جسد بديعة ، فوق حقول
الكروم التى كانت تمتد بطول سفح الجبل حتى (شامبيرى) .
وهناك — وأنا أتمشى — كنت أتلو صلاتى ، التى لم تكن تتألف
من مجرد تحريك شفتى بتممة فارغة ، وإنما كانت تتمثل فى
سمو صادق بالقلب إلى خالق هذه الطبيعة البديعة ، التى كانت
آيات جمالها تنبسط أمام عيني . . فما أحببت قط أداء الصلاة
فى الحجرة ، فقد كانت الجدران وكل تلك الأشياء التى من
صنع الإنسان ، تبدو لى دائماً وكأنها تحول بينى وبين الله . .
وإنى لأحب أن أفكر فيه وأتأمل آياته ، بينما يكون فؤادى
متطلعاً إليه . وبوسعى أن أقول ان صلاتى كانت خالصة ،
وكانت جديرة — لهذا السبب — بأن تستجاب . ولم أكن
أسأل لنفسى — ولتلك التى كانت دعواتى لا تفرق بينى وبينها
إطلاقاً — سوى حياة بريئة ، مطمئنة ، خالية من الرذيلة (١) ،

(١) من الخريب أن يصر « روسو » على أن العلاقة المشينة — بها تكن

مجردها — بيله وبين مدايم دى المران ، لم تكن من الرذيلة فى شيء !

ومن الألم ، ومن الفاقة المدقعة ، ومن موت الاستقامة . .
وما إليها ، في المستقبل . وفيها عدا ذلك ، كانت هذه العبادة
تنصرف في معظمها إلى الإعجاب والتأمل ، أكثر مما تنصرف
إلى الدعاء والسؤال . . إذ أننى أدرك أن خير وسيلة للحصول
من مانع النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنا ، هى فى
العمل على أن نستحقها ، أكثر مما هى فى طلبها منه ! . . وكنت
أعود من نزهتى بعد دورة طويلة ، وأنا منصرف البال إلى تأمل
المنظر الريفية المحيطة بى ، فى سرور واستمتاع ، فهى الوحيدة
التي لا تملها العين والقلب أبدا . وكنت أرقب من بعد ما إذا
كان النهار قد بدأ عند « ماما » ، فإذا ما أبصرت نافذتها مفتوحة ،
ارتجفت غبطة ، وهرعت نحو الدار . أما إذا كانت النافذة
مغلقة ، فقد كنت أدلف إلى الحديقة وانتظر حتى تستيقظ ،
وأنا أتسلى باسترجاع ما درست فى المساء السابق ، أو العمل
فى الحديقة . وإذا يفتح مصراعا النافذة ، أبادر لأقبل « ماما » فى
فرائشها ، وهى ما تزال نصف نائمة ، فى كثير من الأحيان . .
وكان هذا التقبيل طاهرا أكثر منه عاطفيا ، يستمد من براعته
... بالذات - سحرا لم يقترن قط بملاذ الحس !

وكنا نفطر عادة على قهوة باللبن . وكانت هذه أكثر فترات
النهار هدوءا وسكينة لنا ، فكنا نسترسل فى الحديث على
سجيتنا . ولقد خلفت لى هذه الجلسات - التى كانت طويلة
فى العادة - ميلا قويا إلى الإفطار ، وإنى لأوثر الطريقة الإنجليزية
أو السويسرية التى تعتبر الإفطار وجبة كاملة تضم الأسرة
بأكملها ، على الطريقة الفرنسية التى يفطر بمقتضاها كل امرئ
فى حجرته بمفرده ، أو لا يفطر إطلاقا ، فى الغالب .

وبعد ساعة أو اثنتين - تمضيان في الحديث - كنت أخلو إلى كتبي حتى موعد الغداء . وكنت أبدا بكتاب من كتب الفلسفة ، مثل كتاب « المنطق » لبور - رويال ، و « المقالة » للوك ، وكتب بالبرانشي ، وليبينيتز وديكارت ، إلخ . وسرعان ما كنت لاحظ أن بين هؤلاء المؤلفين تناقضا دائما : فخطرت لي فكرة خيالية أوحى بالتقريب بينهم ، مما أتعبنى كثيرا وجعلني أبسد كثيرا من الوقت . . . وكنت أربك ذهني دون أن أحرز تقدما ما ! . . . وإذا طرحت مني - في النهاية - هذا الأسلوب كذلك ، انتهجت أسلوبا يفضل به درجة لا حد لها ، وإليه أمزو كل التقدم الذي استطعت أن أحرزه ، بالرغم من نقص استعدادي . . . فمن المؤكد أنني لم أوت قط استعدادا كبيرا للدرس . ولقد آليت على نفسي - وأنا أقرأ لكل مؤلف - أن أستوعب كل أفكاره وأتبعها دون أن أخلطها بآرائي ، أو بآراء أي مؤلف آخر ، ودون أن أجادلها . بل أنني كنت أقول لنفسي : « لنبدأ باختزان الآراء بدقة - صحيحة كانت أو خاطئة - ريثما يتوفر لعقلي من الغذاء ما يمكنه من المقارنة بينها والمفاضلة » . وإني لأعلم أن هذا الأسلوب لا يخلو من العيوب ، ولكنه أفلح في تمكينني من فائتي ، وهي التعلم . وبعد بضع سنوات قضيتها في عدم التفكير إلا على غرار سواي ، دون ما تأمل بل وبدون تمحيص ، الفيت نفسي مالمكا لدخر من العلم كاف لإرضائي ، ولتمكينني من أن أفكر دون معونة الغير ! . . . وعندما كانت الرحلات والشواغل تحرمني فرصة اللجوء إلى كتبي - في ذلك الحين - كنت أتسلى باسترجاع ما قرأت والمقارنة بين بعضه

وبعض ، فازن كل شيء بميزان ، وأصنر - في بعض الأحيان -
أحكاماً على أسائنتي . ومع أنني بدأت أشحذ مقدرتي على
النقد في سن متأخرة ، إلا أنني لم أجد أنها قد تبددت . وعندما
نشرت آرائى الخاصة ، لم أتهم أبداً بأننى عبد لأسائنتي ،
ولا بأننى « أطف بكلمات أستاذ ما » (١) !

وانتقلت من هذه الدراسات إلى مبادئ الهندسة ، التى لم
أجوزها كثيراً قط ، إذ أصررت على أن أقهر ضعف ذاكرتى ،
بفضل الرجوع مائة مرة ومرة إلى حيث بدأت ، والشروع
باستمرار فى تتبع خطواتى السابقة . ولم استسغ تعاليم
« يوكليد » (٢) ، الذى كان يعنى بتسلسل البراهين ، أكثر من
مفاتيحه بتربيط الأفكار . وفضلت هندسة الألب « لامي » ، الذى
أصبح - منذ ذلك الحين - من أحب المؤلفين إلى ، والذى
أعدت قراءة مؤلفاته فى استمراء . . وجاء الجبر بعد ذلك ، فكان
الألب « لامي » هو الذى اتخذته مرشداً . حتى إذا تقدمت فى
دراستى ، أقبليت على « علم الحساب » للألب « رينو » ، ثم على
كتابه « تحاليل تستند إلى براهين » ، الذى لم أفعل أكثر من
أن مرور به مر الكسرام . ولم أمض قط إلى الحد الذى أفهم
منده تطبيق الجبر على الهندسة ، فما أحببت قط هذه الطريقة

(١) مثل لاتينى شاع من تلاميذ ليثاغورس ، الذين كانوا يرددون آراء
استغلّاهم فى إيمانهم !

(٢) عالم يونانى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ،
ووضع أصولاً للعلوم الرياضية فى ١٢ كتاباً ، خص الهندسة منها تسعة كتب .

التي تجعلك تمضي في العملية الرياضية دون أن تدري ما الذي تفعله . وكان حل أية مسألة هندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لي مثل مزف لحن بالاكتهاء بإدارة يد (١) !

وعندما وجدت بالحساب - لأول مرة - أن مربع المعادلة الجبرية ذات الحدين ، يتألف من مربع كل حد من حديها ، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما في الآخر (٢) ، لم أشأ أن أصدق ذلك - برغم صحة عملية الضرب التي أجريتها - إلا بعد أن سجلت العملية بالأرقام . وليس معنى هذا أنني لم أوت ميلا مغنيا إلى الجبر ، لأنه لا يعالج سوى كميات مجردة (مبهمة) ، ولكنني كنت - منذ تطبيقه على المساحات والأبعاد - أحب أن أرى العملية ممثلة بسطور وخطوط ، وبدون ذلك لم أكن أفهم منها شيئا !



وجاءت اللغة اللاتينية ، بعد ذلك . وكانت هذه أثنى دراساتي ، فلم أحرز فيها أبدا أى تقدم كبير . واتبعت في البداية أسلوب « بور - رويال » اللاتيني ، ولكن دون ما ثمرة . فإن هذه الأشعار الاستروقوطية (٣) كانت تقبض قلبي ،

(١) يشبه « روسو » حل المسائل الهندسية بالمعادلات الجبرية ، بإدارة يد آلة موسيقية ذات زئبرك ، فإذا بها تردد النغم دون أن يدري من أدارها شيئا من طريقة ميلها !

(٢) $(a + b)^2 = a^2 + 2ab + b^2$

(٣) كانت قبائل « الاستروقوط » البربرية هي المصدر الأول للغة اللاتينية .

ولا تستطيع أن تلج أذننى . . . ووجدتني أضل وسط أكاداس القواعد ، وما أن استوعبت قاعدة حتى أكون قد نسيت التي سبقتها . . . فليست دراسة الكلمات بالتى تليق بمتسسان بلا ذاكرة ، وما أصررت على هذه الدراسة إلا لكى أغضب ذاكرتى على أن تقوى ، فحسباً . . . وكان لابد من أن أمجرها فى النهاية ، على أننى استوعبت التركيب بالدرجة التى تكفى لأن أستطيع أن أقرأ أسلوب كاتب سلس ، بمساعدة قاموس . وقد اتبعت هذا النهج ، فوجدتني أتقدم . واقبلت على الترجمة ، لا كتابة ، وإنما فى الذاكرة ، واقتصرت على ذلك . ويفضل الزمن والمران ، أصبحت أقرأ بطلاقة كافية مؤلفات الكتاب اللاتينيين ، ولكنى لم أستطع قط أن أتكلم أو أكتب هذه اللغة . . . وهذا ما حيرنى كثيراً ، حين ألفيتنى - دون أن أدري كيف - مدرجا فى عداد أهل الأدب . ومن العيوب الأخرى التى ترتبت على هذه الطريقة من طرق التعلم ، أننى لم أتعلم قط علم العروض ، وكنت أقل إلماما بقواعد نظم الشعر . ومع أننى - فى رغبتى أن اتذوق وقع اللغة شعرا ونثرا - بذلت جهودا كثيرة للاطاحة بها ، إلا أننى أوقن بأن تحقيق هذا - دون معونة أستاذ - أمر يقرب من المستحيل ، وإذا استوعبت تركيب أسهل الأشعار جميعا ، وهو السداسى الوزن ، ظلمت صبرا كافيا لأن أرن كل شعر « ميرجيل » ، مبينا القاعدة والكم ، فإذا ما ارتبت فيها إذا كان أحد المقاطع طويلا أو قصيرا ، رجعت إلى كتاب « ميرجيل » لأسترشد به . ومن الواضح أن هذا جعلنى ارتكب أخطاء كثيرة بسبب التغير الذى تسمح به قواعد النظم . . . على أنه إذا كان

لتعلم المرء بنفسه فائدة ، فإن له — كذلك — عيوباً عظيمة ، في مقدمتها العناء الذي يفوق التصور . واني لأدري بهذا من أى شخص ، أيا كان !

وكنيت أمازق كتبي قبيل الظهر ، فإذا لم يكن الغداء معداً ، فإلنى كنت أسعى إلى زيارة صديقتى الحرائم ، أو للعمل في الحديقة ، في انتظار موعد الغداء . وعندما أسمع النداء ، أهرع — وأنا جد مغتبط — وقد أوتيت شهية عظيمة . فمن الجدير بالملاحظة أن شهيتي لا تتخلى عني ، مهما أكن مريضاً . وكنا نتغذى في انشراح ، ونحن نتبادل الحديث في شسئوننا حتى نفرغ « ماما » من الأكل . وكنا — إذا ما تحسن الجو — نذهب ، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع ، إلى ما وراء الدار ، لنتناول القهوة في مقصورة عليلة الجو ، ظليلة ، زينتها بحشيشة الدينار (١) ، وكنا نشعر بارتياح شديد إليها في القبط . وهناك ، كنا نقضى وقتاً ليس بالطويل ، في تفقّد خضرنا وزهورنا ، وفي أحاديث تتعلق بطريقة معيشتنا ، كانت تجعلنا أقدر تذوقاً لجمالها . وكانت لي أسرة أخرى ، في أقصى الحديقة ، تتألف من نحل . ولم يكن يفوتني قط أن أزورها ، وكثيراً ما كانت « ماما » تصحبني . وكنت أهتم كثيراً بعملها ، وأنعم للغاية برؤيتها في مودتها من جنى الزهور ، وقد أثقلت سيقانها الحقيقة بأحمالها ، بحيث كان يتعذر عليها المشي أحياناً . ولقد حملني الفضول — في الأيام الأولى — على أن أحاول التثبت مما كنت أرى ،

(١) نوع من النباتات .

لقد دفنى النحل مرتين أو ثلاثة ، ولكننا لم نلبث أن وثقنا تعارفنا ، حتى أنه كان يدعنى وشائى ، مهما اقترب منه . . وكان يتجمع حولى — مهما تكن الخلايا مليئة ، تاهبا للافراز — فيحط على يدى ووجهى دون أن يلدغنى قط ! . . إن كل الحيوانات توجس عادة من الإنسان — وهى ليست مخطئة فى ذلك — ولكنها ما أن تعلمن مرة إلى أنه لا يريد بها أذى ، حتى تصبح ثقتها به عظيمة إلى درجة أنه لا يسىء إلى هذه الثقة إذا كان هجيا بريرا !

وكننت أعود إلى مكتبى ، بيد أن أعمالى — فيما بعد الظهر — كانت أقل جدارة بأن تحمل اسم « العمل والدراسة » ، منها باسم « الراحة والتسلية » . فما كننت لأطبق قط العمل المكتبى بعد غدائى ، لأن كل عمل ، فى الأيام الحارة ، يكبدنى عناء ، بوجه عام . على أننى كننت أشغل نفسى بالقراءة دون الاستذكار ، وبغير إرهاق ، بل وبغير ضابط أو قاعدة . وكان الشئ الذى امتدحت أن أواظب عليه بدقة ، هو التاريخ والجغرافيا . ولما كان هذان لا يتطلبان أى جهد عقلى ، فأننى كننت أمضى فيهما قدما بقدر ما كانت تسمح ذاكرتى القاصرة . وحاولت أن أدرس مؤلف الألب « بيتو » ، وأنغمست فى غياهب علم التاريخ ، ولكنى كننت لا أميل إلى الأجزاء الدقيقة منه ، التى لا تساع لها ولا شاطيء (١) ، وكننت أفضل عليها الأبعاد الدقيقة التوقيت ، ومسرى الأجرام السماوية . بل إننى كننت خليقا بأن أغرم بعلم

(١) يعتمد أنها من العمق بحيث أنه كان يتعبط فيها دون أن يتسدى

إلى نهاية أو يفلت منها شيئا (٢)

الفلك ، لو أنني أوتيت أدوات له ، ولكنى كنت مضطرا إلى أن أقنع ببعض مبادئه التى تؤخذ من الكتب ، وبعض مشاهدات غير دقيقة — خلال منظار مقرب — كانت كافية لمعرفة المواقع العامة للأجرام فحسب ، إذ أن نظرى القصير لم يكن يسمح لى بتمييز أى شئ بالعين المجردة ، فما بالك بالكواكب ؟ .. وأذكر — فى هذا الصدد — حادثا كثيرا ما يحملنى تذكره على الضحك : فقد ابتعت خريطة فلكية لأدرس عليها الطوالع ، وثبتها إلى إطار ، وكنت فى الليالى الصافية أذهب إلى الحديقة فأضع إطارى على أربع قوائم فى ارتفاع قامتى تقريبا ، بحيث تكون الخريطة مقلوبة . ولكى أضيئها دون أن تطفئ الرياح شمعتى ، كنت أضع هذه فى دلو على الأرض ، بين القوائم الأربع ، ثم أنظر — بالتناوب — إلى الخريطة بعينى ، وإلى الكواكب بمنظارى ، وأروح أضنى نفسى بالتعرف على النجوم واستنتاج الطوالع . وأظننى قد قلت أن حديقة السيد «نواريه» كانت مرتفعة من مستوى الأرض ، بحيث كان كل ما يجرى يشاهد من الطريق . وحدث — ذات مساء — أن كان بعض الفلاحين مارين فى ساعة متأخرة ، فراونى فى هيئة مضحكة ، وقد أنهمكت فى عملى . وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطةى — الذى لم يكونوا يرون مصدره ، لأنه كان محجوبا عن أنظارهم بحواف الدلو — كما كانت هذه القوائم الأربع ، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالأشكال والأرقام ، والإطار ، وحركة منظارى ، الذى كانوا يرونه وهو يروح ويجىء .. كل هذه أوحى بفكرة السحر ، مما أفرغهم ! .. ولم يكن لباسى صالحا لأن يطمئنهم ،

فقد كنت ارتدى قبعة ذات حافة عريضة ، تعلو قلنسوتي (طاقيتي) ، وقد أجبرتني «ماما» على ارتدائها ، مما هيا لانظار أولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقي ! ولما كان الوقت يناهز منتصف الليل ، فإنهم لم يرفثوا إطلاقا في أنهم أمام اجتماع للسحرة ! ولما كان فضولهم أقل من أن يزين لهم مشاهدة ما كان يجري ، فإنهم فسروا وهم في غزع شديد ، وأيقظوا جيرانهم ليرَوْا لهم ما رأوا ! . . . وانتشرت القصة بسرعة ، حتى أن كل امرئ في الجيرة كان يعرف — في اليوم التالي — أن اجتماع السحرة عقد في دار السيد « نواريه » . ولست أدري ما كانت تؤدي إليه هذه الشائعة في النهاية ، لو لم يعمد أحد الفلاحين الذين شهدوا حركات السحرة ، إلى أن يرغم شكاته — في اليوم ذاته — إلى اثنين من « الجيزويت » ، اعتادا أن يترددا علينا ، فسفها الشكوى دون أن يعرفا جلية الامر . ثم ذكرا لنا القصة ، فأدليت إليهما بالسبب ، وضحكنا لذلك كثيرا . على أنه تقرر — خشية تكرار ذلك الحادث — أن أقوم بمشاهداتي الفلكية في المستقبل دون استعانة بضوء ، مكثفيا بالرجوع إلى الخريطة داخل الدار . والذين قرأوا كتابي : « رسائل الجبل » ، عن أهالي السحرة في (البندقية) ، رأوا — كما أرجو — أن السحر كان صنعتي ردحا طويلا !

هكذا كانت حياتي في (شارميت) عندما لم أكن مشغولا بأية مهمة ريفية ، فقد كانت هذه تظهر بالأفضلية دائما ، كما أنني كنت — في الأعمال التي لا تتجاوز طائفتي — أعمل كأي ملاح . . . على أنه من الصحيح أن ضعفى البالغ لم يدع لى — إذ ذاك —

من مقدرة في هذا المجال ، اللهم إلا النية الطيبة .. هذا فضلا عن أنني كنت أبغى أن أقوم بعملين في آن واحد ، ولهذا السبب لم اتقن أيًا منها . إذ كنت قد وضعت نصب عيني أن أهيب نفسي - بالقوة - ذاكرة طيبة ، فدأبت على محاولة أن أحفظ كثيرا من المعرفة من ظهر قلب . ومن أجل هذا كنت أحمل معي دائما كتابا أدرسه وأستذكره وأررده على نفسي وأنا منهمك في العمل ، متحملا في ذلك غناء لا يصدقه العقل ! ولست أدري كيف أن إصراري على هذه المحاولات غير المجدية وهذه الجهود المستمرة لم ينته إلى أن أغدو - في النهاية - غيبيا! .. كان لابد من أن أدرس ديوان الشاعر «ميرجيل» EGLOGUES وأن أكرر الدرس عشرين مرة ، ومع ذلك فأنني لم أفقه منه كلمة واحدة ! ولقد فقدت ، أو لمكنت ، عددا كبيرا من الكتب باعتيادي حملها معي في كل مكان ، سواء كان ذلك في أمشاط الحمام ، أو في الحديقة ، أو في البستان ، أو في مزرعة الكروم . وكنت أثناء انشغالي بشيء ، أضع الكتاب في أسفل إحدى الأشجار ، أو على السياج العشبي ، ثم كنت أنسى أن أخذه ثانية .. وكثيرا ما كنت أجده - بعد خمسة عشر يوما - تالفا ، أو يكون قرضه النمل والقواقع . وأصبحت هذه اللفتة إلى التعلم تهوسا دفعتني إلى ما يقرب من العته والحماسة ، حتى أنني - لانشغال بالي - كنت لا أنفك أتهم وأغهم !

ولقد أحالتني مؤلفات « بور - رويال » وكتاب « الخطابة » - اللذان كنت أقرؤهما بكثرة باللغة - إلى شخص نصف « يانسيني » . وبالرغم من قوة إيماني ، فإن «لاهوت» هذا

المذهب القاسى كان يزمجنى أحيانا . . وأخذت رهبة الجحيم —
الذى لم أكن حتى ذلك الوقت أخافه كثيرا — تقض طمانينتى
شيئا فشيئا . . ولو لم ترفه « ماما » من نفسى ، لقلب هذا
المذهب الرهيب كل كيائى ! . . وقد بذل الراهب الذى اعتدت
أن أفضى إليه باعترافى — والذى كان يتلقى اعترافاتها هى
الأخرى — قصارى وسعه فى أن يجعلنى فى حال ذهنية طيبة .
وكان هذا الراهب من « الجيزويت » ، ويدعى الأب « هيميه » .
وقد كان شبيخا طيبا ، حكيما ، ساظل دائما أوفر فكره . ومع
أنه كان « جيزويتيا » ، إلا أنه كان فى سذاجة الطفل ، وكانت
أخلاقه وادعة أكثر منها متراخية ، وهذا عين ما كنت فى حاجة
إليه ، لأعيد إلى نفسى توازنها بعد الانطباعات الكثيرة التى
أحدثتها « البانسينية » . وكان هذا الرجل الطيب وزميله — الأب
كوبييه — يقدان كثيرا لزيارتنا فى (شارميت) ، برغم أن الطريق
كانت شديدة الوعورة ، وأطول مما ينبغى بالنسبة لمن هم فى
سنهما . ولقد كانت زيارتهما ذات أثر طيب عظيم على نفسى ،
أسأل الله أن يسيغ على روجيهما جزاء مثله ! . . إذ كانا طامعين
فى السن — فى ذلك الوقت — بحيث أننى لا أظنهما على قيد
الحياة اليوم . وكنت — أنا الآخر — أذهب لزيارتها فى
(شامبرى) ، فالتفت دارهما تدريجا ، وأصبحت مكتبتهما رهن
إرادتى . وإن فكرى هذه الفترة السعيدة لترتبط ارتباطا
وثيقا بفكرى « الجيزويتيين » ، حتى أننى أحب كلا منهما من
أجل الآخر . ومع أن مذهبهما كان يبدو لى — دائما — خطرا ،
إلا أننى لم أستطع أن أجسد قط ميلا إلى أن أوليها كراهية
صادقة !

ولكم أود أن أعرف ما إذا كان يطوف بقلوب الغير من الأفكار الصبيانية ما يطوف بقلبي أحيانا . ففى غمرة دراساتي ، وفى سياق حياة بريئة إلى أقصى ما يستطيع ، وبالرغم من كل ما قيل لى ، فإن الخوف من الجحيم لا يزال يزمجنى أحيانا . وكنت أسائل نفسي : « فى أى حال أنا ؟ .. وهل أدان لو أننى مت فى هذه اللحظة ؟ » . وعلى هدى أساتفتى «اليانسنين» ، لم يكن ثمة ريب فى الأمر . ولكننى كنت أرى الحكم يختلف ، على هدى ضميرى ! .. وإذا كنت دائما فى خوف ، أتخبط فى هذا التذبذب العاسى ، فقد أخذت الجأ — وأنا أبحث عن مخرج — إلى وسائل من أدمى الأمور للضحك ، وكنت من أجلها على استعداد لأن أحبس أى إنسان أراه يأتينا ! .. ففى ذات يوم ، أخذت — بطريقة آلية ، وأنا أفكر فى هذا الموضوع المقبض — أرمى جذوع الأشجار بالأحجار ، بما كان لى من مقسرة على الرماية .. أعنى دون أن أصيب أيا منها تقريبا ! .. وفيها كنت فى غمرة هذا العمل الطريف ، خطر لى أن أتخذ منه لونا من الشعوذة كى أطمأن قلبنى . فقلت لنفسى : « سارمى هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لى ، فإذا أصبت ، كانت الإصابة بشيرا بالنجاة ، وإذا أخفقت ، فقد حاقت بى اللعنة » ! .. وفيها كنت أقول هذا ، طوحت بالحجر ، بيد مرتجلة ، وبخفقان عفيف فى القلب .. ولكنى بتوفيق بالغ ، حتى أن الحجر أصاب الشجرة فى منتصفها تماما ، وهو أمر — إن شئتم الحق — لم يكن بالعسير ، إذ أننى كنت قد عنيت باختيسار شجرة فليظة الجذع جدا ، وقريبة جدا . ومنذ ذلك الوقت لم بعد يخالجنى

شك في خلاصى ! .. وليست أدري — وأنا افكر هذا الحادث —
الضحك أم اتحسر على نفسى ! ان لكم — ايها الكبار ، الذين
تضحكون ولا شك — ان تطربوا ، ولكن .. لا تسخروا من
ضعلى او مبثى ، فإنى أقسم لكم إئننى اشعر به تمام الشعور !

هلى ان هذه الاضطرابات ، وهذه الديموع التى قد لا يمكن
فصلها من التقوى والإيمان ، لم تكن حالا دائمة . فقد كنت
— بوجه عام — مغمور الهدوء ، وكان الأثر الذى خلفته فكرة
الموت المبكر في نفسى ، أقل انتهاء إلى الحزن ، منه إلى الضعف
والاستكانة الوادعة ، التى كان لها سحرها الخاص .. ولقد
عثرت بين أوراق قديمة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها إلى
نفسى ، أهنتها فيها على موتى في سن يشعر عندها المرء بقدر
كاف من الشجاعة على مواجهة الموت ، دون ان أكون قد ماتت
هلا قاسية — بدنية كانت أو عقلية — خلال حياتى ! .. ولكم
كنت مصيبا ! .. كان ثمة هاجس يخيفنى من الحياة خشية
العذاب ! .. لكأنما كنت أرى مقدما المصير الذى كان في انتظارى
في أواخر أيامى ! .. أبدا ما كنت قريبا من الحكمة بقدر ما كنت
في تلك الفترة السعيدة ! .. فنى بعدى عن الحسرة البالغة على
الماضى ، وفي تحسرى من هواجس المستقبل ، كان الشعور
الغالب على نفسى باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر .
ان الاتقياء يؤتون — عادة — قدرا ضئيلا من شهوة متلججة ،
تجعلهم يتذوقون في استبراء تلك الملاذ البريئة المباحة لهم .
ولكن الدنيويين يرون في ذلك جرما من جانب الاتقياء . وليست
أدري لذلك سببا .. لا ، بل أحسبنى أعرف تماما .. فهم

يحسدون الأتقياء على بهجة الملاذ السنانجة التي فقدوا هم
 طعمها ! . . ولقد كان هذا الميل لدى ، فوجدت من بواصث
 الغبطة أن أرضيه وأنا مطمئن الضمير . . وكان قلبي ما يزال
 غضا ، فأسلم نفسه إليه تماما ، وفي فرح الطفل ، أو بالأحرى -
 إذا كان لي أن أجرؤ على القول - في شبق الملك ! . . فقد كان
 لهذه المتع الوادعة ، ما لباهج الفردوس من سحر جليل ! . .
 كان تناول الغذاء على الحشائش في (مونتانيول) ، وتناول
 العشاء تحت الخمائل ، وجنى الفواكه ، واقتطاف العنب ،
 والأمسيات التي كانت تقضى في انتزاع اليفاف القنب مع
 رجالنا . . كل هذه كانت أعيادا حافلة وجدت « ماما » فيها عين
 ما كنت أنا أجد من سرور .

وكانت النزاهات التي نقوم بها وحيدين ، ذات متنة أشد
 وأكثر ، لأن القلب كان ينطلق متحررا . ولقد قمنا - فيما
 قمنا به منها - بنزهة تعتبر من المعالم في ذاكرتي : كان ذلك
 في يوم عيد للقديس لويس ، الذي سميت « ماما » باسمه ،
 وانطلقنا معا - وحيدين - في البكور ، بعد قداس جاء أحد
 الرهبان « الكرملين » ليلقيه علينا - في مطلع النهار - في كنيسة
 صغيرة ملحقة بالدار . وكنت قد اقترحت أن نتمشى في جانب
 الوادي المقابل للجانب الذي كنا فيه ، ولم تكن قد زرناه قط .
 فإرسلنا زائنا مقدما ، إذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله .
 ولم تكن « ماما » ثقيلة في سيرها ، برغم أنها كانت بعينة ، مهتلة
 الجسم ، فأخذنا نتنقل من هضبة إلى هضبة ، ومن غابة إلى
 غابة ، في الشمس حينما وفي الظل أحيانا ، ونحن نستريح من



فاخذنا نتنقل من هضبة الى هضبة ، ومن غابة الى غابة فى الشمس
حينما وفى الظل احيانا .

آن إلى آخر ، وقد غفلنا تماما عن سير الزمن . وكنا نتحدث عن نفسيينا ، وعن رابطتنا الوثيقة ، وعن عذوبة نصيينا في الحياة ، رافعين — من أجل دوامه — دعوات لم تستجب ! . . . وكان كل شيء يبدو وكأنه يدبر في الخفاء لجعل هذا النهار هنيئا . وكان ثمة مطر قد تساقط منذ فترة قريبة ، فلا اثر لغبار . . . كما كانت ثمة جداول جارئة ، ونسيم يداعب أوراق الشجر . وكان الهواء نقيا ، والأفق خلوا من السحب ، والسماء — كقلبيينا — يسودها الصفاء ! . . . وتناولنا غداينا في دار أحد الفلاحين ، وقد تقاسمناه مع أسرته التي باركتنا وشكرتنا من صميم الأئدة . ما أطيب أولئك الفقراء من أهل (ساقوا) !

وبعد الغداء ، لدنا بالظل تحت الأشجار الوارفة ، حيث رحت أتسلى بجمع بعض الميدان الخشبية الجافة لنمد قهوتنا ، بينما كانت « ماما » تتلهى بتفقد الأعشاب بين الأدغال . . . ورات الزهور التي كنت قد جمعتها أثناء الطريق ، فأخذت تلفت نظري إلى الف غريبة ومعجبة في تكوينها ، مما لذ لي كثيرا ، ومما كان خليقا بأن يجعلني أميل إلى علم النباتات ، لولا أن أوان هذا الميل لم يكن قد حان ، فقد كنت منصرفا عنه إلى كثير من الدراسات الأخرى . وخطرت لي فكرة حولتي عن الزهور والنباتات : فلن الجو الروحي الذي الفيتني فيه ، وكل ما قلنا وفعلنا في ذلك اليوم ، وكل الأشياء التي خلبت لبي ، ذكرتنني بذلك الحلم الذي رأيته وأنا في كامل اليقظة في (أنيسي) قبل سبع أو ثمانى سنوات ، والذي رويته في مكانه (١) . وكان الشبه من القوة

(١) في الكراسة الثالثة .

بحيث أننى حين تذكرت الحلم ، اهتزت مشاعرى متأثرا وانساب
دمعى . . . وفى نوبة من الانفعال العاطفى ، عانقت تلك الحبيبة
الغالية ، وقلت لها فى وجد : « ماما ، ماما . . . لقد كنت موعودا
بهذا اليوم منذ أجل طويل ، ولست أرى ما يفوقه ! . . . إن
سعادتى - بفضلك - فى أوجها ، فليتها لا تتناقص بعد ذلك ! . .
ليتها تدوم طالما ظللت أنعم باستمراثها ! . . ليتها لا تنقضى إلا
مع انقضاء أجلى ! »

وهكذا أخذت تنساب أيامى السعيدة . . بل الأيام التى
كانت أكثر من سعيدة ، حتى أننى - لعجزى عن أن أتبين ما قد
يقوى على تمكيرها - كنت أتصور أنها لن تنتهى ، فى الواقع ،
إلا مع نهايتى ! . . وليس معنى هذا أن نبغ وسساوسى كان قد
نضب تماما ، وإنما كان معناه أننى رأيت هذه الوسساوس تتخذ
طريقا آخر مكثنى من أن أوجه أحزانى وآلامى إلى أهداف
نافعة ، جلبت عليها دواء ناجما ! . . ولقد كانت « ماما » تحب
الريف بطبيعتها ، فوجد هذا الميل منى ما يفكيه . وما لبثت أن
انتقلت إليها - تدريجا - عدوى الشغف بالأعمال الريفية . .
وكانت تحب تقويم الأرض (١) ، كما كانت لديها - فوق هذا -
معرفة ومعلومات كانت تستغلها فى هذا الصدد باستمتاع .
ولم تقنع بالأرض التى كانت تابعة للبيت الذى استولت عليه ،
بل إنها كانت تستأجر تارة حقلا ، وتارة مرجا . وافتتحت إلى
أن ركزت روح ابتكار المشروع لديها فى الأمور الزراعية ، بدلا

(١) تدير تبيتها وميزاتها .

من أن تبقى عاطلة في الدار . وبدأت تعمل لكي تصير - في القريب العاجل - مزارعة كبيرة !

ولم أكن أحب كثيرا أن أراها تتوسع في ذلك ، فرحت أعارضها فيه قصارى ما استطعت ، وأنا واثق تمام الثقة من أنها كانت دائما تغتر بتخطيء ، وأن روحها المتحررة السخية كانت تحملها دائما على أن تنفق أكثر مما يعود عليها من إنتاج . على أنني وجدت عزاء في التفكير في أن هذا الإنتاج لن يكون معدوما - على الأقل - وأنه قد يساعدها على العيش . . وبالنسبة إلى كافة المشروعات التي قدر لها أن ترسمها ، بدأ لي هذا المشروع أقل إيقاما للخراب بها . ومع أنني لم أر - مثلها - فيه موردا للربح ، إلا أنني رأيت فيه شافلا يقيها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة !

وبهذه الفكرة ، أصبحت أرغب كل الرغبة في أن أسترد قوتي وصحتي معا ، حتى يتسنى لي أن أسهر على أعمالها ، وأن أغدو رئيسا لعمالها ، أو العامل الأول في خدمتها . ومن الطبيعي أن المران والرياضة اللذين حملتني هذه الرغبة على القيام بهما ، أصبحا ينتزعاني في كثير من الأحيان من كسبي ، ويشغلاني عن حالي الصحية ، مما كان خليقا بأن يسير بها نحو التحسن !

من سنة ١٧٣٧ إلى سنة ١٧٤١

عاد « باريو » من إيطاليا في الشتاء التالي ، وقد جلب لي معه بعض الكتب ، منها كتابا للأب باتشيري : « بونتمبي » و « كارتلا بير ميوزيكا » ، اللذان حببا إلي دراسة تاريخ

الموسيقى ، والأبحاث النظرية في هذا الفن الجليل ، وبقي « بارييو » معنا فترة من الزمن . ولما كنت قد بلغت سن الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر ، فقد اتفقنا على أن أذهب إلى (جنيف) في الربيع التالي ، لأطالب بثروة أمي ، أو لأطالب — على الأقل — بذلك النصيب الذى خصنى منها ، ريثما نستبين ما ألم بأخي . ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا ، فذهبت إلى جنيف حيث لحق بى أبى ، وكان قد ألف منذ فترة طويلة أن يزور المدينة دون أن يحطك به أحد ، بالرغم من أن الحكم الذى صدر عليه كان ما يزال قائما . ولكن أبى كان موضع التقدير لبسالته ، والاحترام لأمانيه ، فتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة . وكان الحكام في شغل شاغل بالمشروع العظيم الذى بزغ فجره بعد ذلك بقليل ، ولذلك أبوا أن يثيروا ثائرة الطبقات الوسطى قبل الإوان ، بأن يفكروهم بتحزبهم السابق في لحظة غير مواتية .

وخشيت أن تقوم في وجهى الصعوبات بسبب ارتدادى عن مذهبي ، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقوانين جنيف في هذا الشأن ليست في صرامة قوانين (برن) ، حيث يفقد من يرتد عن دينه لا منزلته بحسب بل أملاكه أيضا . ولم يكن ثمة نزاع في حقى ، إلا أن الميراث نفسه ، لسبب لا أدركه ، تضائل إلى مبلغ ثافته . ومع أن أخى كان — في غالب الظن — قد لقي ربه ، إلا أنه لم يكن ثمة دليل قاطن على هذا . لم يكن عندى من الأسانيد ما يكفى لأن أطلب بنصيبه ، فتركته من طيب خاطر لأبى يستعين به على حياته ، وقد كان له حق المنفعة طالما هو على قيد الحياة . وما أن انتهت الإجراءات القانونية وتسلمت

مالى حتى أنفقت شيئا منه فى شراء بعض الكتب ، وهرمت إلى «ماما» أضع الباقي تحت قدميها ، وكان قلبي يطفح بشرا أثناء الرحلة . وفى اللحظة التى وضعت فيها هذا المال فى يدها، كنت أسعد ألف مرة من اللحظة التى تسلمته فيها ! .. وتقبلت هى المال قبول النفس السامية الرفيعة ، التى لا تجد من العسير عليها أن تأتى مثل هذا الفعل ، فلا يدهشها أن يعاملها الغير نفس المعاملة .. وقد أنفقت المال كله تقريبا على شخصى ، بنفس تلك البساطة التى اتسمت بها . ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لأنفقت على نفس هذه الصورة !

ولم أكن ، فى ذلك الوقت ، قد استعدت صحتى تماما ، بل ... على العكس - كنت أذوى وأذبل بشكل واضح ! .. كنت فى شحوب الموتى وهزال الهيكل العظمى ، وكأنت ضربات فروقى مظيعة لا تحتمل ، وازدادت نبضات قلبى ، وكنت أعانى على الدوام من عسر التنفس .. وازددت ضعفا آخر الأهر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك .. كنت لا أستطيع أن أغذ السير إلا وأشعر بالاختناق ، ولا أنحنى دون أن يصيبنى الدوار، وتعذر على رفع أصغر الأثقال ، فأكرهت على البقاء ساكنا جامدا ، وهو أكبر عذاب يصيب رجلا فى مثل قلتي وضجري . ولا شك فى أن مرضى كان مرده (الهستيريا) إلى حد كبير، فكأنى قد بليت بذلك المرضى الذى لا يصيب إلا السعداء ! .. فالدموع التى كثيرا ما كنت أنرمها دون سبب يدعو إلى البكاء .. وفرحتى واعتنائى بحفيف ورقة من أوراق الشجر ، أو تغريد طائر طروب .. ومزاجى المقلب فى حياة بلغت ذروة الهناء

كل هذه كانت دلائل على كلال من تأثير السعادة يؤدي إلى حساسية مفرطة . ونحن لم نتزود للسعادة في هذا العالم إلا بالقليل ، مما يقتضى أن يعلى الروح أو الجسم . . إذا لم يعانينا معا . . وسعادة الواحد منها تؤدي الآخر دائما تقريبا . وبينما كنت مستطيعا أن أنعم بحياتي في سعادة تامة ، فإن انحلال جهاز جسمي كان يحول بيني وبين ذلك ، دون أن يستطيع أحد أن يدلني على موضع الداء مني . ويبسود أن جسمي قد استعاد فيها بعد قوته ، بالرغم من التدامي الذي أحسسه في كبري وآلامي المبرحة الحقيقية التي أصبحت في الكبر أشد قوة وتبريحا . واليوم ، وأنا أكتب هذه السطور ، وقد نال مني الضعف وبلغت الستين من عمري أو أكاد ، وغلبتني الآلام من كل نوع على امرئ ، أشعر أن في حياتي من الحياة والقوة على احتمال الآلام ، أكثر مما كان لدى من الحياة والقوة على الاستمتاع — فيبيعة الصبا — في فترة من أصدق آيات السعادة .

ورغبة في إذلال نفسي إذلالا تاما ، شرمت — بعد أن قرأت شيئا من الفلسفة — في دراسة التشريح ، وهرغت عدد الأعضاء المستقلة التي يتألف منها جهاز جسمي ووظائفها . وكنت أميل للشعور ، عشرين مرة في اليوم ، بأن الخل قد دب في أعضائي جميعا ، ولم يكن يذهلني قط أن أجدني في حالة احتضار ، وإنما كان يدهشني أنني ما زلت قادرا على الحياة ! وكنت أعتقد أنني مصاب بكل مرض أقسرا أوصافه ، وإني لمقتنع بأنني لو لم أكن مريضا فقد جعلتني هذه الدراسة العاطة كذلك . . فلقد كنت

أجد فى الأمراض التى تنتابنى أمراض كل علة ، فحسبتنى مصابا بالعلل جميعا ! .. وبذلك انتابنى مرض ، هو أقسى الأمراض جميعا ، وكنت أظننى براء منه .. وأعنى به الرغبة الملحة فى أن أشفى ، وهى رغبة يتعذر على المرء أن يفلت منها إذا ما بدأ فى قراءة الكتب الطبية ! .. وانتهيت بشىء من البحث والتأمل والمقارنة إلى أن أساس مرضى هو « ورم ليفى فى القلب » ! .. وقد لاح على سالوهمون نفسه أن الفكرة أذهلته ، ولئن كان من الواجب أن تؤيدنى هذه الافتراضات تأييدا معقولا فى قراراتى السابقة ، إلا أن الحال لم تكن كذلك ، فقد بذلت كل ما وسعنى من جهد عقلى لاكتشف طريقة علاج الورم الليفى الذى يصيب القلب .. وقد صح منى العزم على أن أتكفل بهذا العلاج الرائع . ولقد قيل للتعس « آتبه » فى رحلته إلى (مونبيليه) لزيارة حدائق النباتات ومسيو سوفاج - المعيد - بأن مسيو فيز قد شفى مريضا بهذا الورم الليفى ، وكان هذا كافيا لأن يوحى إلى برغبة ملحة فى أن أقصد مسيو فيز للاستشارة .. فقد أعاد الأمل فى الشفاء إلى نفسى الشجاعة وزودنى بالقوة على تجشم مشاق الرحلة ، وكان المال الذى جئت به من جنيف عونى على ذلك . وشجعتنى « ماما » على الذهاب ، وهى أبعد الناس عن أن تحاول إثنائى عن عزى .. وهكذا وجدتنى فى طريقي إلى (مونبيليه) ! وما كانت بى حاجة لأن أذهب إلى هذا المكان النائى سعيا وراء الطبيب الذى أنا فى حاجة إليه ! .. واستقلت عربة فى (جرينوبل) - إذ كان ركوب الجيئاد يتعبنى كثيرا - فوصلت إلى (موران) - بعد عريتى - خمس أو ست مربات

غيرها ، الواحدة في أثر الأخرى . . وكان معظم هذه العريجات جزءا من موكب عروس زفت حديثا اسمها السيدة « دى كولمبييه » ، وكانت تراغها سيدة أخرى هي السيدة « دى لارناج » ، أصغر منها سنا ، وإن لم تكن جذابة في ملامحها مثلما هي في ظرفها . . وكانت تنوى أن ترتحل من (رومانس) — وهي المدينة التي ستتوقف فيها السيدة « دى كولومبييه » — إلى مدينة (سانت أنديول) قرب (سان اسبرى) . ونظرا لما طبعت عليه من خجل ذاع صيته ، فلا تحصين أننى تعرفت بهاتين السيدتين الظريفتين وحاشيتهما بسهولة . . ولكننى كنت أسافر في نفس الطريق الذى يسافرون فيه ، وأنزل في الفنادق نفسها التى ينزلون فيها ، فخشيت أن يقال عنى إننى أبعث على السأم والملالة ، وكنت مكرها أيضا على الجلوس معهم إلى مائدة واحدة . . فوجدت من المستحيل على آخر الأمر أن أتجنب التعرف بهم ، ففعلت هذا . . تعرفت بالسيدتين بأسرع مما كنت أريد . . وبرغم أن كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلا مريضا ، وخاصة إذا كان فى مثل مزاجى ، إلا أن حب الاستطلاع يجعل هذه المخلوقات الماكرات غاية فى الإغراء ، حتى أنهن عندما يردن التعرف برجل ، يبدأن فى امتلاك لبه ، وهذا ما وقع لى . . بيد أنه كان يحيط بالسيدة دى كولومبييه بعض الشبان المتأنقين ، إحاطة السوار بالمعصم ، مما لم يفسح لها الوقت للتعرف بى . . أضف إلى هذا أن الأمر لم يكن ليستحق منها التفاتا طالما أننا كنا على وشك الافتراق . ولكن السيدة « دى لارناج » ، ولم يكن ليحيط بهما هذا القدر من

المعجبين ، كان لا بد لها أن تتزود لرحلتها بما يلزم ، وهكذا كفت السيدة « دى لارناج » هى التى أخفت على عاتقها إذن أن تغزو قلبى . . ومنذ ذلك الحين ، وداعا لجان جاك المسكين - أو على الأصح وداعا للحوى والهستيريا والورم الليفى - وداعا لكل شيء وأنا فى صحبتها ، فيما عدا بعض نبضات القلب التى بقيت ، والتى لم يبد منها أى ميل لشفائى منها . وكان سوء حالتى الصحية هو أول موضوع تطرقنا إلى الحديث فيه . لقد كانتا تريان أننى مريض وتعلمان أننى ذاهب إلى (مونبلييه) ، ولا بد أن مظهرى وأخلاقي قد جعلت من الواضح أننى لست خليعا . . ذلك أنه تبين لى ، مما تلا من الحوادث ، أنها لم تشتبها فى أننى ذاهب إلى مونبلييه لكى أعالج من نتائج الخلامة . ومع أن سوء الصحة ليس مما يحجب النساء كثيرا فى المرء فقد أثار سقمى اهتمام هاتين السيدتين ، فكانتا ترسلان إلى فى الصباح تسألان من حالى وتدعوانى إلى تناول الشكولاتة معها ، وتسألانى كيف قضيت ليلتى . . وذات مرة أجبته بأننى لا أدرى ، على ما ألفت فى عادتى الحميدة من الكلام دون تفكير ، فحملها هذا الرد على الاعتقاد بأننى مجنون ، وشرعتا تفحصاننى بدقة أكثر . ولم أصب من ذلك بضرر ، وإن سمعت السيدة « دى كولومبييه » تقول مرة لصديقتها : «إنه لا خلاق له ولكنه ظريف » ، وقد شجعتنى هذه الكلمات كثيرا ودمتنى إلى العمل بمقتضاها !

واردادت علاقتنا وثوقا ، فاضطرت إلى أن أتحدث عن نفسى ، وأن أفصح عن أكون ومن أين أتيت . وقد سبب لى هذا شيئا من الحيرة والارتباك ، لأننى أدركت بوضوح أن كلمة

«مرتد» ستقضى على سمعتى فى الطبقة الراقية وبين السيدات المهذبات ، ولست أدري أية نزوة غريبة تلك التى تملكتنى وجعلتنى أقول إننى إنجليزى ، ووصفت نفسى بأننى يعقوبى ، وسميت نفسى « دودنج » ، فأخذنا تدعوانى بالمستر دودنج ، وكان معنا شخص لعين هو « المركيز ده نورنيان » ، وكان مريضا مثلى ، إلا أن كبر سنه وسوء خلقه كانا ضغنا على إمالة . وقد استبدت به رغبة فى محادثة مستر دودنج ، وحدثنى عن الملك جيمس وعن مدعى العرش وبلاط سان جرمان القديم . وكنت على أحر من الجمر ، فلقنى لم أكن أعرف شيئا عن كل هذا اللهم إلا القليل الذى قرأته فى كتاب الكونت هاملتون وفى الصحف ، ولكنى أحسست استخدام ما كان فى جعبتى من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتى . . . ولحسن الحظ لم يسألنى أحد عن اللغة الإنجليزية التى لم أكن أفهم منها كلمة !

وكنّا على أطيب ما تكون العلاقات والود ، ننظر إلى فراقنا نظرة أسف وحسرة ، وكنّا نساغر نهارا ، وفى صباح يوم أحد وجدنا أنفسنا فى (سان مارسيان) ، وأبدت السيدة « دى لارناج » رغبتها فى حضور القداس ، فصحبتهما ، مما كاد يقصد خطتى : فقد مارست طقوس القداس كما كنت أفعل دائما ، واستنتجت هى من سلوكى المتواضع المتحفظ أننى من المتعبدین ، فسألت مكرتها عنى - كما اعترفت لى بمسند ذلك بيومين ! - وقد اقتضائى الأمر قدرا كبيرا من الكياسة كي أمحو هذه الفكرة السيئة ، أو بالأحرى أن السيدة دى لارناج - وهى المرأة المحنكة الخبيرة التى لا يدركها اليأس بسهولة - (م ١٠ - امترافات - ج ٢)

كانت على استعداد لأن تخساطر بالتودد إلى لثري كيف انقذ نفسي .. وقد أسرفت في التودد حتى أنتى ، وأنا الذى لا اغالى في تقدير مظهرى الشخصى ، اعتقدت أنها تسخر منى ، وتملكتنى هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم ارتكبه ! .. لقد كنت فى ذلك أسوأ من المركيز دى ليجز (١) ، وكانت السيدة دى لارناج ثابتة العزم ، فحاولت إغرائى كثيرا ، وكانت تحدثنى فى رقة بالغة ، حتى أن رجلا أحكم منى كان يجد من الصعب عليه أن يأخذ هذا كله مأخذ الجد ! وكما ألفت فى سعيها أزداد يقينى بفكرتى ، والذى عذبتى أكثر فأكثر أنتى أصبحت جادا فى ولعى بها ، فقلت لها - ولنفسى - فى تأوه : « آه ! لو أن كل ما تقولينه كان صحيحا ، لكنت أسعد مخلوق ! » . واعتقد أن بساطتى المجردة إنها خيبت ظنها ، ولكنها لم تكن مستعدة للاقرار بالهزيمة !

وكنا قد تركنا السيدة دى كولومبيه وحاشيتها فى (رومانس) ، وتابعنا المسير فى ببطء ونحن فى غاية السرور - السيدة دى لارناج والمركيز دى تورتيان وأنا - وكان المركيز ، بالرغم من أنه رجل مريض كثير التأفف والتذمر ، كيبسا ظريفا ، غير أنه لم يكن مما يغتبط له أن يرى غيره من الناس يتمتعون ، دون أن يستطيع هو تذوق المتعة مثلهم ! .. ولم تكن السيدة دى لارناج إلا قليلا

(١) شخصية فى كوميديا « ماريغو » ، أحب لأول مرة وكان فى غاية القبح من أن ييوج بحبه ، فى حين أن شخصية الكونتس كانت على النقيض من شخصيته تماما ..

يلخفاء ميلها إلى ، حتى أنه كان أسرع منى في ملاحظته . وكان يجب أن تزودنى تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التى لم اكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيدة إلى ، لولا أننى ظننت — فى روح من العناد ، كنت انا وحدى قادرا عليها — أنها قد اتفقا على ان يلها على حسابى ! وأدارت هذه الفكرة السخيفة رأسى تماما آخر الأمر ، وجعلنى لعب دور الغر الأبله فى موقف ربما أمرنى فيه قلبى — وقد تملك الحب شغافه — بأن اتصرف تصرفا أفضل من هذا التصرف بكثير . ولست أدري كيف ان السيدة دى لارناج لم يملكها النفور من كآبتى بحيث كانت تنأى عنى وهى تزدرينى أشد الازدراء ، وإنما كانت امرأة بارعة تفهم من تعامل من الناس ، فرأت فى وضوح أن مسلكى كان يتسم بالغباء أكثر مما يتسم بغتور الهمة !

وأفلحت المرأة آخر الأمر ، وبشئ من المشقة ، فى البوح بما يكنه صدرها ، وكنا قد بلغنا (غالانيس) فى موعد الغداء وبقينا بها — وفقا لعاداتنا الحميدة — بقية النهار ، وحططنا رحالنا خارج المدينة ، فى (سان جاك) — ولن أنسى هذا الفندق أو الغرفة التى كانت تنزل فيها السيدة دى لارناج ! — وقد أرادت أن تقوم بنزهة بعد الغداء ، وكانت تعلم أن المركيز ليس مولعا بالسير ، وكان هدفها من ذلك أن تنفرد بى ، وببيت أن تنتفع بخلوتها معى أكبر انتفاع ممكن ، ذلك أنه لم يبق ثمة وقت تضيقه ، إن كان قد بقى شئ من الوقت تنتفع به . . . وسرنا حول المدينة وعلى طول الخنادق ، وعدت القى على مسامعها قصتى الطويلة من أمراضى ، فكانت تجيب عليها فى رقة بالغة ، وتضغط أحيانا

بذراعى على قلبها ، حتى انه لم يكن يحول بينى وبين الاقتناع بأنها تجد فى حديثها إلا غباوة كغباوتى ! .. أما الأمر الذى لم يحسب حسابه فهو أن الحب كان قد نال منى منالا عظيما ، فلقد سبق لى أن قلت إن السيدة كانت ظريفة ، وقد جعلها الحب فائنة ، وأعاد إليها كل بهائها فى صدر شبابها ، وكانت تصطنع فى توددها من المكر والدهاء ما كان خليقا بأن يغرى رجلا من أوسع الرجال خبرة وتجربة . وكنت قلقا مضطربا ، وكثيرا ما هممت بأن أتجاوز معها حد الانسحاب ، لكن الخوف من إساءتها أو إغضبائها ، بل والخوف الأكبر من أن أصبح موضعا للسخرية والاستهزاء ، وإن أزود المائدة بقصة تروى عنى ، وإن يهتئنى المركيز العاتى — الذى لا يرحم — على بسالتي ، كل ذلك عاقنى وأثار غيظى من خجلي الأخرق وعدم استطاعتي التغلب عليه ، فى حين كنت أنتهى على نفسى باللائمة من جرائه . . . لقد كنت فى عذاب اليم ، وكنت قد نبذت كلامى الذى يغلب عليه الحياء ، لقد شعرت بسخافته بعد أن قطعت من الطريق هذا الشوط الكبير . ولكنى ، وقد انتابتنى الحيرة فلم أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقول ، لزممت الصمت وعلت وجهى الكآبة . ومجمل القول أنتى فعلت كل ما من شأنه أن يصيبنى بالمعاملة التى كنت أخشاسها ! .. على أن السيدة دى لارناج كانت لحسن الحظ رحيمة رؤوفة ، فقطعت حبل السكون فجأة بوضع ذراعها حول رقبتى ، ثم حدثتنى فيها — وقد أطبق على فمى — فى لغة صريحة واضحة لم تدع لى مجالا لى شك بعد ذلك . وما كانت الأزمة لتقع فى لحظة أسعد من تلك اللحظة ،

فلقد أصبحت ظريفا ، ومنحتنى ثقتهما ، وهى التى حال اختقارى إليها دائما دون أن أكون طبيعيا . أما فى هذه المرة ، فقد كنت على سجيتى ، ولم يحدث أن أجابت عيناى ومشاعرى وقلبى ، فى الحديث ، مثل هذه الإجابة ! .. كما لم يحدث لى من قبل أن أصلحت أخطائى هكذا تماما .. وإذا كانت هذه المغامرة الصغيرة قد كلفت السيدة دى لارناج شيئا من الجهد والتعب ، فعندى من الأسباب ما يحملنى على الاعتقاد بأنها لم تندم عليها !

ولو أنتى عشت مائة عام لما استطعت أن أفكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون فيض من السرور يطفى على ! وأنا أصنها بالفتنة ، لأنها وإن لم تكن بالصغيرة أو الجميلة فإنها لم تكن أيضا بالعجوز ولا بالدميمة ، ولم يكن فى وجهها ما يحول دون أن يظهر نكاؤها وظرفها فى أبهى حللها . ونحن إذا قارناها بمقارنة مستفيضة بغيرها من النساء لوجدنا أن أقل ما يتصف بالنضارة وجهها ، وامتناد أنها أفسدت بهما كانت تصبغه به من المسحوق الأحمر (الروح) .. وقد كانت ثمة أسباب لاستهانتها بفضيلتها ، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاخرها . كان من الممكن أن تنظر إليها دون أن تحبها ، ولكن ما كنت لتستطيع أن تمتلكها دون أن تعبدها ، ويلوح لى أن هذا من شأنه أن يثبت أنها لم تكن تسرف دائما فى حبها إسرائها غيه معنى .. لقد كان توددها إلى مفاجئا حيا ، حتى ليتعذر على أن أجسد عذراء يبرره ، سوى أن قلبها كان له فى ذلك نصيب كنصيب حواسها . وفى الفترة الوجيزة اللذيذة التى قضيتها معها ،

اجتمعت لى أسباب ذلك الاعتدال الذى أرغمتنى عليه وفرضته على فرضا ، فإنها — برغم كونها شهوانية جياشة العاطفة — كانت تفكر فى صحتى أكثر مما تفكر فى متعتها !

ولم يفت المريكز ما كان بيننا من تفاهم ! على أنه لم يكف من المزاج مسمى ، بل أنه على النقيض كان يعاملنى — أكثر من ذى قبل — معاملة العاشق البالغ الحياء ، شهيد قسوة السيدة وصدودها ! ولم تكن تغلت منه كلمة أو ابتسامة أو نظرة تدعنى اشتبه فى أنه قد كشف أمرنا . . بحيث كان لى أن اعتقد أننا خدعناه ، لولا أن السيدة دى لارناج ، وكانت أكثر منى فطنة وحذقا ، أخبرتنى بأن الحال ليست كما وصفت ، بل إنه كان رجلا شهما من أصحاب المروءة والنبيل . . والواقع أنه ما من أحد كان يظهر ما أظهر من أدب ، أو يتصرف فى كياسة أكثر مما كان يتصرف هو دواما ، حتى نحوى أننا — فيما عدا تهكمه ، وخاصة بعد نجاحى — ولعله كان يعزو الفضل فى ذلك إلى ، واعتبرنى شخصا غير ذلك الأحق الذى كنت أبدوه — وقد كان فى ذلك مخطئا ، كما مر بنا ! — ومهما يكن من أمر فقد انتفعت بخطئه . ومن الحق أن أقول إننى ، وقد انقلببت كفة الميزان ، كنت أحتمل نكاته بصدر رحب وسماحة ، بل كنت أجيبه عليها — والسعادة تغلب على — فخورا بأن اكشف أمام السيدة دى لارناج تلك الفطنة التى وصفتنى بها ، بعد أن لم أعد الرجل الذى كنته !

ولقد كنا فى الريف ، وفى فصل تشيع فيه البهجة ، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل المريكز ، ولو أتى كنت

مستطيعا أن أستغنى عن عنايته بنا ، تلك العناية التي امتدت حتى شملت مخادعنا ، فقد كان يرسل خادمه ليحجز لنا حجراتنا مقدما . وكان هذا الوغد — إما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر المالك — يحجز لسيدة دائما غرفة مجاورة لغرفة السيدة دي لارناج ، في حين يلقي بنا في الطرف الآخر من الفندق ! .. على أن هذا لم يسبب لى من الحرج إلا القليل ، بل أضف إلى فتنة مقابلاتنا .. ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة أربعة أو خمسة أيام ، ثم لت خلالها بأطى اللذات ! كانت لذة حية لا زيف فيها ، ولم تشبها أقل شائبة من الألم .. أول وآخر ما نعت به من هذه المتعة ! .. ولا يسعنى إلا القول بأننى مدين للسيدة دي لارناج بأننى لن أرحل عن هذا العالم دون أن أعرف طعم المتعة واللذة !

لم يكن شعورى نحوها هو الحب بمعناه ، وإنما كان على الأقل مجاوبة رقيقة للحب الذى تظهره لى .. وكانت هى ملحة فى إشفاء غليلها من الصلة الجنسية ، حلوة فى ممارستها ، بحيث جعلت فيها كل ما يكون فى الهوى من فتنة وسحر ، مجردين من ذلك الهذيان الذى يدير العقل ويفسد المتعة . إتنى لم أشعر بالحب الصائق إلا مرة واحدة فى حياتى ، ولم يكن هذا معها ، بل إتنى لم أحبها كما أحببت وما زلت أحب مدام دي فاران ، ولكن امتلاكها كان يضى على من المتعة ما يفوق متعنى مع الأخرى مائة مرة ! .. لقد كانت متعنى مع « ماما » يشوبها دائما شعور بالحزن .. شعور دفين بالضيق ، موضعه القلب . وهو شعور كنت أجد صعوبة فى التغلب عليه ، بحيث أننى بدلا من

تهنئة نفسي على امتلاكها كنت أنحى على نفسي باللائمة لإذلالها وتحقيرها ! .. أما مع السيدة دي لارناج فقد كنت ، على العكس ، مخورا برجولتي وبسعادتي .. وأطلقت لنفسي العنان ، في اطمئنان وفرح ، لإشباع رغباتي . ولقد شاركتها الشهور الذي بعثته فيها ، وكنت أملك زمام نفسي ، وانظر إلى فوزي نظرة الارتياح النفسي التي أنظر بها تهما إلى المتعة ، واستمد منها الوسيلة التي نعيتني على مضاعفتها !

ولا أنكر متى تركنا المركز — الذي كان من أهل المنطقة — غير أننا كنا وحدنا عندما بلغنا (مونتيليمار) ، حيث أبرت السيدة دي لارناج خادماتها بأن تستقل عربتي ، بينما ركبت أنا عربتها ، واستطيع أن أؤكد لكم أننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة شاقة . وإنني لأجد من الصعب على أن أصف المنطقة التي اجتزناها ، وقد بقيت السيدة في (مونتيليمار) ثلاثة أيام ، لبعض شئونها ، على أنها لم تتركني خلالها إلا ربع ساعة قامت فيها بزيارة ، عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة . ولم تكن ميالة بأي حال من الأحوال لقبول هذه الدعوات ، فزعمت أنها متوعدة المزاج ، على أن هذا لم يحل بيننا وبين السير سويا وحدنا — كل يوم — في أجمل بقعة من بقاء الريف ، وفي ظل أجمل سماء في العالم .. واحسرتاه على تلك الأيام الثلاثة ! لقد جدت في حياتي من الأسباب ما دعاني للندم عليها أحيانا ! فما استمتعت قط بمثلها بعد ذلك !



والحب أثناء السفر لا يمكن أن يدوم ، وهكذا اضطربنا للافتراق .. واعترف إن الوقت كان قد حان لذلك ، لا لأنني

أفعمت وزهدت ، أو لسبب من هذا القبيل ، بل إنى كنت
أزداد ولعاً بها يوماً بعد يوم ، غير أنى بالرغم من حرصها ، لم
يبق لى - فيما خلا صفاء النية - إلا القليل . وقبل أن تفترق
أردت أن أستمتع بذلك القليل ، فأذعنت هى لرغبتى ، على سبيل
الاحتياط من غادات (مونبيليه) . وتحايلنا على ما كان يعثرنا
من أسى بإعداد العدة للمقابلة مرة أخرى . . . وكان قد تقرر أن
أستمر فى العلاج ، الذى أفادنى فائدة عظمى ، وأن أقضى الشتاء
فى (سانت انديول) تحت رعايتها ، على أن أبقى خمسة أسابيع
أو ستة فقط فى مونبيليه ، حتى أفسح لها الوقت، لكى تعمد
الترتيبات التمهيدية الضرورية ، منعا للمضيحة . وقد لفتتنى
التعليقات المفصلة عما كنت بحاجة إلى معرفته ، وعما يجب أن
أقول والكيفية التى يجب أن أتعرف بها عليها ، وكان علينا فى
الوقت نفسه أن نتبادل الرسائل . وقد حدثتنى طويلاً فى جد
واهتمام عن وجوب العناية بصحتى ، ونصحتنى بأن استشير
بعض الأطباء الماهرين وأن أعفى باتباع ما يشيرون به ، وأخذت
على عاتقها أن تجعلنى أنفذ تعليماتهم ، مهما كان من صرامتها ،
طالما أنا معها . وأعتقد أنها كانت تتحدث فى صدق وإخلاص ،
إذ أنها كانت تحبنى ، وقد زودتنى بالأدلة الكثيرة على ذلك ،
التى يعتمد عليها أكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لى . . .
وقد أمكنها أن تحكم من طريقة سفرى بأننى لم أكن أتمرع فى
المال ، ومع أنها هى أيضاً لم تكن بالموسرة بأى حال من الأحوال
إلا أنها كانت تريد أن تقاسمنى ما فى كيس نقودها ، وكانت قد
جاءت به مليئاً من (جرينوبل) . . . وقد وجدت مشقة عظيمة

فى حملها على قبول اعتذارى ، وتركها أخيرا ، تاركا فى قلبها —
فيما أعتقد — حبا صادقا لى !

وانتهت رحلتى ، بينما كنت أستعيدنها فى ذاكرتى منذ
البداية ، وكنت قائما فى تلك اللحظة كل القناعة بان أجلس فى
عربة مريحة أحلم ، فى راحة ويسر ، بالمتع التى كان من نصيبى
أن أنعم بها ، وبذلك التى وعدتني بها . لم أكن أفكر إلا فى (سكنت
انديول) والحياة البهيجة التى كانت تنتظرني فيها ، ولم أكن أرى
إلا السيدة دى لارناج وبيئتها . . أما بقية العالم فلم تكن
بالنسبة لى شيئا مذكورا ، حتى « ماما » نسيته ، واستغرقت
فى التفكير فى كافة التفاصيل التى ذكرتها لى السيدة دى لارناج
حتى توحى إلى مقدها بفكرة عن منزلها وعن جيرانها وأصدقائها
وطريقة حياتها . وكانت لها ابنسة ، كثيرا ما حدثتني عنها فى
عبارات من الحب أسرفت فيها كل الإسراف ، وكانت ابنتها
هذه فى السادسة عشرة من عمرها ، رشيقة فائقة ودود .
ووعدتني السيدة دى لارناج بأننى سأكون ولا شك صاحب
الخطوة الكبرى عندها . ولم أنس هذا الوعد ، وقد استبدبى
الفضول لى أرى كيف تتصرف الآنسة دى لارناج نحو صديق
أمها الحميم ! كانت تلك هى أحلامي من (بون سان اسبرى)
حتى (ريمولان) . . ولقد قيل لى أن أذهب وأشاهد «بون دوجار»
(جسر الحرس) . ولم يفتنى أن أفعل ، فلقد كان الجسر هو
الأثر الرومانى الأول الذى شاهدته . وانتظرت أن أرى نصبا
جديرا بالأيدي التى أقامته . . وللمرة الأولى والأخيرة فى حياتى

جاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل : لم يكن يستطيع غير الرومان إقامة هذا الأثر الخالد !

لقد أثر في نفسي منظر هذا العمل البسيط ، النبيل مع ذلك ، أعظم تأثير . . . ذلك أنه كان يقوم في قلب الصحراء ، حيث السكون والوحدة يبرزان الأشياء إبرازا عظيما ويثيران شعورا بالإعجاب أقوى وأشد ، إذ أن هذا الجسر المزعوم لم يكن إلا مجرى ماء فوقه قناطر ، ومن الطبيعي أن يتسائل المرء أية قوة تلك التي نقلت هذه الأحجار الضخمة إلى هذا المكان النائي عن أي حجر من المحاجر ، وتمثلت في أذرع الآلاف المؤلفة من الرجال في بقعة لا يقيم أحد منهم فيها !

واجتزت الطبقات الثلاث التي كان يتألف منها هذا البناء البديع ، وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعني من أن أطاها بقدمي ! وحملى صدى وقع قدمي تحت هذه الأقبية العظيمة على أن أتخيل أنني أسمع الأصوات القوية لأولئك الذين أقاموا صرحها ! شعرت أنني ضائع في وسط هذه العظمة كأنني الحشرة ، وشعرت بالرغم من إحساسى بضالتي كأن روحي قد سميت بطريقة ما ، وقلت أحدث نفسي وأنا أناؤه : « لمساذا لم أولد رومانيا ؟ » ، وبقيت في ذلك المكان بضع ساعات في تأمل يذهل العقل ، وعدت وأنا سارح الفكر ، ولم يكن شرود الفكر ليوافق السيدة دي لارناج ، وهي التي عنيت بأن تحذرنى من غفيات (مونبيلييه) ، لا من جسر الحرس . . لكن المرء لا يفكر في كل شيء !

وفي (نيم) ، ذهبت لاشاهد الملعب المدرج ، انه عمل انثر روعة بكثير من جسر الحرس ، إلا ان تأثيره على كان اقل بكثير من تأثير الجسر . . فلما أن الجسر قد استنفد كل إعجابي ، أو أن المدرج ، وهو يقع في وسط المدينة ، كان اقل من أن يثير إعجابي ! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع الفسيح الأرجاء منازل صغيرة قبيحة ، وامتلأت الحطبة بمنازل أخرى ، أصفر واخبس ، حتى ان المنظر كله كان يبعث في النفس الشغور بالاضطراب وعدم التناسق ، كما كان النور يخمد المتعة والدهشة ، وقد رأيت منذ ذلك الحين ملعب « فيرونا » وهو أصفر بكثير وأقل مهابة وجلالا ، ولكنهم احتفظوا به في أكبر قدر ممكن من النظافة والاناقة ، ولهذا السبب وحده اثر في تأثيرا أبلغ وأقوى ، ووقع من نفسي موقع القبول . . إن الفرنسيين لا يعنون بشيء ولا يحترمون النصب ، وهم تواقون أشد التوق للقيام بأي عمل ، ولكنهم لا يعرفون كيف يتمونه أو كيف يحفظونه سليما إذا ما انتهوا منه !

لقد تبدلت حالي كثيرا ، واستيقظت أحاسيسي — وكانت قد تنبهت إلى العمل — حتى بقيت يوما بأكمله في فندق (بون دي لونيل) لأنعم مع الزائرين الآخرين بطيب الجو الذي شاع فيه . وكان هذا الفندق — إذ ذاك — أشهر فندق في أوروبا ، كما كان جديرا بما اكتسب من صيت ، فقد عرف أصحابه كيف يستغلون موقعه البديع ، فزودوه بوفرة من أطايب المأكولات . لقد كان من الغريب حقا أن تجد في دار ضائية منعزلة — وفي وسط الريف — مائدة زودت بسماك البحر وسماك النهر ولحوم الصيد البديعة والخمور المنتقاة ، تقدم لك في أدب وكياسة لا تجدهما إلا في بيوت

العظماء والموسرين .. وكل هذا بخمسة وثلاثين « سو »
لشخص ! .. إلا أن « جسر دى لوفيل » لم يبق فى هذا
المستوى طويلا ، إذ أنه تمسدى فى استغلال سمعته ، حتى
متدها بأسرها فى النهاية !

ولقد نسيت أثناء رحلتى أننى كنت مريضا ، فلم أتذكر
ذلك إلا عندما بلغت (مونبيليه) . ولقد كان من المحقق أننى
شغيت من ثوبات الهستيريا التى كانت تتنابنى ، إلا أن كل
على الأخرى بقيت . ومع أن اعتيادى إياها جعلنى أقل
إحساسا بها ، إلا أنها كانت تكفى لأن تحمل أى إنسان على
الاعتقاد — إذا ما تعرض لتوباتها فجأة — بأنه على باب القبر . .
كثت هذه العلل — فى الواقع — أكثر بعثا للانزعاج منها إثارة
للألم ، وكانت تسبب من عذاب العقل أكثر مما تسبب من
عذاب الجسم ، وهى التى كانت تعلن عن تدميره فيها يلوح .
ومن ثم فإننى كنت — حين أشغل بالانفعالات العنيفة — لا أفكر
فى حالتى الصحية . ولكن على لم تكن خيالية ، فكنت أعود
إلى الإحساس بها مرة أخرى عندما يعاوننى هدوئى ، وبدأت
مندئذ أفكر تفكيرا جديا فى نصيحة السيدة دى « لارناج » ،
وفى هدفى من رحلتى ، فاستشرت أشهر الأطباء وعلى الأخص
السيد « فيز » .

وزيادة فى الحيلة ، نزلت عند طبيب . كان إيرلنديا اسمه
« فيتز موريس » ، وكان ينزل عنده عدد عظيم من طلبة الطب .
ومما جعل منزله أكثر مدعاة لراحة المريض المقيم ، أنه كان
يتبع بأجر معقول لقاء المأكل والمسكن ، ولا يتقاضى شيئا من

نزلائه فى مقابل الرعاية الطبية . وقد أخذ على عاتقه أن ينفذ تعليمات السيد « فيز » ، وأن يعنى بصحتى . أما فيما يتعلق بالغذاء فقد كان يوفى ما عليه وفاء يدعو للإعجاب ، فلم يكن بين النزلاء من يعانى عسر الهضم . ومع أننى لم أكن ممن يأبهون بالحرمان من الطعام ، إلا أن الفرص التى تهيب لى المقارنة كانت فى متناول يدى ، حتى أننى لم أتمالك فى بعض الأحيان من أن أثبت — فيما بينى وبين نفسى — أن السيد دى « تورنيان » كان موردا للأغذية أفضل من السيد « فيتز موريس » ، وعلى كل حال فلم تكن نشكو الجوع تماما ! . وكان الطلبة الشبان غاية فى المرح ، وقد أفادنى حقا هذا الأسلوب من أساليب الحياة ، وحال دون إصابتى بما كان ينتابنى قبلا من الاكتئاب . وكنت أقضى الصباح فى تناول الأدوية ، وخاصة بعض المياه — التى اعتقد أنها كانت تأتى من (فالس) ، وإن لم أكن واثقا من ذلك — وفى الكتابة إلى السيدة دى « لارناج » . ذلك أن الرسائل ظلت مستمرة ، وقد آلى روسو على نفسه أن يأتى بخطابات صديقه « دودنج » .

وكنت أنطلق — عند الظهر — فى جولة إلى (كاتورج) مع أحد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا . وقد خاتوا جميعا على خلق عظيم . وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء ، فإذا ما فرغنا منه ، كان معظمنا يشغل بمسألة هامة حتى المساء . . . تلك هى أننا كنا ننطلق إلى خارج المدينة ، لنلعب دورين أو ثلاثة من لعبة الكرة والصولجان ، ولنتناول شاي الأصيل . ولم أكن أشترك فى اللعب معهم ، إذ لم تتوفر لى القوة أو

البراعة في اللعب ، ولكنى كنت أراهن على القنبجة .. وهكذا كنت أتبع لاعبيننا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية ، وأنا مهتم برهائى ، فأنعم برياضة صحية ممتعة ، كانت تناسبنى إلى أقصى حد . وكنا نتناول الشاي في مقصف خارج المدينة ، وغنى عن البيان أن هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح ، ولكنى أضيف إلى هذا أنها كانت محتشمة ، بالرغم من أن غتيات المقصف كن جميلات ! .. وكان رئيس الفريق هو السيد « فيتر موريس » نفسه ، فقد كان لاعبا عظيما . واستطيع أن أقرر - بالرغم من سوء سمعة الطلبة - أنني وجدت بين هؤلاء الشبان من الألب والحثمة ما لا يسهل العثور عليه بين عدد مساو لهم من الرجال الناضجين .. كانوا أميل للوضاء منهم للفسق ، وللمرح منهم للخلاعة . ولما كان من السهل على أن اعتاد أى سبيل من سبل الحياة - عندما يكون ذلك باختيارى - فأننى لم أعد أتمنى أكثر من استمرار هذه الحال .

وكان بين الطلبة عدد من الايرلنديين حاولت أن أتعلم منهم بضع كلمات إنجليزية تاهبا لذهابى إلى (سانت أندبول) ، فقد كانت السيدة دى « لانارج » تستحثنى فى كل برىد ، وكنت على استعداد لى أذعن إلى رغبته . وكان من الواضح أن أطبائى - وقد غاب عنهم علتى - اعتبروا ألا وجود لها إلا فى مخيلتى . وبناء على هذا فرأيتهم كانوا يعالجوننى بأعشابهم الصينية ومياههم واللبن الخثر .. والأطباء كالفلاسفة ، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف عن علماء أصول الدين ، إذ أنهم لا يقرون بأن شيئا ما صحيح إلا إذا كان فى استطاعتهم أن يعللوه ، كما

أنهم يجعلون من إدراكهم مقياسا لكل ما هو ممكن ! .. ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئا عن علقى ، ولذلك لم أك مريضا البتة ، في رأيهم ! .. فإن الأطباء يعرفون كل شيء طبعا ! .. وكنت أرى أنهم إنما يحاولون خداعي وحملى على إنفاق مالى ، ولما كنت اعتقد أن نائبتهم في (سانت انديول) مستفعل عين ما كانوا يفعلون — ولكن بطريقة أنظرف — فقد صح عزمى على أن أفضلها عليهم ! .. وما أن قر رأيى على هذا القرار الحكيم ، حتى رحلت عن (مونبيليه) ، ففادرتها في أواخر شهر نوفمبر ، بعد أن أقمت فيها ستة أسابيع أو شهرين ، وبعد أن أنفقت فيها اثني عشر « لوى » (١) ، دون أن يعود ذلك بأى نفع على صحتى أو على إدراكى ، اللهم فيما عدا منهج في التشريح بداته تحت إرشاد السيد « فيتز موريس » ، واضطرت أن أكف عن تلقيه نظرا للرائحة الفتنة التي كانت تقصصاعد من الجثث المشرحة ، فقد وجدت أن من المستحيل على أن أحملها !



وشعرت أننى غير مستريح للقرار الذى اتخذته ، فشرعت أفكر فيه وأنا أواصل رحلتى صوب (بون سان اسبرى) وكان الطريق يؤدي إلى (شامبرى) كما كان يؤدي إلى (سانت انديول) ، فأثارت ذكرى « ماما » ورسائلها — ولو أنها لم تكن تكتب كثيرا كما كانت السيدة دي « لارناج » تفعل — لواعج الحسرة في فؤادى من جديد ، بعد أن كنت قد أخدمتها في

(١) اللوى عملة ذهبية كانت قيمتها ٢٠ فرنكا .

الخطر الأول من رحلتى .. وكانت فى عودتها قوية عفيفة .
حتى أنها رجحت على حب المتعة ، فلم أجد مناصا من الاستماع
إلى صوت العقل وحده . ولعلنى كنت فى دور الأفاق — الذى
عدت إلى الشروع فى أدائه — أقل توفيقا وحظا مما كنت فى
المررة الأولى . ذلك لأن الامر — فى هذه المرة — لم يكن يتطلب
سوى أن يوجد فى بلدة (سانت انديول) بأسرها ، شخص
واحد ، سبق له أن زار إنجلترا ، وعرف الإنجليز ، وتمكن من
لغتهم ، حتى يفتضح امرى ! .. وكان من المحتمل ألا أروق
لأسرة السيدة دى « لارناج » ، فتعاملنى بقليل من الكياسة .
إذ كانت ابنتها — التى كنت أفكر فيها ، بالرغم منى ، أكثر
مما كان ينبغى — تسبب لى قلقا لم يفارقنى .. وكنت ارتجف
لجهد احتمال أننى قد أقع فى هواها ! .. وكان هذا الخوف
يؤلف نصف العوامل التى كانت تحملنى على العدول .. وكنت
أقول لنفسى : أترانى — فى مقابل أفضال الأم — أسعى لإفساد
الابنة والدخول معها فى علاقة بغيضة ، تصيب الأسرة بالتصدع
والعار والفضيحة والجحيم مما ؟

كانت هذه الفكرة توقع الرعب فى نفسى ، ومن ثم فقد
صممت تصميما جازما على أن أقاوم هذه النفس واهزمها ،
إذا أنا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة . ولكن .. لماذا أعرض
نفسى لصراع كهذا ؟ .. أية حال تعمسة من العيش تلك التى
تدعونى إلى أن أحيى مع الأم — التى كنت أوقن من أننى سئمتها
— بينما يضطرم قلبى بحب الابنة ، دون أن أجرؤ على أن
أكشف لها قلبى ؟ .. وأية ضرورة تدعو إلى السعى نحو حال

كهذه ، أتعرض فيها للبلايا والإهانات والندم ، فى سبيل متع حظيت مقدما بأعظمها فتنة ؟ .. ذلك انه كل من المحقق أن أهوائى كانت قد فقدت حدتها الأولى .. كان الميل للمتعة ما يزال قويا ، ولكن العاطفة المتأججة كانت قد ولت . وقد خالطت ذلك أفكار تتصل بموقفى ، وواجباتى ، وتلك الأم المفرطة الطيبة والكرم ، التى تورطت فى ديون — فوق التى كانت تثقل عاتقها — فى سبيل نفقاتى الطائشة ، والتى أنفقت كل ما كانت تملك من أجلى ، أنا الذى كنت أخدعها بخسة .. ولقد اشتد هذا التائب وثقل على ضميرى حتى انقلبت الكفة آخر الأمر ، فما أن اقتربت من (سان اسبرى) ، حتى قررت أن أسرع باجتنياز (سان انديول) دون أن أتوقف فيها . ونفذت هذا القرار ببسالة ، وإن كنت لا أنكر أننى زفرت بعض زفرات . بيد أننى فى رضائى عن نفسى ، كنت أتذوق — للمرة الأولى فى حياتى — لذة القدرة على أن أقول : « من حقى أن أشيد بذكر نفسى ، فأننى أعرف كيف أقدم واجبى على متعتى » !

وهذا هو الالتزام الحقيقى الأول ، الذى خرجت به من دراستى ، إذ أنها علمتني أن أفكر ، وأن أقارن .. وبعد مبادئ الطهر والعفة — التى انتهجتها منذ عهد قريب — وبعد قواعد الحكمة والنضيلة التى ارتضيتها لنفسى ، والتى كنت مخورا كل الفخر باتباعها ، وجدتنى أشعر بالخزى من أن أكون متساهلا مع نفسى ، ومن أن أخالف قواعدى المقررة بهذه السرعة وهذه القوة ، وطلغى هذا الشعور على ، فانتصر على المتعة ، وربما

كان للاعتزاز بالنفس نصيب — في قرارى — يعادل نصيب الفضيلة سواء بسواء . ولكن ، إذا لم يكن هذا الاعتزاز هو الفضيلة ذاتها ، فإن آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة إلى درجة أن المرء يخطئ في التفريق بينهما !

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة ، أنها تسهم بالروح وتهيل بها إلى الاتيان بشيء أفضل ، ذلك أن الضعف البشرى بلغ مبلغا عظيما ، حتى لينبغى لنا أن نسلك في عداد الأفعال الصالحة الامتناع عن الشر الذى تغرينا نفوسنا على ارتكابه . . وما أن اتخذت قرارى حتى أصبحت رجلا آخر ، أو — على الأصح — أصبحت الرجل الذى كنته من قبل . . الرجل الذى حملته نشوة هذه التجربة على أن يخطئ . فواصلت رحلتى وقد انطوى صدرى على أطيب المشاعر وأفضل القرارات ، منتويا التكبر عن خطئى ، وعدم التفكير إلا فى تنظيم سلوكى فى المستقبل على أساس من قوانين الفضيلة ، مكرسا نفسى دون قيد أو شرط لخدمة أبر الأمهات ، منفرا لها إخلاصا يعادل حبى لها ، منصتا لنداء واجبى وحده ، ولكن واسفاه ! . .

كان إخلاصى فى العودة إلى الفضيلة ، يبدو وكأنه يخبى لى مصيرا آخر . بيد أن مصيرى الحقيقى كان قد كتب فى لوح القدر ، وبدأ يتحقق فعلا . وفى اللحظة التى لم يكن فيها قلبى — الزاخر بحب كل ما هو طاهر وشريف — يرى أمامه سوى البراءة والسعادة ، كنت اقترب من اللحظة القاتلة التى قدر لها أن تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التى حلت بى ! كان تعجل الوصول قد جعلنى أسرع فى سفرى أكثر مما

كنت أنتوى ، وكنت قد أرسلت خطابا إلى « ماما » من (مالانس) أخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعت أن أصل فيها . ولما كنت قد استقيت موعدي بنصف يوم ، فقد قضيت ذلك الوقت في (شباريان) لكى أصل في اللحظة التى عيبتها بالضبط ، وكنت أتوق إلى أن استمتع غاية الاستمتاع بمراها ثانية ، ففضلت أن أوجل وصولي قليلا حتى أضيف إلى ذلك متعة الشعور بأن ثمة من ينتظره . وكان حليف هذا الإجراء النجاح دائما ، فقد كنت أجد القوم يحتفلون بوصولي — فى كل مرة — وكأنه يوم عيد صيفى . وهذا ما توقعت فى هذه المناسبة ، وكانت تلك العناية — التى كانت تهفو بالقلب والمشاعر — جديرة بالتعب الذى كان يبذل فى سبيل الظفر بها !

ووصلت فى اللحظة التى عيبتها تماما . ومضى كنت على مسافة بعيدة من غايى ، رحلت أنعم النظر فى الطريق ، علنى أراها . . « ماما » ! . . وراح قلبى يخفق فى عنف أخذ يطرد بازدياد اقترابى . ووصلت وأنا الهث ، إذ أننى كنت قد تركت عربتى فى المدينة . . ولم أر أحدا فى الفناء أو عند الباب أو مطلا من النافذة ، فبدأ القلق يساورنى خشية أن يكون قد وقع حادث . . ودخلت فإذا كل شيء هادىء ، وبعض العمال يأكلون فى المطبخ ، ولم تكن ثمة إمارات تنم عن أن القوم ينتظروننى . وبنت الدهشة على الخادم لرؤياى إذ أنها كانت تجهل أمر قدومى . وصعدت الدرج . . وأخيرا رأيتها . . تلك الأم العزيزة ، التى اجتمع لها فى قلبى كل ما فى الحب من رقة وقوة وإخلاص . وهرعت إليها ، فألقيت نفسى عند قدميها . وقالت

لى وهى تعانقنى : « آه اذن فقد عدت ايتها الصغير ! . . اكانت رحلتك ممتعة ؟ . . كيف حالك ؟ » . واذهلنى هذا الاستقبال بعض الشيء ، فسألتها عما إذا كانت قد تلقت خطابى . واجابتنى بنعم ، فقلت : « ما كنت اعتقد هذا » . وانتهى الحديث عند هذا الحد ، فقد كان معها شاب تذكرت اننى رأيته فى المنزل قبل رحيلى ، ولكنه بدا . . فى هذه المرة . . وكان المقام قد استقر به هناك ، وكان ذلك هو الواقع فعلا . ومجمل القول اننى وجدت من حل محلى !

وكان هذا الشاب من منطقة (غو) ، وكان أبوه . . واسمه « منتزريد » — أمين حصن (شبيون) ، أو كبير ضباطه كما كان يدعوه نفسه . أما الابن فقد كان عاملا يصنع الشعر المستعار ، وكان يطوف بالبلاد ممارسا مهنته ، عندما قدم نفسه إلى السيدة دى « فاران » فأحسنست استقباله ، كما كانت تفعل مع عابرى الطريق جميعا ، لا سيما أولئك الذين يكونون قادمين من مسقط رأسها . وكان الشاب ذا شعر أشقر غزير حائل اللون ، وجسم بديع التكوين ، ووجه سمين ، وعقل فى ثقل جسمه ! . . فقد كان يتحدث كالغزير المتحلق ، وهو يخلط بين اللهجات ، ويمزج الأحاديث التى تتطلبها مهنته بقصة طويلة . . عن مغامراته وفتوحاته الغرامية . . لم يكن يضمنها ، فيما زعم ، سوى نصف من ضاحكهم من المركيزات ! . . وكان يدعى أنه ما صنف شعر حسناء ، إلا وزين رأس زوجها أيضا ! . . كان مغرورا أخرق جاهلا وقحا ، أما فيما عدا هذا ، فقد كان من أحسن الشبان فى العالم ! . . ذلك هو

البديل الذى حل محلى اثناء غيابى والرفيق الذى قدموه إلى بعد
 عودتى ! وإذا كانت الأرواح التى تطلق من القيود الدنيوية ،
 تظل ترى — خلال أضواء الأبدية — ما يجرى بين أهل الأرض ،
 فماغفر لى — إذن — أيها الطيف الحبيب الأثير ، أننى لا أغض
 الطرف عن أخطائك ولا عن أخطائى ، بل أننى اكشف عنها
 جميعا أمام القارىء ، وعلى قدم المساواة ! .. لسوف أكون
 — ولا بد لى من أن أكون — صادقا نحوك صدقى نحو نفسى ، ولن
 يصيبك من ذلك قط إلا ما يقل كثيرا عما يصيبنى أنا ! .. آه !
 كم يكفر خلقك الوديع الرقيق ، وطيبة قلبك — التى لا ينضب
 معينها — وصراحتك ، وكل صفاتك الباعثة على الإعجاب ..
 كم تكفر هذه من نقاط ضعفك ، إذا ما ذكرت تلك الهفوات التى
 يمكن أن توصف بأنها من أخطاء عقلك وحده ! .. لقد أخطأت ،
 ولكنك كنت براء من الرذيلة — ولقد استحق مسلكك اللوم ،
 ولكن قلبك ظل نقيًا دائما .

ولقد أظهر القادم الحديث غيرة وحمية وعناية بتنفيذ
 الشئون الصغيرة العديدة التى كانت « ماها » تحتاج
 إليها ، ونصب نفسه رئيسا على عمالها .. وكان كثير
 الضجيج ، بقدر ما كنت شديد الهدوء ! .. كان القوم يرونه
 ويسمعونه فى كل مكان فى وقت واحد : عند المحراث ، وفى مخزن
 الدريس ، وفى مخزن الخشب ، وفى الاسطبل ، وفى مساحة
 المزرعة . وكانت فلاحه البساتين هى الشئ الوحيد الذى أهمله ،
 إذ أنها كانت هادئة جدا ، لا تهيب الفرصة لإحداث ضوضاء ..
 كان يفرح أشد الفرح بوسق مربة وقيادتها ، ونشر الخشب أو

تكسيره .. فما كنت تراه إلا والفأس أو البلطة في يده ، وهو يعدو ويدفع ما أمامه ويصيح بكل ما فيه من قوة .. ولست أدري كم من عمل الرجال قام به ، ولكن الذى أدريه أنه كان يحدث من الضوضاء قدر ما يحدثه عشرة رجال أو اثنا عشر . وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تخذع «ماما» المسكينة ، فقد حسبت أنها وجدت في هذا الشاب كتزا يعاونها في شئونها ، وأرادت أن تحمله على التعلق بها فاستخدمت في ذلك كل السبل التى اعتقدت أن من الممكن أن تأتى بالنتيجة المرجوة .. ولم تنس ذلك السبيل الذى كانت تعمل عليه أكثر من سواه !

ولابد أن القارئ قد استشف شيئا عن قلبى ، وعن مشاعره الصادقة الثابتة ، لا سيما تلك التى حدثت بى إلى العودة إلى « ماما » إذ ذاك ، ولكن يا للانقلاب المفاجيء الكامل فى كيانى كله ! .. فليضع القارئ نفسه فى موضعى ، ليستطيع الحكم ! .. لقد رايت كل ذلك المستقبل السعيد — الذى تخيلته لنفسى — يتلاشى فى لحظة ، وتبددت أحلام السعادة التى كنت أعتر بها امترازا .. ووجدتنى للمرة الأولى وحيدا ، أنا الذى كنت منذ صباى إلا أرى لنفسى وجودا إلا فى وجود « ماما » ! .. كانت تلك اللحظة نظيفة ، ولكن اللحظات التى تلتها كانت قاتمة كئيبة .. كنت ما أزال شابا ، ولكن ذلك الشعور العذب بالمتعة والامل — الذى يبعث الحياة فى الشباب — كان قد هجرنى إلى الأبد . ومنذ ذلك الحين مات فى أعماقى الحس المرهف — نصف ميتة — ولم أعد أرى أمامى إلا أطلالا حزينة لحياة نائمة ، فإذا ما أذكى شهواتى — بين الحين والحين — طيف

من سعادة ، فإن هذه السعادة لا تبدو لي حقيقية . . بل أنني كنت أوقن بأن ظفري بها ، لن يجعلني سعيدا حقا !

ولقد كنت غاية في السذاجة ، كما كانت ثقتي بـماما جسد عارمة ، حتى أنني لم أجدس قط السبب الحقيقي للهجة الألفة التي كان القادم الجديد يتحدث بها ، والتي اعتبرتها من نتائج طبيعة « ماما » السهلة الهينة التي تجتذب الناس جميعا إليها . . وما كنت لأجدس الأمر ، لو لم تبج به هي نفسها ، فقد بادرت إلى الاعتراف ، في صراحة كان من المحتمل أن تنكس سخطى ، لو أن قلبي كان يتسع لمزيد من السخط . . ذلك أنها كانت ترى الأمر بسيطا ، فقد عابت على إهمالي أثناء وجودي في البيت ، وتفرعت ضدى بغيابى المتكرر ، وكأنها كانت طبيعتها تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن ، فقلت لها وقلبي يتمزق حزنا : « واه يا ماما . . ما هذا الذى تجرؤين على أن تحسدثينى به ؟ . . يا له من جزاء على إخلاص كذلك الذى أثرتك به ! . . هل انتقدت حياتى هكذا مرارا ، لغير ما داع إلا لتحريمينى ذلك الذى جعلها عزيزة عندي ؟ . . ان هذا سيورتنى مورد التهلكة ، ولكنك ستأسفين على فقدى ! » . فردت — فى هدوء كان خليقا بأن يدفعنى إلى الجنون — بأننى طفل ، وأن الناس لا يموتون من مثل هذه الأمور ، وأننى لم انتقد شيئا ، وأنا خليقان بأن نكون صديقين حميمين — بكل ما للصداقة من معنى — وثيقى الصلة فى كل أمر من الأمور ، وأن حبها العميق لى لن يقل ولن ينتهى إلا بانتهاء حياتها ! . .

ومجمل القول أنها جعلتني أدرك أن جميع مزاياى باقية على ما كانت عليه ، وأنتى لن أجد أى نقص فيها ، بالرغم من أن ثمة من أصبح يشاركنى إياها . ولم يظهر قط حبى لها — فى صفاته وصدقته وقوته — ولا ظهرت روحى — فى إخلاصها واستقامتها — مثلما ظهرا على هذه الصورة الواضحة ، فى تلك اللحظة . فقد أقيمت بنفسى عند قدميه ، وذرفت الدموع مدرارا ، وأمسكت بركبتيها ، وهتفت بها وأنا شارد الفكر : « كلا يا ماما ! .. إننى أحبك حبا أعظم من أن يسمح لى باذلالك ، وامتلاكك أغلى عندى من أن أستطيع مشاركة آخر فيه . . إن الندم الذى شعرت به عندما وهبتى نفسك — لأول مرة — قد ازداد بازدياد حبى ، ولن أستطيع أن احتمل هذا الندم بنفسى الثمن . لسوف أظل دائما أعبدك . وأبقى جديرا بحبك ، طالما ظلت حاجتى إلى احترامك أكبر من حاجتى إلى امتلاكك . إننى أكل أمر نفسك إلى نفسك ، وأضحى فى سبيل اتحاد قلوبنا بكل متعى ! .. وخير عندى أن أموت ألف مرة من أن أسعى إلى إذلال من أحب ! » .

ولقد ظللت أمينا على هذا القرار فى ثبات وحزم أجرؤ على القول بأنهما جديران بالشعور الذى دفعنى إلى هذا القرار . ومنذ تلك اللحظة كنت أنظر إلى تلك الأم العزيزة بمعنى الابن البار ! .. ولا بد لى من أن أضيف إلى هذا أن قرارى ، وإن لم يكن قد صادف موافقة منها شخصيا — كما تبين لى جليا — إلا أنها لم تحاول قط أن تثنيى عن مزمى بتلك الاقتراحات المغرية ، ولا الملائمة ، ولا بسبل الغواية التى تجيد النساء استخدامها

دون أن تصبى أنفسهم بالجروح ، والتي نادرا ما يمين فيها .
بالفضل !



ووجدتني مكرها على أن أسعى إلى مصير مستقل عن
« ما » . . واستعصى على التفكير ، فسرعان ما ارتعيت في
أحضان نقيضه تماما ، إذ سعيت إلى البحث عن المصير المنشود
عندها هي نفسها . . واستغرقت في البحث عنه عندها ، حتى
أفلحت في نسيان نفسي أو كدت ، واستوعبت مشاعري الرغبة
الملحة في أن أراها سعيدة مهما كان الثمن . . ولقد كنت أرى
العيب لها أن تفضل سعادتها على سعادتي ، فلقد كنت أرى
سعادتي في أغوار سعادتها ، بالرغم منها !

وهكذا ، بدأت تنمو مع مصائبى ، تلك الفضائل التي كانت
بنورها قد غرست في أعماق قلبي ، والتي هذبها الدراسة ،
ولم تكن تنتظرها إلا الشدة حتى تؤتى ثمارها . وكانت النتيجة
الأولى لإنكار الذات والتجرد عن الغرض ، أن زال من قلبي كل
شعور بالحقد والحسد نحو ذلك الذي حل محلي ، بل إنني
— على العكس من ذلك — كنت أريد في إخلاص صادق أن أصبح
وثيق الصلة بهذا السلب ، وأن أصوغ خلقه ، وأعلمه وأشعره
بسعادته ، وأجعله جديرا بها إذا أمكن . وبالاختصار أن أفعل
له ما سبق لأتبعه أن فعله من أجل في ظروف مماثلة . . . إلا أن
طبيعتنا لم تكونا متماثلتين . ومع أنني كنت أرق حائسية
وأوسع ملها من أتبعه إلا أنني لم أوت قلة مبالاته أو ثباته أو قوة

خلقه ، التي كانت تبعث على الاحترام ، والتي كان لابد منها لضمان النجاح . زد على ذلك أنني لم أكن أجد في هذا الشاب الصفات التي وجدها « آتية » في ، وأعني : دهاء الخلق والحب والعرفان بالجميل . . وأهم من هذا كله ، الإدراك بأنني أحتاج لرعايته ، والرغبة الملحة في الانتفاع بهذه الرعاية .

كانت تعوزه كل هذه الصفات . وكان هذا الذي أردت أن ألقنه العلم ، لا يعتبرني أكثر من متخلق يبعث على السام والضجر ، ولا يحسن من الأمور سوى الثثرة . وكان — من ناحية أخرى — يعجب بنفسه بوصفه شخصاً له شأنه في المنزل . فكان يغالي في تقدير الخدمات التي يحسب أنه كان يؤديها بالوضوء التي كان يحدثها . وكان يرى أن مؤوسسه ومعالوه أنفع كثيراً من كل كتبي القديمة ! . ولقد كان محبباً بعض الشيء ، ولكنه — اعتماداً على هذا — كان يزهو ويستكبر في صورة تدعو المرء إلى الإغراق في الضحك . وكان يحاول أن يمثل مع الفلاحين دور سيد من سادة الريف ، فما لبث أن أخذ يعاملني نفس المعاملة ، بل أنه راح يعامل « ماما » كذلك ! . . وإذ بدا له أن الاسم « غتزونريد » لم يكن فيه ما يميزه ، هجره واتخذ له اسم السيد دي « كورتيل » ، وهو الاسم الذي عرف به فيما بعد في (شامبيري) وفي (مورين) حيث تزوج !

ومجمل القول أن هذا الشخص البارع لم يلبث أن أصبح كل شيء في المنزل ، بينما أصبحت أنا . . لا شيء ! . . ولو أن سوء الجلالع نساقني إلى إغضابه ، فإن « ماما » هي التي كانت

تلقى اللوم بدلا منى ، ولهذا السبب فإن خوفى من تعريضها إلى سلوكه الفظ كان يدعو إلى أن أجيبه إلى كل رغباته وعندما كان يقبل على تكسير الأخشاب - وهو عمل كان يفخر به كل الفخر - كنت أقف متفرجا عاطلا ، ومعجبا صامتا بقوة وجلده على العمل ! على أن سجاياء لم تكن فى مجموعها بالسجاياء القبيحة . . لقد كان يحب « ماما » لأنه ما من أحد كان يستطيع أن يمسك نفسه عن حبها . ثم انه لم يظهر لى شيئا من النفور أو الكراهية ، وكان فى اللحظات التى يستولى فيها السكون عليه ، ينصت إلينا هادئا ، ثم يعترف فى صراحة بأنه لم يكن إلا أحمق . . ولا يلبث - بعد ذلك مباشرة - أن يرتكب حماقات جديدة . زد على ذلك أن إدراكه كان محدودا ، كما كان ذوقه وضيما ، حتى لقد كان يتعذر على المرء مجادلته ، أو الشعور بالراحة معه . ولم يقنع بالظفر بأشد النساء فتنة وسحرا ، بل أنه جمع - على سبيل التغيير - بينها وبين وصيفة عجوز جهراء الشعر خلا منها من الأسسنان ، وكانت « ماما » تحتل خدماتها - التى تثير فى النفس الازمزاز - فى صبر وأناة ، وإن كانت تضيق بها كل الضيق ! وإذا شاهدت هذا اللؤم الجديد ، بلغ منى الحقد والغيط مبلغهما . على أننى لاحظت شيئا آخر - فى الوقت ذاته - كان أشد تأثيرا فى نفسى ، ودفعنى إلى اليأس أكثر من أى أمر آخر وقع حتى ذلك اليوم . وكان هذا الشيء هو فتور فى مسلك « ماما » نحوى ، أخذ يزيد رويدا رويدا !

ذلك أن الحرمان الذى فرضته على نفسى ، والذى تظاهرت

هى بالموافقة عليه ، إنما هو أحد تلك الأمور التى لا تغفرها النساء قط — وإن تظاهرن بقبولها ! — لا بسبب ما حرمن هن منه ، وإنما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذى ينطوى عليه الأمر . ولو أنك أخذت — على سبيل المثال — أوفر النساء عقلا ، وأكثرهن فلسفة وأقلهن شبقا ، لوجدت أن الجريمة الوحيدة التى لا تغفرها هذه المرأة للرجل قط — ولو كان اهتمامها به فيها عدا ذلك أضال ما يكون — هى أن يكون بوسعه أن يستمتع بها ولكنه لا يفعل! . . . وليكن مفهوما أن هذه القاعدة بلا استثناء ، إذ أن العاطفة — مهما تكن طبيعية وقوية — لا تلبث أن تتغير لدى المرأة بسبب الحرمان الذى لا باعث له سوى الفضيلة والحب والتقدير . . . ومنذ ذلك الحين ، لم أمد أجد لدى «إيلما» تلك الصلة الوثيقة التى تربط بين قلبين ، والتى كانت تنعم قلبى دائما بأحلى المتع . ولم تعد تبوح لى بأسرارها ، اللهم إلا أن تشكو من ذلك الدخيل . أما عنديا يكونان معا على صفاء ، فأتنى لم أكن أحظى بأسرارها . . . ولم تلبث — أخسر الأمر — أن انتهجت نحوى مسلكا بامد بينى وبينها تدريجا ، ومع أن حضورى ظل مبعث سرور لها ، إلا أنه لم يعد ضرورة لا غنى لها عنها ، حتى لقد كنت أقضى أياما بطولها دون أن أراها ، فما كانت لتفطن إلى ذلك !

* * *

ووجدتنى — دون أن أفطن — معزولا وحيدا فى هذا المنزل الذى كنت فيه قبل ذلك بمثابة « الروح » ! . . . والذى أصبحت أحياء فيه حياة مزدوجة كما ينبغي أن يقال . . . فالتفت

تدريجا ان اغض الطرف عن كل ما كان يقع فى هذا المنزل ، بل اننى اخفت اعتزل اولئك الذين كانوا يقيمون فيه . ولكى اجنب نفسى العذاب المتصل ، رحت احتبس نفسى مع كتبى ، او اذهب فابكى واتلوه ما شاء لى الهوى وسط الغسبات . وسرعان ما اصبحت تلك الحياة فوق ما يطيقه إنسان ، وشعرت بأن الوجود الشخصى مع البعد القلبنى بالنسبة لامرأة كنت اعزها كل هذا الامراز ، كان يهيج شجونى . . . وأن الكف عن رؤيتها ، اقل قسوة ! ولذلك قررت ان اهجى المنزل . . . ولقد قلت لها هذا ، فلذا بها تحبذه ، بدلا من ان تعارضة . . . وكانت لها صديقة فى (جرينويل) — تدعى السيدة « ديبين » — كان زوجها صديقا للسيد « دى مابلى » ، محافظ مدينة (ليون) . ولقد اقترح السيد ديبين ان اتولى تعليم اولاد السيد دى مابلى ، فقبلت ، ورحلت إلى ليون دون ان اسبب لنفسى — بل دون ان اشعر تقريبا — بأقل أسف على فراق كان مجرد التفكير فيه — فيها مضى — يبعث فينا آلاما كنزعات الموت !

وكانت لدى المعرفة الضرورية — تقريبا — لكى اكون مربيا ، واعتقد اننى اوتيت موهبة لذلك . وقد اتسع لى الوقت — فى السنة التى قضيتها بمنزل السيدة دى مابلى — كى اكشف عن حقيقة نفسى ، فلذا ما فطرت عليه من سماحة ورقة ، كفىل بأن يجعلنى أهلا لهذه المهنة ، لولا ما كان يشوبه من حدة الطبع . . . فقد كنت كالملاك الكريم ، طالما سارت الأمور على ما يرام ، وطالما كنت أرى تعبى وعنسايتى — اللذين لم اكن أقتصد فيهما — يؤثيان ثمارا . ولكننى كنت أغدو شيطانا إذا

ما انقلبت الأمور . وعندما كان يستعصى على تلميذى ميمى ، كنت اهذى كالجنون ، فإذا بدت منهما أمارات قنم عن خبيث ومصيان ، فاقنى كنت أتهنى لو استطعت أن أقتلهما ! .. وما كان هذا المسلك ليكمل لهما العلم أو الأدب .. وكنا غلامين يختلف طبع كل منهما عن الآخر كل الاختلاف : أحدهما فى الثامنة أو التاسعة من العمر ، ويدعى « سانت ماري » ، له وجه جميل ، وعقل متفتح . وكان نشيطا ، طائشا ، لعويا ، مأكرا .. إلا أن مكروه كان يتسم دائما بالمرح ! .. أما الأصغر - واسمه « كونديللاك » - فقد كان غبيا أو يكاد ، تافها كسولا ، أوتى عناد البغل .. وكان عاجزا عن أن يتعلم شيئا !

ولقد أكرهت على تقسيم عملى بين الاثنين ، كما هو واضح للعارى ، ولعلنى كنت مستطيعا بشيء من الصبر والهدوء أن أوفق فى عملى ، ولكنى كنت خلوا منهما ، ومن ثم فانتنى لم أحرز مع تلميذى أى تقدم ، وكانت النتيجة غاية فى السوء .. وما كنت لأفتقر إلى المثابرة ، وإنما كان يعوزنى الاتزان والكياسة بوجه خاص .. إذ انتنى لم أكن أعرف من الأساليب التى تستخدم مع الأطفال إلا ثلاثة ، كانت كلها دائما عقيمة عديمة الجدوى ، وكثيرا ما كانت تعود عليهم بأبلغ الضرر .. وهذه السبل الثلاث هى : العاطفة ، والمجادلة ، والغضب . ولقد تأثرت ذات مرة من « سانت ماري » تأثرا خرفت معه الذمى ، وحاولت أن أثير فيه عاطفة مماثلة ، كأنما كان فى وسع الطفل أن يتأثر تأثرا صحيحا ! .. وفى مناسبة أخرى أرهقت نفسى فى مجادلته ، وكأنه كان قادرا على أن يفهمنى ، ولما كان يلجا فى

بعض الأحيان إلى جدال غاية في المكر والدهاء ، فقد اعتقدت أنه ولا بد فكي ، ما دام يعرف كيف يجادل ! .. أما « كونديللاك » الصغير ، فقد كان أشد جلبا للضيق والضجر ، إذ أنه لم يكن يفهم شيئا ، ولا يجيب عن أى سؤال ، ولا يتأثر بأى مؤثر ! .. كان عنيدا لا يتزحزح عن موقفه ، ولم يكن موفقا فى شيء اللهم إلا فى إثارة غضبى . وإذ ذاك ، كان يغدو هو العاقل وأنا الطفل !

لقد تبينت كل أخطائى ، وكنت أدركها تمام الإدراك . إذ أننى درست أخلاق تلميذى وأفلحت فى مسير غورهما . ولا أعتقد أن حيلهما انطلت على مرة ، ولكن ما جدوى تبين الشر إذا كنت لا أعرف كيف أعالجه ؟ .. ومع اننى كنت أستشف كل شيء ، إلا أننى لم أكن أمنع شيئا ، ولم أفصح فى شيء . .. كان كل ما أفعله هو عين ما كان ينبغى لى ألا أفعله !

ولم يكتب لى — فيما يتصل بأمر نفسى — من النجاح ، أكثر مما كتب لى فيما يتعلق بتلميذى ، وكانت السيدة « ديبيان » قد أوصت بى السيدة دى مابلى ، وطلبت منها أن تهذب عاداتى وأن تطبعنى بطابع يتفق والمجتمع الراقى ، فجهدت السيدة فى ذلك بعض الجهد ، وأرادت أن تعلمنى كيف أشرف البيت الذى أنزل فيه ، بيد أننى أبدت من الارتباك والخجل بل والغباء ما شبط همتها ودعاها إلى اليأس منى . ولكن هذا لم يمنعنى من الوقوع فى حبها بطريقتى المعهودة : وقد مملت على أن تلاحظ هذا ، وإن لم أجرؤ أبدا على البوح لها بحبى ، ولم يكن من طبيعتها أن تتودد قط إلى رجل ، ومن ثم فقد

ذهبت غمزاتي ونظراتي وتلوهاتي أنراج الرياح ، وسرعان ما سئمتها ، إذ رايت أنها لم تكن تؤدي إلى شيء !

وكنيت أثناء إقامتي مع «ماما» قد فقدت تملها الرغبة في السرقات الصغيرة ، إذ أننى حين رايت أن كل شيء قد بات ملك يدي ، لم أعد أجسد ما يدعو إلى السرقة ! فضلا عن أن المبادئ السامية التى انتهجتها كانت كفيلة بأن تجعل منى في المستقبل شخصا ساميا لا يأتى أمثال هذه الصقائر ، وهذا ما صرت إليه . . . يقينا . . . منذ ذلك الحين . . . بيد أن هذا لم يكن راجعا إلى أننى استأصلت الداء من جذوره ، وإنما كان مرده إلى أننى تعلمت التغلب على ما كان يفتننى من إغراء . وكان الخوف كثيرا ما يملككنى من أن أوغل في السرقة . . . كما كنت أفعل في طفولتى . . . إذا عاودتنى الرغبة وتهايات لى الفرصة . وقد تبدى لى الدليل على ذلك في دار السيد « دى مابلى » . فبالرغم من كثرة الأشياء الصغيرة التى كانت تحيط بى ، والتى كانت فى متناول يدي ، إلا أننى لم أولها نظرة واحدة . . . غير أن رغبة قوية تملككنى فى الحصول على تبيذ أبيض بسيط المفعول اسمه تبيذ « أريوا » ، كان لذيق الطعم ، وقد طلب لى كثيرا بعد أن تناولت منه بضغ كؤوس على المائدة . . . وكان كثيفا بعض الشيء ، وقد زهوت بمهارتى فى تنقية التبيذ ، فعهد إلى بهذا النوع بالذات ، ففقت بتنقيته ، ولكنى أفسدته أثناء ذلك . على أن الفسساد لم يلحق إلا مظهره ، فظل لذيق الطعم ، وكنيت أنتهز الفرصة لأخذ بعض الزجلجات بين الحين والحين أتجرعها عندما يحلو لى ، ولكننى . . . لسوء الحظ . . .

(١٦ م - اعترافات - ج ٢)

لم ألك أقوى على أن أشرب دون أن أقرن الشراب بالأكل ، فما حيلتى فى الحصول على الخبز ؟ .. كان من المستحيل على أن احتفظ بشيء منه . ولو أننى أرسلت الخدم لشرائه ، لانفضح أمرى ، ولكان ذلك — فى الوقت نفسه — إهانة ، أو شبه إهانة ، لرب البيت ، كذلك كنت أخشى أن أشترىه بنفسى ، فكيف يستطيع سيد مهذب — والسيف إلى جانبه — دخول مخبز وشراء رغيف من الخبز ؟ .. وأخيرا تذكرت الملجا الآخر الذى لجأ إليه أمير كبير قيل له ان الفلاحين لم يكونوا بجدون الخبز ، فأجاب بقوله : « إذن دموهم يأكلون الفطائر ! » .. ولكن ، يا للمشقة التى كابدهتها فى الحصول على الفطائر ! .. كنت أخرج وحدى فى طلبها ، فأجتاز المدينة بأكملها فى بعض الأحيان من طرف إلى طرف ، وأمر بثلاثين محلا من محلات الفطائر ، قبل أن أدخل أحدها . وكان من الضرورى ألا يكون فى المحل غير شخص واحد ، وأن تكون سمات هذا الشخص بشوشة جدا ، قبل أن يستقر رأيى على المغامرة .. وما أن كنت أهرز بكعكى الصغيرة العزيزة ، وأحكم غلق باب فرقتى على ، حتى كنت أتى بزجاجة نبيذى من قاع صوان بفرقتى .. وبالفطائر الصغيرة اللذيذة التى نعمت بها وحدى وأنا أقرأ بضع صفحات من رواية ! .. فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعامى إذا كنت وحيدا ، فإن القراءة أثناء الطعام ، كانت دائما الهواية التى تعوضنى عن سمر أخلو إليسه . وكنت ألهم مسطرة ثم ازدرد لقمة ، وكان كتلى كان يتناول الطعام معى !

وأنا لم أكن أبدا غاسقا أو سكيرا ، بل الواقع أننى لم أتمل



فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعامي إذا كنت وحيداً.

في حياتي قط ! .. وهكذا توالى سرقاتي الصغيرة ، التي لم تك نخلو تماها من الحرص والحذر ، بيد أنها لم تلبث أن اكتشفت ، إذ فضحت الزجاجات أمرى . ولم توجه إلى أية ملاحظة ، إلا أن القبول لم يعد موكولا إلى ، وقد تصرف السيد « دى مايلى » في هذا كله تصرفا كريما معقولا ، فغسدت كان رجلا شهيا ، يخفى تحت ستار من الخشونة الملائمة لمنصبه نزعسة رقيقة حقا ، وطيبة قلب نادرة ! .. كان ذكيا عادلا ، بل إنه كان لطيفا ، وهو امر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس الراكب . وقد قدرت له تسامحه فأصبحت أكثر تعلقا به ، وحملتني هذا على أن أمكث في منزله فترة أطول مما كان ينبغي لى ، ولكننى وقد كرهت آخر الامر مهنة لم اكن أصالح لها — بعد أن زججت بنفسى في موقف كله تعب ، ولم يكن فيه ما يسر . وبعد سنة من التجربة لم أقتصد فيها شيئا من جهدى — قررت أن أترك تلميذى وأنا مقتنع بأننى لن أفلح في تنشئتهما تنشئة صحيحة . وكان السيد دى مايلى يرى هذا جيدا كما كنت أراه ، على أننى لا اعتقد أنه كان يقدم على فصلى — من تلقاء نفسه — لو لم اكفه مؤونة العناء .. ومن المحقق أن هذا التساهل المفرط — في حال كهذه — ليس مما أقره !

ومما زاد في مدم احتمالى لمركزى ، أننى كنت أقارنه على الدوام بذلك المركز الذى خلفته ورأى : فكرى (شارميت) الغالية ، وذكرى حديقتى وأشجارى ، ونبعى ، وبستانى — ونوق هذا وذاك — ذكرى تلك التى أشعر أننى خلقت من أجلها ، والتى كانت حياة كل شيء وروحه . وعندما كانت تصاودنى

نكرى متعنا وحياتنا البريئة ، كان قلبي يرزح تحت شعور من الضيق والاختناق يسلبني الشجاعة والقدرة على ان افعل اى شيء ! وقد راودتني - مائة مرة - رغبة عنيفة في الانطلاق لفورى على قدمي ، والعودة إلى السيدة دي فاران . . كنت على استعداد لأن أموت لفورى راضيا ، لو قدر لى أن اراها مرة أخرى !

ولم استطع - آخِر الأمر - أن اقاوم هذه الذكريات الرقيقة - التى كانت تنادينى إليها - مهما يكن الثمن ، فقلت لنفسي إننى لم أتذرع بما يكفى من الصبر والكرم والود ، وإننى لو كنت قد أجهدت نفسي أكثر مما فعلت لظللت أعيش معها فى علاقة من الصداقة الخالصة ، وقد وضعت أجمل المشروعات فى العالم وتحترقت شوقا إلى تنفيذها !

* * *

وهكذا ، تركت ذات يوم كل شيء ونبذت كل شيء ، ثم شرعت فى رحلتى انهب الأرض نهبا ، فوصلت إلى الدار بعد استخدام جميع وسائل المواصلات التى توفرت لى فى صدر شبابي . . ووجدتني عند قدميها مرة أخرى ! أواه ! لقد كنت أموت مغتبطا ، لو أننى وجدت - عند عودتي - فى استقبالها إياي ، أو فى عينيها ، أو فى عناقها ، أو - أخيرا - فى قلبها ، ربيع ذلك الذى كنت أجده من قبل ، والذى كانت نفسي مفعمة به فى عودتي !

واحسرتاه على ما يصانف البشر من خدع قاتلة ! : لقد تظنتني « ماما » بذلك القلب الطيب الذى لا يموت إلا بموتها . .

ولكنى بحثت عبثا عن الماضى الذى ولى إلى غير عودة . وما أن مكثت معها نصف ساعة ، حتى شعرت بأن سعادتى السابقة قد زالت إلى الأبد ، ووجدتني في نفس المركز المحزن الذى اضطررت إلى الهرب منه دون أن أستطيع توجيهه اللوم إلى إنسان ! .. ذلك أن « كورتيل » لم يكن في قرارة نفسه فتى شريفاً ، وقد لاح عليه السرور — لا الضيق — لرأى . ولكن كيف أستطيع أن أحتمل وجودى كشخص زائد عن الحاجة ، عند تلك التى كنت لها كل شيء ، والتى لن تكف عن أن تكون لى كل شيء ؟ .. كيف أستطيع أن أعيش غريباً في منزل كنت أشعر أنني ابنه ؟ .. بل أن رؤية الأشياء التى شهدت هنائى الماضى ، كانت تزيد المفارقة إيلا . . . وكنت خليفاً بأن أفسدوا أقل الما في أى جو آخر للمعيشة ، فإن شعورى بأننى كنت أذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الحلو ، كان يهيج في صدرى الإحساس بفداحة ما فقدت . . . وإذا راحت الحشرات — التى لم يكن من ورائها طائل — تنهش قلبي ، واستبدت بى أشد ألوان الكآبة سواداً ، أخذت الوذ بالوحدة في غير أوقات الطعام ، وانفردت بكتبي ، وسميت إلى أن أجدها فيها بعض التسلية النافعة !

وشعرت بأن الخطر — الذى كنت أخشاه طويلاً — بات وشيك الوقوع ، فأخذت أجهد عقلى من جديد ، محاولاً أن أجده من نفسى وسيلة للتحصن ضده إذا ما نضبت موارد « ماما » . . . فلقد كنت أدير شئوننا المنزلية على أساس أن لا تزداد الأمور سوءاً ، أما بعد أن تركتها فقد تغير كل شيء . . .

كان مدير ماليتها مسرفا ، يريد أن يختال بجواد أصيل وعربة .. وكان مولعا بتمثيل دور النبيل أمام الجيران ، كما أنه كان — في كل ذلك — يؤدي عملا لا يعرف عنه شيئا . وكان معاش « ماما » مستنفدا مقدما . إذ كانت الدفوعات التي تواتيها منه — كل ثلاثة أشهر — مرهونة ، وكانت متأخرة في دفع الإيجار ، وقد تراكمت عليها الديون ، وتوقعت أن يحجز على معاشها ، أو أن يقطع عنها نهائيا . . ومجمل القول أنني لم أر ألامى إلا الخراب والكوارث ، وبدت لى تلك اللحظة وشيكة ، حتى لقد تجسم أمام ناظرى كل ما تنطوى عليه من مظالم !

وكانت غرقتى العزيزة الصغيرة هى ملهاتى الوحيدة ، وبعد أن بحثت طويلا عن أدوية لعلاج قلقي العقلى ، فكرت فى أن أبحث عن علاج للمتعصب التى كنت أتناها بها ، وعدت إلى أفكارى القديمة ، وبدأت فجأة أبني التصور فى أسبانيا ، محاولا أن أنتقذ « ماما » المسكينة من النهاية القاسية التى كنت أراها على وشك التردى فيها ! .. لكنى لم أكن أشعر أنني على علم كاف ، ولا كنت أعتقد أنني موهوب إلى حد يكفى لأن يلمع نجمى بين رجال الأدب ، أو أن أجمع ثروة بهذه الوسيلة . . والهمتنى فكرة جديدة — خطرت لى — بالثقة التى عجزت عنها مواهبى المتوسطة . . ذلك أنني لم أكن قد أطلعت عن دراسة الموسيقى عندما كنت من تدريسها ، بل أنني — على النقيض من ذلك — كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفينى لأن أعتبر نفسى عالما فى هذه الناحية من الفن . وبينما كنت أسترجع الصعوبة التى صادفتنى فى تعلم قراءة « النوتة » ، والصعوبة

الكبرى التى كنت لا أزال الاقيها فى الغناء بمجرد النظر إلى « النوتة » ، اخذت أفكر فى أن هذه المشقة قد تكون راجعة إلى طبيعة الأمر وليس إلى عجزى وقصورى ، لا سيما وأنتى كنت أعلم أنه ليس من السهل على أى إنسان أن يتعلم الموسيقى . وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت أنها كثيرا ما تنم عن سوء ابتكار . . . وكنت قد فكرت طويلا فى التعبير عن السلم الموسيقى بالأرقام ، وذلك لتفادى رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة فى كتابة أبسط النغمات . ولم تكن تعوقنى سوى صعوبات تتصل بالطبقات والزمن وقيم « النوتة » .

وقد عاودتنى هذه الفكرة من جديد ، فلما اتعمت النظر فيها ، وجدت أن هذه الصعوبات ليست مما يتعذر التغلب عليه . . . وانلحت فى تنفيذ فكرتى ، فاستقطعت آخر الأمر أن اكتب أى موسيقى — مهما يكن شأنها — بأكثر ما يمكن من الدقة . . . بل أن بوسعى أن أقول : بأكثر قدر من البساطة . واعتبرت نفسى — منذ تلك اللحظة — من أصحاب الثراء ! . . . ولم أهدأ أفكر — وأنا شديد الشوق إلى أن تقتسم معى ثروتى ، تلك المرأة التى كنت مدينا لها بكل شئ — إلا فى الارتحال إلى باريس ، موقنا من أننى سأحدث انقلابا بمجرد عرض مشروعى على المحفل (الأكاديمية) ! . . . وكنت قد حملت معى — من ليون — قليلا من المال ، كما أننى بعثت كتبى . وهكذا لم يمض أسبوع ، حتى أصبح قرارى بعدا للتنفيذ ، فرحلت أخيرا عن (سافوا) ، حاملا معى مشروعى الموسيقى ، وأنا مغمم بالأمكار

الرائعة التي ألهمتها هذا المشروع ، كما رحلت من قبل عن
(تورين) مصطحبا نافورتى الصغيرة !

ذلك كانت أخطاء شبابه وعيوبه ، سررت قصتها بإخلاص
صادق يرضى قلبى . وإذا قدر لى - فيما بعد - أن أجد
السنوات التالية من عمرى ، سنوات النضج ، بآية فضيلة
من الفضائل ، فلن أكون - فى ذلك - إلا منتهجا عين الصراحة
التي اتبعتها من قبل ، فهذه هى نيتى وغايتى !

على أنه من الواجب أن أتوقف هنا . . إن الزمن كفىل بأن
يدفع كثيرا من الأسرار والأحجية . وإذا قدر لمفكراتى أن تنتقل
إلى الأجيال المقبلة ، فقد تفهم هذه الأجيال يوما ما كان ينبغى
أن أقول ! . . وإذا ذاك سيقتبين السر فى إخلادى إلى الصمت !



الكراسة السابعة

سنة ١٧٤١

بعد عامين من الصمت والصبر ، أعود إلى القلم بالرغم مما كنت قد اعتزمت . فأمسك أيها القارىء حكيمك على الأسباب التى تضطرنى إلى ذلك ، فلن يكون بوسعك أن تحكم إلا بعد أن تقرأ ما أنا قائل !

لقد تبين أن شبابى الوادع مضى ينساب فى حياة معتدلة ، كثيرة الرفق ، دون ما ضائقات بالغة ، ولا فترات رخاء عارم . . . وكان هذا الاعتدال — إلى حد كبير — نتاج طبيعتى التى جمعت بين التوثب والضعف ، ومن ثم فهى أقل اندفاعا إلى الإقدام ، منها إلى التأثر بالمثبطات . . . وأنها لتخرج من تقاعدها بفورات ، ولكنها لا تلبث أن تعود بتقاعس واستمرار . . . كما أنها تحملنى دائما — بعيدا عن الفضائل الكبرى ، وأكثر بعدا عن الرذائل الكبرى — إلى حياة الخمول والدعة التى كنت أظننى قد خلقت لها ، دون أن تمكننى إطلاقا من تحقيق أى شىء عظيم ، سواء كان طيبا أو خبيثا !

ألا ما أعظم اختلاف الصورة التى سأرسمها عاجلا ! . . فإن القدر الذى ظل خلال ثلاثين عاما يحاسبى ميولى ، راح يعارضها ثلاثين عاما أخرى ، وسيتجلى كيف أن هذا التعارض المستمر بين مركزى وميولى ، قد خلق عيوباً جسيمة ، وتعاسات لم يسمع لها مثيل . وكل الفضائل — فيما عدا القوة — التى تجعل من البلاء أعبالا مجيدة !

لقد كتب الجزء الأول بأسره من اعترافتى ، من الذاكرة . .
ولا بد أننى ارتكبت كثيرا من الأخطاء فيه ، أما وأنا مضطر إلى
كتابة الجزء الثانى من الذاكرة . . كذلك . . فمن المحتمل أنى
سأرتكب مزيدا من الأخطاء ! . . فإن الذكريات الناعمة التى
تبقت لى من أموامى الجميلة ، التى انقضت فى هدوء وبراءة ،
قد تركت الف اثر غائن أحب أن أسترجعه دون ما توان ! . .
ولسوف يتجلى عاجلا مدى اختلاف هذه الأعوام من بقية
مبصرى . إن استعادة ذكراها لى لون من المראה المتجددة .
وبدلا من أن أضاعف مرارات حلى الراهنة بتلك الذكريات
الباعثة على الأسى ، فإننى أقصيها إلى أبعد ما أستطيع ،
وكثيرا ما أتجبع فى ذلك ، إلى درجة أننى لا أقوى على العثور
عليها عند الحاجة . وأن هذه المقدرة على نسيان الهموم
بسهولة ، لعزاء أسبقته السماء على ، وسط تلك الهموم التى
راقى للتدبر أن يهيلها يوما على رأسى . فإن ذاكرتى التى تستعيد
بمقدرة غدة ما يستحب من الأمور ، هى العامل المرجح السعيد
الذى يغالب خيالى الفظيع الذى لا يجعلنى أرى سوى القاسى
من أحداث المستقبل !

إن كل الأوراق التى جمعتها كى تعيننى على التذكر ، وكى
أهتدى بها فى هذا المشروع ، قد انتقلت إلى أيد أخرى ، ولن
يقدر لها أن تعود إلى يدي . . ومن ثم فليست أملك مرشدا
أميئا أستطيع أن أعتد عليه ، اللهم إلا واحدا ، يتمثل فى
سلسلة الأحاسيس التى كانت تنم عن تتابع نمو كيانى ، وعن
الأحداث المتعاقبة التى كانت إما سببا وإما نتيجة لتلك
الأحاسيس والمشاعر . . إننى لأتسى مصائبى بسهولة ، ولكنى

لا أستطيع أن أنسى أخطائي ، كما أنني أقل نسياناً للشاعري
الطبيعية ، فإن ذكرها أمر لدى من أن تمحى عن صفحة قلبي
إلى الأبد . ولقد أستطيع أن أحذف شيئاً من الوقائع أو أن
أحرفها ، وقد ارتكب أخطاء في التواريخ ، ولكن من المتعذر أن
يختلط على الأمر — أو أن أخطئ — إزاء ما حملتني عواطفى
على فعله . وهذا هو الموضوع الرئيسى هنا . فإن الفرض
الحقيقى لاعترافتى هو أن أكشف بدقة عن بخيلة نفسى في
جميع مواقف حياتى . . فإنى إنما وعدت بأن أروى قصة
نفسى . ولكى أكتبها بآمانة ، لا أراى بحاجة إلى مذكرات
أخرى ، إذ يكفينى أن أعود للغوص في أعمالتى ، كدائى حتى
الآن !

على أن ثمة فترة تتألف من ست أو سبع سنوات ، املك
— لحسن الحظ — معلومات وثيقة عنها ، ممثلة في مجموعة
منسوخة من خطابات معينة ، استقرت النسخ الأصلية لها في
حوزة السيد « دى بيرو » . وهذه المجموعة — التى تنتهى
في سنة ١٧٦٠ — تشمل جميع الفترة التى مكثتها في « الصومعة »
— (الارميتاج) — ونزاعى الكبير مع من كانوا يزعمون أنهم
أصدقائى . . وإنها لفترة من حياتى جديدة بالذكر ، فهى منبع
كل البلايا الأخرى . أما بالنسبة للخطابات الأصلية الأقرب
مهدا ، والتى بقيت في حوزتى — وهى قليلة العدد جداً — فإنى
لن أنسخها وأضيفها إلى هذه المجموعة التى قدر لها أن تكون
أضخم من أن أرجو أن أوفق في إخفائها عن عيون رقبائى (١) ،

(١) السبلورة التى ذكرها « روبنو » هى : « أخفائها عن أمين (أوجوستا)

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثاني ٢٥٢

وإنما سأسلكها في سياق هذا المؤلف نفسه ، عندما يبدو لي أنها كفيلة بأن تلقى أضواء على الوقائع ، سواء لصالحى أو ضدى . ذلك أننى لا أخشى قط أن ينسى القارىء أننى أكتب اعترافاتى ، وأن يظن أننى أكتب تقریظا أو مبررا لما تخلل حياتى . . وإنما يجدر به ألا يتوقع أن أمسك عن ذكر الحقيقة إذا كانت فى صفى وصالحى .

وفى عدا ذلك ، فليس لهذا القسم الثانى من صفة يشترك فيها مع القسم الأول سوى هذه الحقيقة ، وليس له من ميزة عليه إلا بقدر أهمية الأمور التى يتضمنها . وفى عدا ذلك ، فلن يخفق هذا القسم فى أن يكون مغسيرا لسابقه من كافة الاعتبارات (١) . فلقد كتبت الأول بلذة وسرور وارتياح ، فى

==

البقرة . . وارجوساتى هى جميع « أرجوس » . وهو تعبير مجازى ، فإن « أرجوس » اسم يطلق فى أساطير اليونان على هملاق ذى مائة عين ، أتباعه الربة « هيرا » — عندما تولدتها الشجرة — ليراهب « يو » معشوقة الاله « زيوس » ، التى كانت قد مسخت على شكل بقرة !

(١) التعبير الذى أورده « روسو » هو : « لن يخفق فى أن يكون أفضل شأنا » . وهو ما لا أحسبه يقصده ، فالواقع أن هذا الجزء من اعترافاتى — وهو الذى يشمل الكرامات من ٧ الى ١٢ — يضم أحداثا ومعلومات على قدر كبير من القيمة قد يفوق قدر ما ورد فى القسم الأول . وإنما اختار « روسو » هذا الوصف لأنه كان — عندما كتب هذا القسم — ضحية لاتصالات نفسية قاسية ، أوحى إليه بأن أمر أسعفائه ، الذين أوره فى انجلترا — حيث كتب

==

(ووتون) أو في قصر « ترى » ، وكانت لكل الأفكار التي تواردت على خاطري مباحج جديدة . ولقد رجحت أسترجعها دون انقطاع ، وباستمتاع متجدد ، فاستطعت أن أراجع وانقع ما أوردته من أوصاف — دون ما ملل أو ضيق — حتى أصبحت راضيا عنها . أما اليوم ، فإن ذاكرتي وعقلي الكليين يكادان يجعلانني عاجزا عن كل عمل ، ولست أشغل بهذا القسم إلا مكرها ، والأسى يعتصر قلبي . . إنه لا يمثل — بالنسبة إلى — سوى محن وخيانات وغدر وذكريات تحزن النفس وتمزقها . . إنني لأنزل للدنيا عن كل شيء ، كي أوارى في ليل الزمان ما أنا موشك أن أقوله . . وإنني إذ اضطر إلى الكلام — بالرغم مني — أعمد كذلك إلى الاستخفاء ، وإلى التحايل ، وإلى محاولة الخداع ، وأنحدر إلى تصرفات أنا أبعد الناس عن أن أكون قد خلقت لمبارستها !

إن للسقف الذي أوجد تحته ميوفا ، والجدران المحيطة بي أذانا . وإنني — إذ يحف بي جواسيس ورقباء أشرار ويقظون ، وإذا يتوزعني القلق والهـم — لأسطر على الورق في مجلة بضع كلمات منككة لا أكاد أجد وقتا لأراجعها . فما بالكم بتصحيحها ! . . إنني أدرك أن أمدائي لا يزالون — برغم الحواجز الهائلة التي تقام حولي دون انقطاع — في خوف دائم من أن تجد الحقيقة

=

الكراسات الست الأولى — قد تأمروا عليه مع ملك بروسيا ، فأنهم بلادهم ، وظل ينتقل وهو مثكم ، لا يكاد يامن إلى استقرار . ومن هنا نسدرك سر التشاؤم والأسى والشك والفتور التي تطبع نحيقه هذا :

بنفذا تنسرب منه . فكيف يتسنى لى أن أدفع بها إلى النور ؟ . .
 لسوف أحاول ، وأنا قليل الرجاء فى النجاح . فهذا الذى
 يقول إن فى هذا مادة لصور مستحبة ، وإضفاء ألوان جذابة
 على هذه الصور ؟ . . إننى لهذا أنذر المقبلين على قراءة هذا ،
 بأن ليس ثمة شيء — فى سياق هذا الحديث — يستطيع أن
 يقيهم السأم ، اللهم سوى الرغبة فى استكمال التعرف على
 إنسان ، وسوى الحب الصادق للحق والصدق !



تركتمونى — فى القسم الأول — وأنا راحل محسورا إلى
 باريس ، مخلعا قلبى فى (شارميت) ، حيث أقيمت آخر قلعة لى
 فى أسبانيا (١) ، معتزما أن أعود إلى هناك يوما فأطرح عنسد
 قلعى « ماما » — إذ تكون قد ارتدت إلى نفسها وسجيتها —
 بما أكون قد أحرزت من كنوز ، ومطمئنا إلى طريقتى الموسيقية
 بوصفها ثروة محققة أكيدة !

وتخلفت بعض الوقت فى (ليون) لأزور معارفى ، ولأحصل
 على بعض التوصيات التى أريد منها فى باريس ، ولأبيع كتبى
 الهندسية التى كنت قد حملتها معى . ولقد رحب بى الجميع ،
 فأنظر السيد والسيدة « دى مابلى » اغتباطا لرؤيتى ، ودعوانى
 للغداء عدة مرات ، وتعرفت لديهما بالراهب « دى مابلى » ،
 كما كنت قد تعرفت من قبل بالراهب « دى كونديللاك » ، وكان
 الاثنان قد أقبلا لزيارة شقيقاتهما . ولقد أعطانى الراهب

(١) استلح يثابل « بناء القسوة فى الهواء » متدنا .

« دى مابلى » خطابات تقدمه إلى أناس في باريس ، منها واحد للسيد « دى فونتنيل » ، وآخر للكونت « دى كايبرس » . وقد اتاحت لى الرسالتان معرفة شخصيتين لطيفتين جدا ، لا سيما السيد الأول الذى لم يكف حتى موته عن أن يؤثرنى بوده ، وعن أن يمنحنى — فى الأحاديث التى كانت تدور فى خلواتنا — نصائح كان خليقا بى أن أحسن الاستفادة منها .

وزرت السيد « بورد » الذى كنت قد تعربت به منذ وقت طويل ، والذى كثيرا ما ساعدنى بقلب كبير وباعظم سرور صادق . ولقد ألفيته فى هذه المناسبة على حالة التى مهدتها . فقد كان هو الذى باع كتبى ، كما أعطانى من لديه — أو حصل لى من الغير — على خطابات توصية طيبة . وزرت السيد وكيل الحكومة ، فقد كنت مدينا له بمعرفة السيد « دى بورد » ، كما أدين له بالتعرف إلى الدوق « دى ريشيليو » ، الذى مر بليون فى ذلك الوقت ، سقدمنى السيد « بالو » إليه . وقد أحسن السيد « ريشيليو » استقبالى ، ودعانى إلى أن أزوره فى (باريس) — وهذا ما فعلته عدة مرات — ولكن . . دون أن يكون لهذه الشخصية الرفيعة — التى سأتكلم عنها كثيرا فيما بعد — أى نفع لى !

كذلك زرت الموسيقى « داميد » الذى أولانى عونهُ فى ضائقتى فى إحدى رحلاتى السابقة ، إذ أعارنى — أو منحنى — قلمسوة وزوجا من الجوارب ، لم أردّها إليه قط ، ولا هو سألنى أن أردّها أبدا ، برغم أننا تقابلنا كثيرا منذ ذلك الحين . على أننى لم ألبث أن قدمت إليه — فيما بعد — هدية تعادل تلك الأشياء

تقريباً . وبوسعى أن أتحدث عن نفسى بأشياء أفضل من هذا ، لو أننى كنت بصدد ما كان ينبغى عمله ، لا بما عملته فعلاً . . وهما حالان ليستا سواء ، لسوء الحظ !

كذلك رأيت النبيل السخى «بيريشون» ، فلم أفتقد سخاءه الممهود ، لقد متحنى عين الهدية التى كان قد قدمها من قبل إلى « برنار » اللطيف إذ دفع أجر مقعدى فى عربة البريد السريعة . . وزرت الجراح « باريسو » ، أحسن وأفضل الناس عملاً . كما قابلت عزيزته « جودفروا » التى كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات ، والتى كانت كل مؤهلاتها تقريباً تتمثل فى لطف الخلق وطيبة القلب ، والتى لم يكن فى وسع المرء أن يراها لأول مرة دون أن يوليها حسن اهتمامه ، ولا أن يفارقها دون ما أشفاق وتأثر ، إذ أنها كانت فى آخر أطوار السل ، الذى لم يلبث أن ماتت به بعد ذلك بقليل . وليس أقدر على كشف الميول الحقيقية لآى إنسان ، من أخلاق أولئك الذين يتعلق بهم (١) . . وقد كان بوسع أى امرئ رأى

(١) أردف روسو - فى هامش مؤلفه - معلقاً على هذا بقوله : « ما لم يكن قد خدع فى اختياره من البداية ، أو ما لم تكن شخصية المرأة التى تعلق بها قد تغيرت - بعد ذلك بتأثير مجموعة من الظروف غير المسادية ، فإن من المستحيل أن تكون هذه القاعدة مطلقة . ولو أريد أترار هذه القاعدة دون تعديل ، لجاز الحكم على « مستقراط » بشخصية زوجته « كسنتيت » ، أو « ديون » بشخصية صديقه « كالبيوس » . . وهذا خليق بأن يكون أبعد الأحكام عن الاتصاف ، وأكثرها خطلاً . وفوق هذا ، لا ينبغى أن تطبق هذه القاعدة هنا على زوجتى تطبيقاً يسمو إليها . نهى بالتأكيد أضيق مثلاً وإسهل

« جودفروا » اللطيفة أن يدرك شخصية « باريسو » الطيب .
 إننى مدين لكل هؤلاء الكرام . ولقد أغفلتهم جميعا —
 فيها بعد — لا عن جحود ، بالتأكيد ، وإنما نتيجة ذلك الكسل
 المعتيد الذى كثيرا ما يظهرنى بمظهر الجاحد ! . . بينما الواقع
 أن ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادى قط ، كما أن اظهارهم على
 مرئى ما كان ليكبذننى ما تكبذننى المثابرة على ذكره . ولقد
 كانت المواظبة على التراسل امرا فوق طاقتى دائما ، فإنى ما ان
 أبدا فى الشعور بتكاسلى فيها ، حتى يحملنى الخجل والحيرة
 فى طريقة إصلاح عيبى على مضاعفة هذا العيب ، فإذا بى اكف
 عن الكتابة بالمرة ! ومن ثم فقد لذت بالصمت إزاء هؤلاء ، حتى
 بدا أننى نسيتهم . ومع ذلك فإن « باريسو » و « بيريشون » لم
 يلقيا بالا ، فكنيت أحدهما دائما كما عهدتها . أما فى حالة السيد
 « بورد » ، فلن يلبث أن يتبدى كيف أن الانتقام للشعور بالاهمال ،
 حل — بعد مشرين عاما — محل الحب الصادق والذكاء البديع !
 وما ينبغى لى أن أنسى — قبل مبارحة ليون — شخصية
 لطيفة زرتها فى اغتباط لم أشعر قط بمثله — وقد تركت فى
 فؤادى ذكريات جد رقيقة . تلك هى الأنسة « سير » ، التى
 تحدثت عنها فى القسم الأول (١) ، والتى جددت تعارفى بها عندما

انسياغا للخداع مما كنت تصور ، ولكنها ذات خلق طاهر ، رائع ، خال من
 أى خبث ، جدير بكل تقديرى ، وهذا ما سيظل يحظى به ما حييت .
 (١) الدراسة الرابعة . وقد كتب لها « روسو » يوما أروع خطاب غرامى
 فى كل مخلفاته الأدبية !

كنت في دار السيد « دى مابلى » . ولما كان لدى متسع من الوقت ، في هذه الرحلة ، فقد رايتها كثيرا ، ومال إليها قلبي في وجد قوى . ولدى من الاعتبار ما يحملنى على أن أظن أن قلبها لم يكن على النقيض ، بيد أنها أولتنى من الثقة ما يبدى كل إفراء بأن أسوء استقلالها . ولم تكن تملك شيئا ، ولا كنت أنا أملك أكثر منها ، وكان مركزنا جد متشابهين ، إلى درجة لا تغرى بأن نتحد ، لا سيما وأننى كنت — بالإبراء التى كانت تملكنى — بعيدا كل البعد عن التفكير في الزواج . ولقد أنبأتنى بأن ناجرا شابا ، يدمى السيد جنيف ، كان يبدو راغبا في أن يرتبط بها . وقد التقيت به عندها مرة أو اثنتين ، فترأى لى أنه شساب أمين شريف ، وكان معروفا بذلك . وإذا خيل إلى أنها كانت تحبه ، تمنيت أن يتزوجها — وهو ما فعله فيما بعد — فأسرعت بالرحيل كى لا أكرر صفو عواطفها البريئة ، مزجيا لسعادة هذه الشابة الفاتنة دموعات ، لم يقدر لها أن تستجاب على هذه الأرض إلا لأجل قصير . . . والأسفاه . . . جد قصيرا . . . فقد علمت فيما بعد أنها ماتت بعد عامين أو ثلاثة من زواجها . ولما كنت قد شغلت طيلة رحلتى بحسرات عاطفية ، فقد أحسست — ولا أزال أحس في كثير من الأحيان ، كلما فكرت في ذلك — بأنه إذا كانت التضحيات التى يقدم عليها المرء في سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنا غاليا ، إلا أنه لا يلبث أن يتلقى الجزاء ممثلا في الفكرىات الناعمة التى تخلفها له تلك التضحيات في قرارة فؤاده !

وإذا كنت قد رأيت باريس — في رحلتى السابقة — من ناحية لا تجعلها أهلا للإعجاب ، فإننى رأيت — في هذه الرحلة —

جانبها اللامع . على أن هذا لم يكن الشأن بالنسبة لسكنائى ، فقد ذهبت — حسب ارشاد السيد بورد — للإقامة فى نزل « سان كنتان » ، بشارع (ديه كوردييه) ، على مقربة من « السوربون » . . وكان شارعاً وضيقاً ، ونزلاً وضيقاً ، وحجرة وضيقة . . ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل أن يأوى رجالاً محترمين ، من أمثال جريسيه ، وبورد ، والراهبين الشقيقتين « دى مابلى » ، وكونديللاك ، وكثيرين غيرهم — وإن لم أعثر فيه ، لسوء الحظ ، على واحد منهم — غير أنى التقيت بشاب يدعى السيد « دى بونفون » ، كان ريفيساً أعرج ، محامياً ، يحرص على انتقاء الفاظه . وقد تعرفت من طريقه إلى السيد « روجان » الذى أصبح الآن أقدم أصدقائى . وعن طريقه تعرفت إلى الفيلسوف « ديدرو » ، الذى سأكثر من الحديث عنه فيما بعد .



ولقد وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ ، وكل مواردى خمسة عشر «لوى» ، ومسرحيتى الهزلية «نارسيس» ، ومشروعى الموسيقى . ولما لم يكن لدى وقت أضيعه فى محاولة تعبىر انفاقها على خير وجه ، فقد أسرعى إلى استغلال خطابات التوصية التى كنت أحملها . وأى شاب يصل إلى باريس مزوداً بشكل وسيم ، ومعلناً عن نفسه بمواهبه ، قمين بأن يتأكد دائماً من أنه سيجد ترحيباً . وقد كنت كذلك ، فمكنتى هذا من أن أحظى بنعم كثيرة ، وإن كانت لم تساعدنى مادياً بدرجة تفكر . ومن كافة الأشخاص الذين حملت إليهم التوصيات ، لم يثبت سوى ثلاثة أنهم نافعون لى ، وهم : السيد داميسان

اعترافات جان چال روسو - الجزء الثاني ٢٦١

— وكان سيّدا من (سافوا)، كان إذ ذاك من الفرنسيّان، واحسبه كان ذا حظوة لدى الأميرة «دي كارينيان» ثم السيد «دي بوز»، سكرتير ديوان الخطوط وحارس الأوسمة بديوان الملك... وأخيرا الأب «كاستيل» الجزويتى، مخترع «الكافيسان» (١)، البصرى. وكانت خطابات التوصية للأخيرين منهم صادرة من الراهب «دي مابلى».

ولقد تكلم السيد داميسان بما كانت تمس إليه حاجتى، إذ عرفنى إلى اثنين، أحدهما السيد «دي جاسك»، رئيس برلمان (بورجو) (١)، الذى كان يحقّق العزف على الكمان حذقا بالغا... وثانيهما الراهب «دي ليون»، الذى كان يقيم إذ ذاك فى السوربون، وكان راهبا شابا، موفور اللطف، مات فى زهرة عمره، بعد أن تلقى فى المجتمع لنضع بسنوات تحت اسم الشيفاليه روهان (٢). وكان كل منهما مشغولنا بتعلم الطحين،

(١) الكلافيسان آلة موسيقية، و «الكلافيسان البصرى» آلة ذات مفاتيح تتمثل — الى جانب الأوتار — بكعيات ملونة. ماذا عزف عليها — كما يعزف على الآلة الموسيقية — تنابت الألوان تتابع الأنغام، بحيث تمشى الألوان الأثمانية الشبعة الأولى، مع الأنغام السبعة الأولى فى الموسيقى. وكانت غاية المخترع، أن يحدث المؤثرات النغمية بالألوان!

(١) فى الأصل: «الرئيس لوكالافسوة المخيلة السوداء المستديرة»
(٢) بحثنا من سيرة «الشيفاليه دي روهان»، فلم نجد من يهمل لقب «شيفاليه» — أى فارس — وينطبق عليه ما ذكره «روسو» عن التآلق وقصر العمر، سوى «الشيفاليه لويس دي روهان»، الذى اشترك فى مؤامرة

مدرست أدرسه لهما بضعة أشهر ، مما أتعش مواردى المالية الفاضلة . ولقد أولانى الأب « ليون » وده ، ورغب فى أن يتخفى سكرتيرا له ، ولكنه لم يكن غنيا ، فلم يكن بوسعهم أن يدفع لى مرتبا يتجاوز ثمانمائة فرنك . . فرغضت منصبه وأنا آسف ، إذ لم يكن مرتبه يكفى لنفقات سكنائى وتغذيتى ومستلزمات معيشتى .

أما السيد « بوز » ، فقد استقبلنى استقبالا طيبا جدا . وكان عالما ، ومشغوفا بالمعرفة ، ولكنه كان متغطرسا ببعض الشئ . وكانت السيدة دى بوز خليقة بأن تكون ابنته ، لا زوجته ! وكانت لامعة الذكاء ذات مهابة . وقد تناولت الغداء فى دارهما بضع مرات ، وما كان أحد ليشعر بمثل ما كنت أشعر به من خجل وارتباك فى محضرها ، فقد كان يسلكها غير المتكلف يحرجنى ويجعل مسلكى أدمى إلى الضحك . . فإذا قدمت لى طبقا ، كنت أدفع « شوكتى » فالتقط — فى تواضع — قطعة صغيرة لها تقدمه لى ، بطريقة كانت تجعلها ترد إلى خادمها الطبق الذى كانت قد أمدته لى ، وهى تدير وجهها لى لا أراها وهى تضحك ! . . ومع ذلك ، فما كان يساورها أى

==

تجد الملك لويس الرابع عشر ' وأعدم - ولكن هذا عاش بين سنتى ١٦٢٥ و ١٦٧٤ ؛ أى قبل بولك « روتسو » . و « زوهان » الوحيد الذى علمه « روتسو » هو الأمير ادوان دى زوهان — الذى عاش بين سنتى ١٧٣٤ و ١٨٠٢ — وكان كاردينالا ' ولكنه لم يكن « شيكالييه » . ولعل الأمر التيسر على « روتسو » .

اقتراحات جان جاك روسو - الجزء الثاني ٢٦٢

ريب في صلاحية رأس هذا الريفي الشاب ، ولم يفتها أن ترى فيه بعض الذكاء . ولقد قدمني السيد دي بوز إلى صديقه السيد « دي ريومور » ، الذي اعتاد أن يحضر إلى داره لتناول الغذاء في أيام الجمعة ، وهي أيام انعقاد اجتماعات محفل العلوم . ولقد حدثه السيد دي بوز عن مشروع ، ومن الرغبة التي كانت لدى في أن أضعه تحت اختبار المحفل ، فتكفل السيد دي ريومور بالاقتراح ، فلم يلبث أن حظي بالقبول !

وفي اليوم المحدد لمناقشة المشروع ، تولى السيد دي ريومور تقديمي والتعريف بي . وفي اليوم ذاته - ٢٢ أغسطس سنة ١٧٤٢ - تشرفت بأن قرأت على المحفل المذكرة التي أعددتها لذلك . ومع أن هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرهبة - يقينا - فلننتي كنت أمامه أقل ارتباكاً مني أمام السيدة دي بوز ، واستطعت أن أؤدي القراءة وأن أجيب على الأسئلة بنجاح . فاستقبلت الرسالة بتقدير ، وجلبت لي التهاني ، مما أدهشني أكثر مما سرني . . فما كنت لأتصور أن أي امرئ لا ينتمي إلى المحفل - أيا كان - يبدو لأعضائه ذا إعراف سليم ! وكانت اللجنة التي تولت مناقشتي تتكون من السادة دي ميران ، وهيلو ، ودي فوشى ، وكان ثلاثتهم من الأكفاء دون ما ريب . . ولكن لم يكن بينهم واحد يلم بالموسيقى إلما كانيا - على الأقل - لأن يجعله في وضع يمكنه من الحكم على مشروعى !

سنة ١٧٤٢

وفي خلال مناقشتي مع هؤلاء السادة ، تبينت - في شك أكثر مني في دهشة - أن العلماء وإن كانوا أقل من سواهم

تحملاً ، في بعض الأحيان ، إلا أنهم أكثر تشبهاً بما يكون لديهم من آراء ، وكانهم يجدون في ذلك لونا من التعويض . فبقدر ما كانت معارضة هؤلاء السادة واهية ، وخاطئة في الغالب ، ومع أنني كنت أردّها بحجج قاطعة — برغم تهيبى ، كما ينبغي أن أعترف ، وبرغم سوء تعبيري — إلا أنني لم أوفق مرة واحدة إلى أن أحملهم على أن يفهموا قولى وأن يقتنعوا به . وكنت أبهت دائماً للسهولة التى كانوا يخطئوننى بها — مستخدمين في ذلك بعض العبارات الرنانة — دون أن يكونوا قد فهموا شيئاً . ولقد اكتشفوا — حيث لا أدري — أن راهباً يدعى الأب « سوهيتى » ، كان قد تصور فكرة كتابة السلم الموسيقى بالأرقام . وكان هذا كافياً لأن يزعموا أن طريقي لم تكن جديدة . وقد يكون الأمر كذلك ، إذ أنني وإن لم أسمع قط بالأب سوهيتى ، ومع أن طريقتي في كتابة النغمات الرئيسية السبع في الترانيم الكنسية دون أى تفكير في الثمانيات ، لا تستحق — في أى اعتبار — أن تقاس بابتكارى البسيط الملائم لكتابة جميع أنواع الموسيقى الممكن تصورها ، في غير مشقة ، بواسطة الأرقام : من طبقات ، ووقفات ، وثمانيات ، ومساافات وتوقيت ، وتقييم . . وكلها أشياء لم تخطر لسوهيتى ببسالة إطلاقاً . . بالرغم من كل هذا ، فقد كان من الصحيح تماماً أن يقال إنه — فيما يتعلق بالتعبير الأولى عن النغمات الرئيسية السبع — كان أول مبتكر في هذا المضمار . ولكنهم (١) لم يكتفوا بأن يعزوا إلى هذا الابتكار البدائى أهمية أكثر مما كان

(١) يعتمد « روسو » أعضاء المحفل الذين تولوا نقله .

يستحقها ، وإنما أبوا أن ينفوا عند هذا ، ويسجد أن حاولوا أن يتكلموا عن المبادئ الأساسية للطريقة ، لم يقولوا سوى لغو .

كانت الميزة الكبرى لطريقتي ، هي الاستغناء عن التبديل والطبقات ، بحيث يمكن كتابة أية قطعة ونقلها حسب الرغبة ، وبها تكن الطبقة المنشودة ، بوساطة التبديل المقترح في حرف ابتدائي واحد عند بداية اللحن . ولكن هؤلاء السادة كانوا قد سمعوا بعض مدعى الموسيقى في باريس يقولون إن طريقة العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة . ومن هنا ، قلبوا أبرز ميزات طريقتي إلى اعتراض ضدها يتمتر التغلب عليه ، وانتهوا إلى تقرير أن طريقتي صالحة للأداء الصوتي ، وغير صالحة للأداء الآلي ، بدلا من أن يقرروا — كما كان ينبغي — أنها صالحة للأداء الصوتي ، وأكثر صلاحية للأداء الآلي . ونساء على تقريرهم ، منحني المحفل شهادة مليئة بالاطراء السديع للغاية ، يتبدى خلال سطورها أنه — في الواقع — لم ير أن طريقتي جديدة ولا نافعة ! .. ولم أشعر قط بأن من الواجب أن أزين بمثل هذه الوثيقة مؤلفي الذي سميت « رسالة في الموسيقى الحديثة » ، ولجأت فيه إلى تحكيم الرأي العام !

ومن حتى — في هذه المناسبة — أن الفت النظر إلى أن المعرفة الممتازة بالشيء — على شريطة أن تكون شاملة عميقة — أفضل من كافة الأضواء التي تلقىها الثقافة والعلوم ، في تمكين المرء من إصابة الحكم ، إذا لم تكن هذه الأضواء مقترنة بدراسة خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث . وكان الاعتراض القوي الوحيد ، الذي وجه إلى طريقتي ، موجه من «رامو» .

وما أن شرحت له ردى ، حتى تبين ضعفه ، فقال : « ان علامتك صالحة جدا ، من حيث أنها تحدد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح ، كما أنها تعين المسافات بدقة ، وتبين دائما النغم المفرد في حالة ازدواج النغم ، وهى أمور لا تيسرها طريقة النوتة العادية . . ولكن علامتك غير صالحة من حيث أنها تتطلب جهدا ذهنيا لا يتناسب دائما مع سرعة الأداء » . واستطرد قائلا : « ان وضع علامتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة إلى الاستماعة بهذا الجهد ذهنى . فإذا ارتبط نغمان - أحدهما مرتفع جدا ، والآخر منخفض جدا - بسلسلة من الأنغام الوسيطة فإن بوسعى أن أرى - من أول نظرة - التطرق التدريجى من أحد النغمين إلى الآخر . . أما حسب طريقتك ، فلا بد لى - للتأكد من هذا التسلسل - من أن أورد كل أرقامك بتعاقبة - الواحد بعد الآخر ومن ثم فإن النظرة الشاملة لاتملك بشيء » !

ولاح لى أنه اعترض منكم ، فافترت لتوى بقوته ، فى حين أنه بسيط ومدهش ! . . فهو اعترض لا توحى به سوى الخبرة الواسعة بالفن ، ومن ثم فلا مجب فى أنه لم يخطر ببال أحد من أعضاء المحفل ، ولكن هذه هى حال هؤلاء العلماء الكبار جميعا ، فهم يعرفون كل الأشياء ، بيد أن المامهم بكل شيء - على حدة - قليل ، بحيث لا ينبغى للواحد منهم أن يقضى برأى إلا فيما يتعلق بالفرع الذى اختصه بدراسته !

وقد اتاحت لى زيارتى المتعددة لأعضاء لجنة مناقشة رسالتى ، ولغيرهم من أعضاء المحفل ، فرص التعريف لى

جميع أولئك الذين كانوا في طليعة المبرزين في ميدان الأدب في (باريس) . ومن ثم فإلغنى كنت على معرفة قائمة بهم ، عندما وجدتني — فيما بعد — مدرجا بغتة في سلكهم . أما في الفترة التي اتحدث عنها ، فقد كنت — لفرط استغراقى في طريقتى الموسيقية — مصرا على أن أحدث بها انقلابا في هذا الفن ، وأن أحرز بهذا شهرة ترتبط دائماً في ميادين الفن الجميل — في باريس — بالثراء ! . . ولهذا احتبست نفسى في غرفتى وعكفت على العمل شهرين أو ثلاثة في حمية لا سبيل إلى وصفها ، لأشرح — في مؤلف أقدمه للرأى العام — المذكرة التي قرأتها على المحلل . وكانت العقبة تتمثل في العثسور على ناشر يتكفل بمؤلفى ، نظرا لأن الرموز الجديدة كانت تتطلب بعض نفقات ، في حين أن الناشرين لا يبيعثرون دراهمهم على رؤوس المبتدئين ، مع أننى كنت أرى أن من الإنصاف أن يعود على مؤلفى بالخبز الذى التهمته وأنا أكتبه !

وعثر لى « بونفون » على « كايو » — الأب — الذى عقد معى اتفاقا على أن نقسم الربح ، بغض النظر عن « الامتياز » (١) الذى كان على أن أتكفل بدفع نفقاته وحدى . وقد أساء « كايو » — المذكور — تدبير الأمر ، بحيث أن النقود التى دفعتها لأحصل على الامتياز ذهبت أدراج الرياح ، ولم أخرج بدراهم واحد من هذه الطبعة ، التى كانت — في الواقع — ضئيلة

(١) نظام 'مقابل' « حق النشر » ، يقرر حق نأىج كتاب معين ، على مؤلف

أو ناشر معين .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

الرواج ، بالرغم من أن الراهب « ديفونتين » وعد بالعمل على ترويجها ، كما أن غيره من الصحفيين تحدثوا عنها حديثا طيبا!

ولقد كانت العقبة الكبرى في تجربة طريقتي ، هي أن أحدا لم يكن ليرضى بأن يضيع الوقت الذي يتطلبه تعلمها ، إذا هي لم تصبح الطريقة السائدة في الموسيقى . وقد قلت ردا على ذلك ، أن المران على أسلوبى في العلاقات الموسيقية ، يجعل الأفكار من الوضوح بحيث أن الذى يشرع فى تعلم العلامات الموسيقية العادية ، يستطيع أن يقتصد من الوقت الذى يستغرقه تعلمها ، إذا هو بدأ بطريقتى . ولأقامة الدليل العملى، قدمت دروسا فيها — بالمجان — لشابة أمريكية تسمى الأنسة « دى رولان » ، كان السيد روجان قد عرفنى بها . فإذا بها تصبح — خلال ثلاثة أشهر — قادرة على أن تقرأ على «نوتتى» أى نوع من الموسيقى ، وأن تغنى بمجرد النظر إلى « النوتة » — باثقان يفوق اتقانى أنا — كل قطعة غير بالغة الصعوبة . وكان هذا التوفيق رائعا، ولكنه ظل مجهولا . فقد كان أى امرئ سواى خليقسا بأن يملا الصحف به ، أما أنا ، فبالرغم من أننى أوتيت المقدرة على اكتشاف الأشياء المفيدة ، إلا أننى لم أمد قلمى إلى إبراز قيمتها !

وهكذا تحطمت « نافورتى الصغيرة » مرة أخرى (١) .

(١) يشبه « روسو » مشروعه الموسيقى ، بالنافورة الصغيرة التى بنى عليها كمالا عندما بارح (تورين) ، والتى أورد قصتها فى الكرامسة الثالثة بالجزء الأول .

ولكنى فى هذه المرة الثانية ، كنت فى الثلاثين من عمري ، وكنت قد وجدت نفسى فى طرق (باريس) المعبدة ، حيث لا يستطيع المرء أن يعيش بلا موارد . ولن يدهش القرار الذى انتهى بهى إلى هذه النهاية ، سوى أولئك الذين لم يقرأوا بلامسان الجزء الأول من هذه المذكرات ! . . . ذلك لأننى كنت قد بذلت مجهودا كبيرا ، وإن لم يكن مثمرا ، فكنت بحاجة إلى استجمام . وبدلا من أن استسلم للقنوط ، أسلمت نفسى لضمولى المعهود ، وللعناية الالهية ، ولكى ادع لهذه العناية وقتا كى تقوم فيه بدورها ، فقد أقبلت على انفاق بضع قطع مالية من غنسة «لوى» . كانت قد بقيت معى . . . فى غير ما تمجلى . . . ودبرت نفقات متعى البريئة بحيث لا اتخلى عنها ، فلم أعد أذهب إلى المقهى سوى مرة فى كل يومين ، وإلى المسرح مرتين فى الأسبوع . أما النفقات اللازمة لصحبة الفتيات ، فإننى لم أكن بحاجة إلى الحد منها ، لأننى لم أنفق «سو» واحد على هذه الناحية ، فى حياتى ، اللهم إلا فى مناسبة واحدة ، سأضطر إلى الحديث عنها بعد قليل .

((كتابي))

صدر من هذه السلسلة :

- | | |
|--------------------------------|----------------------------|
| ١ - وجوه الحب السبعة | ٢٥ - العرب والسلام ج ٤ |
| ٢ - العصب الأول | ٢٦ - تسليم كيف تسترخي |
| ٣ - جريمة حب | ٢٧ - مسركب النقص |
| ٤ - أنا كارنيستا | ٢٨ - غرام مسوان ج ١ |
| ٥ - العرب والسلام ج ١ | ٢٩ - غرام مسوان ج ٢ |
| ٦ - العرب والسلام ج ٢ | ٣٠ - كيف نجحوا في الحياة |
| ٧ - الخاطبة | ٣١ - كيف تحصل على الثروة |
| ٨ - البؤساء ج ١ | ٣٢ - غرام مسوان ج ٣ |
| ٩ - مدام بوفاري ج ١ | ٣٣ - لماذا أنت عصبى |
| ١٠ - مدام بوفاري ج ٢ | ٣٤ - عش بحكمة عش سليما |
| ١١ - البؤساء ج ٢ | ٣٥ - زواج العصب |
| ١٢ - الخطيئة الأولى | ٣٦ - التحليل النفس للأحلام |
| ١٣ - الفتن | ٣٧ - حذار من الشبهة |
| ١٤ - العصب هو الكتل | ٣٨ - أمير الانتقام |
| ١٥ - فسن العيشة | ٣٩ - اعترافات جان روسو ج ١ |
| ١٦ - د. زيفاجيسو ج ١ | ٤٠ - اعترافات جان روسو ج ٢ |
| ١٧ - د. زيفاجيسو ج ٢ | تحت الطبع : |
| ١٨ - د. زيفاجيسو ج ٣ | ٤١ - اعترافات جان روسو ج ٣ |
| ١٩ - د. زيفاجيسو ج ٤ | ٤٢ - اعترافات جان روسو ج ٤ |
| ٢٠ - البؤساء ج ٣ | ٤٣ - اعترافات جان روسو ج ٥ |
| ٢١ - العرب والسلام ج ٣ | ٤٤ - مرتفعات ويلرنج ج ١ |
| ٢٢ - مهلكة سقراط | ٤٥ - مرتفعات ويلرنج ج ٢ |
| ٢٣ - الجريمة لا تفيد | ٤٦ - مرتفعات ويلرنج ج ٣ |
| ٢٤ - نساء وماس في ساحة العدالة | ٤٧ - قل سوب مسألة |
| | ٤٨ - أوديب |

اعترافات إجان تجاه يوسو - الجزء الثاني ٢٧١

٦٩ - عاشقات في الكريف .	٦٢ - نينو تشيكا ج ٢ .
٥٠ - أسرار الجاسوسية .	٦٣ - ماري ايلانوفسكا .
٥١ - الابن الضال .	٦٤ - الخسب الدون .
٥٢ - أرواح هائبة .	٦٥ - البسبست .
٥٣ - الثمن للوطن .	٦٦ - الائمة ج ١ .
٥٤ - السبعة ج ١ .	٦٧ - الائمة ج ٢ .
٥٥ - السبعة ج ٢ .	٦٨ - الائمة ج ٣ .
٥٦ - بشر سبع ج ١ .	٦٩ - القامسة ج ١ .
٥٧ - بشر سبع ج ٢ .	٧٠ - القامسة ج ٢ .
٥٨ - جين ايسر ج ١ .	٧١ - القامسة ج ٢ .
٥٩ - جين ايسر ج ٢ .	٧٢ - بوشبستين .
٦٠ - جين ايسر ج ٢ .	٧٣ - ذات السرداء الابيض .
٦١ - نينو تشيكا ج ١ .	

رقم الإيداع : ٤٣٧٦
التروقيم الدولي : ٦ - ٠٨٠ - ١٦٣ - ١٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
طيفسون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزي القارئ ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فأليك ما كتبته عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» في عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال : « واعترافات جان جاك روسو من الكتب التي يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. » .

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقي» في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهور القراء عن مطالعة كتب «روسو» أخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل . »

.. والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هي أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التي كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» في هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

علمي مراد

Bibliotheca Alexandrina



0395432

To: www.al-mostafa.com